ميخائيل ليرمونتوف

بطل من هذا الزمان

دار «رادوغا»
موسكو

ترجمة سامي الدروبي
رسوم فيودور كونستانتينوف

М. Лермонтов
ГЕРОЙ НАШЕГО ВРЕМЕНИ
Роман
На арабском языке

طبع في الاتحاد السوفييتي

© دار «رادوغا» ، ١٩٨٤

Л $\frac{4702010100-162}{031(01)-85}$ без объявления

المقدمة ، فى كل كتاب ، هى اول شيء وآخر شيء ؛ تهدف اما الى شرح غاية الكتاب ، واما الى تبريره والرد على ما عسى ان يوجه اليه من نقد . ولكن القارئ لا يعنى ، لا بالهدف الاخلاقى ، ولا بهجمات المجلات ؛ وهو لذلك لا يقرأ المقدمات . ومن المؤسف ان يكون الامر كذلك ، ولا سيما فى بلادنا التى لا يزال جمهورها جديدا بسيطا لا يفهم الحكايات ، ما لم يجد فيها ، آخر الامر ، عظة اخلاقية . فهو لا يكتشف المزاح ، فى مجتمع راق و كتاب جيد ، وان المدنية الحديثة قد ابتدعت سلاحاً امضى ، ولكنه قاتل ، يسدد ، تحت ستار من التملق ، ضربات صائبة لا سبيل الى تفاديها . ان جمهورنا اشبه بريفى سمع حديث رجلين من رجال الدبلوماسية يمثلان بلاطين متعادين ،

فاعتقد ان كلا منهما يخون حكومته ، ما دامت تقوم بينهما الى الآن صداقة رقيقة .

لقد شقى هذا الكتاب ، مؤخرا بذلك النوع من التصديق الساذج لدى بعض القراء ، بل ولدى المجلات التى تفهم الامور فهما حرفيا . فاستاء بعضهم استياء فظيعا لا مزيد بعده لمستزيد ، من تصويرنا نموذجا يبلغ من الابتعاد عن الاخلاق ما بلغه «بطل من هذا الزمان» ؛ وقال آخرون ، فى كثير من الرقة والرهافة ، لا شك ان المؤلف قد رسم صورة نفسه ، وصورة من يعرف من الناس . . . يا له من اتهام قديم تافه ! ان كل شيء ليتجدد فى روسيا ، الا هذه البلاهات . وما اعسر ان تنجو حكاية من الحكايات ، مهما تغرق فى الخيال ، من اتهامها بانها ارادت ان تسيء الى شخص بعينه .

ايها القراء الاعزة ان «بطل من هذا الزمان» لهو صورة حقا ، ولكنه ليس صورة رجل واحد . انه صورة تضم رذائل جيلنا كله ، وقد بلغت كمال التفتح . قد تقولون لى مرة اخرى : ما من انسان يمكن ان يبلغ هذا المبلغ من الفساد .

وجوابي : ترى لماذا تصدقون وجود جميع فجرة المآسي والروايات الرومنسية ، ثم لا تصدقون بان شخصا مثل بتشورين يمكن ان يكون مستمدا الواقع ؟ وكيف تطيب لكم اخيلة افظع وارهب ، ثم لا تلقى منكم صورة هذا الشخص ، حتى ولو كانت خيالا ، قبولا ورضى ؟ ترى الا يرجع ذلك الى ان هذه الصورة اصدق مما تحبون ؟ . .

ورب قائل منكم يقول : ان الاخلاق لا تجنى من ذلك خيرا ، فعلى رسلكم . لقد طالما غذى الناس بالحلوى حتى فسدت معدهم . وينبغي ان يتناولوا الآن عقاقير مرة وحقائق لاذعة . ولا تظنوا مع ذلك ان مؤلف هذا الكتاب قد دار في خلده يوما ذلك الحلم الدعي ، وهو ان يقيم نفسه وصيا على الناس يصلح ما فسد من اخلاقهم . وقانا الله شر الادعاء العريض . وانما احببت على سبيل التفكه ان اصور انسان هذا العصر ، كما فهمته ، وكما اتفق لي ان لقيته في كثير جدا من الاحيان ، لسوء طالعي ولسوء طالعكم . وحسبي ان اشير الى الداء اما وسائل البرء فعلمها عند الله .

الفصل الأول

١

بيلا

غادرت تفليس على عربة من عربات البريد . وكان متاعي كله حقيبة صغيرة تحتل نصفها مذكراتى عن رحلتي فى جورجيا . ومن حسن حظك ايها القارئ الصديق ان معظم تلك المذكرات قد ضاع ، ولكن من حسن حظى اننى احتفظت بالحقيبة مع اشيائي الاخرى .

كانت الشمس قد بدأت تغيب وراء سلسلة من الذرى التى يكسوها الثلج ، حين دخلت وادى كويشاؤورى . وكان سائق العربة ، وهو رجل اوسيتى ، يستحث الخيل فى كل لحظة ، رجاة ان يصل الى قمة جبل كويشاؤورى قبل الليل ، وكان يغنى ملء حنجرته . ان هذا الوادي لمكان رائع حقا : فأينما تتجه ببصرك تر جبالا منيعة ؛ والصخور الضاربة الى الحمرة يتشبث بها اللبلاب وتتوجها مجموعات من اشجار الدلب ؛ ومنحدرات

وعرة صفراء تخددها مجارى السيول . فاذا نظرت الى اعلى رأيت اهداب الثلوج تسطع بلون الذهب . واذا نقلت بصرك الى تحت رأيت نهر آراغفا ، اتحدت امواهه بامواه نهر آخر لا اسم له ، يتدفق صاخبا من مضيق اسود حافل بالضباب ، ثم يمتد كخيط من الفضة طويل ، ويسطع كحية فى الشمس .

فلما وصلنا الى سفح جبل كويشاؤورى توقفنا على مقربة من دكان * ، وكان هنالك نحو عشرين جورجيا وجبليا فى جلبة ولغط . وكانت هنالك قافلة من الجمال وقفت غير بعيد من ذلك المكان لقضاء الليل . وكان عليّ ان اكتري ثيرانا تجرّ عربتي على هذا الجبل الخطر ، فلقد كان الوقت خريفا والجليد يغشى الجبال . وكان عليّ ان اجتاز ما يقرب من فرستين ** .

استأجرت ستة ثيران ، وبضعة رجال من اهل البلد ، حمل احدهم حقيبتي على كتفيه ،

* الدكان فى القفقاس هو المطعم .
** الفرست يزيد قليلا عن الكيلومتر .

وراح الآخرون يساعدون فى سير العربة ، ولكن مساعدتهم هذه كادت تكون بالصراخ فى الدوات فحسب .

ورأيت وراء عربتي اربعة ثيران تجر عربة اخرى بلا جهد ظاهر ، مع ان العربة تعج باحمال كثيرة . فأدهشني ذلك . وكان يتبعها رجل يدخن غليونا صغيرا من كاباردا مزينا بالفضة . كان الرجل يرتدي لباس ضابط بلا شارات على الكتفين ، وعلى رأسه قلبق شركسى . وكان وجهه يدل على انه فى نحو الخمسين من عمره . وكانت بشرته السمراء تدل على ان شمس القفقاس قد لفحته مدة طويلة ، وكان شارباه اللذان ابيضا من الشيب قبل الاوان لا يتناسبان مع خطواته القوية وملامحه الحازمة . فاقتربت منه وانحنيت له ، فرد على تحيتى صامتا ، وسحب من غليونه نفسا كبيرا . قلت له :

— اظن اننا نسير فى طريق واحدة ؟

فانحنى مرة ثانية ، صامتا ايضا ، فاستأنفت اسأله :

— لعلك ذاهب الى ستافروبول ؟

— هو كما تقول . . . واحمل هذه الاشياء كلها الى الادارة .

— هل لك ان تُفهمنى ، من فضلك ، كيف تستطيع هذه الثيران الاربعة ان تجر عربتك الثقيلة ، بمثل هذه السهولة ، ثم لا تكاد تقدر ثيرانى الستة التى يعاونها جميع هؤلاء الاوسيتيين ان تجر عربتي مع انها فارغة ؟

فابتسم ابتسامة ماكرة . وقال وهو ينظر اليّ نظرة معبرة :

— اراهن على انك لا تقيم فى القفقاس الا منذ مدة قصيرة .

قلت :

— منذ سنة .

فابتسم مرة اخرى . قلت :

— لماذا لا تجيب ؟

— اسمع . ان هؤلاء الآسيويين خبثاء ! أتظن ان صراخهم هذا يفيد ؟ حاول ان تفهم هذا الكلام الذى يجأرون به ! ان ثيرانهم وحدها تستطيع ان تفهمه . لو كدنت عشرين ثورا ، فلن تتحرك الثيران ، متى اخذوا يصيحون هذا

الصياح الذي يعرفونه . . . انهم ماكرون رهيبون ! وماذا يمكن ان نأمل منهم ؟ انهم يحبون ان يبتزوا من المسافر مالا . . . لقد اسرفنا فى تدليل هؤلاء اللصوص ! سترى انهم سيطلبون اليك فوق اجرتهم عطاء . ولكني اعرفهم ، ولا ادع لهم ان يخدعوني !

— أأنت تخدم هنا منذ مدة طويلة ؟

فاجاب وهو ينتصب :

— نعم لقد خدمت منذ ايام الكسى بتروفتش * . كنت ملازما حين وصل الى الجبهة . وقد رُفّعت مرتين اثناء مقاتلتي سكان الجبال بقيادته .

— والآن ، انت ؟ . .

— انا الآن انتمي الى الكتيبة الثالثة من الجبهة . وانت ؟ هل يحق ان اسألك من انت ؟

فقلت له من انا .

ووقف الحديث عند هذا الحد ، وواصلنا السير صامتين جنبا الى جنب . وفى قمة الجبل

---

* هو بيرمولوف — جنرال روسى ، كان قائدا عاما فى القفقاس (١٧٧٢ — ١٨٦١) .

وجدنا ثلوجا . كانت الشمس قد غابت ، واعقب الليلُ النهارَ فورا على ما هو مألوف فى الجنوب . ولكن كان يسهل علينا ، من التماع الثلج ، ان نميز الطريق الصاعدة ، ولو ببطء . وامرت بوضع الحقيبة فى العربة ، وابدلت الثيران خيلا ، وغرق بصرى مرة اخيرة فى الوادى . الا ان ضبابا كثيفا كان يتصاعد من فجاج الجبل ، ويغطى الوادى بسحبه يتلو بعضها بعضا ، وما كان يرقى الينا اى صوت من تحت . واحاط بى الاوسيتيون صاخبين يطلبون عطاء . ولكن الضابط اومأ اليهم بقسوة ، فغابوا بلمحة عين . قال صاحبى :

— يا لهؤلاء الناس ! انهم لا يعرفون كيف يسمون الخبز بالروسية ، ولكنهم تعلموا ان يسألوك بالروسية : «سيدى الضابط ، هل لى منك بعطاء» . انى لأوثر عليهم رجال التتر ، فالتتر لا يشربون الخمرة ، فى اقل تقدير . . .

وكان علينا ان نقطع فرستا قبل ان نصل الى المحطة التالية . كان كل شىء من حولنا ساكنا هادئا ، حتى ليستطيع المرء ان يتابع طيران الذبابة من سماع دندنتها . وكان على شمالنا

فج عميق بشكل ثغرة كبيرة سوداء ، ووراءه وامامنا ذرى الجبال ، وقد خددتها الغضون وغشيتها الثلوج ، تبدو بلون ازرق قاتم ، وتنتصب فى الافق الشاحب الذى كان لا يزال يحتفظ بشيء من التماعات الشفق . وكانت النجوم تشتعل فى السماء القاتمة نجمة نجمة ، ومن الغريب انها لاحت لى اعلى مما نراها فى بلادنا بالشمال . وعلى حافتى الطريق ، تقوم الصخور سوداء عارية . وهذى شجيرات تبرز هنا وهناك من تحت الثلج ، ولكن ما من ورقة جافة تتحرك ؛ كان يحلو لنا ، فى صمت الموت هذا الذى يرين على الطبيعة ، ان نسمع شخير افراسنا الثلاث المكدودة ، ورنين الاجراس الروسية تجلجل على غير اطراد . قلت :

— سيكون الجو جميلا فى الغد !

فكان جواب الضابط ان أومأ باصبعه الى جبل عال كان ينتصب امامنا . قلت :

— ما هذا الجبل ؟

— انه جبل الجود .

— وماذا تريد ان تقول ؟

— انظر كيف يتصاعد منه الدخان !

حقا ، لقد كانت تتصاعد من جنباته سحائب خفيفة من البخار ، وكانت تمتد على ذروته غيمة سوداء ، كأنها من سوادها بقعة فى السماء القاتمة .

وأمسينا نميز المحطة ، ونرى سقوف الاكواخ التى تحف بها ، وتتراءى لنا الاضواء المتراقصة ، حين اخذت تهب ريح رطبة باردة ، وحين اخذ الفج يئن ، واخذ يهطل رذاذ من المطر . فما ان وضعت معطفى على كتفىّ حتى طفق الثلج يهطل سبائخ كبيرة . ونظرت الى الضابط الرئيس ممتثلا ، فقال فى مضض :

— سنضطر الى التلبث هنا طوال الليل ، فمن المستحيل ان نجتاز الجبال فى جو كهذا . ثم التفت الى السائق يسأله :

— قل لى ، ايها الصديق ، هل يتهافت الثلج من جبل كرستوفايا ؟

فاجابه الاوسيتى بقوله :

— لم يتهافت بعد يا سيدى ، ولكنه يوشك ، يوشك .

ولما لم تكن فى المحطة غرف للمسافرين ، اقتادونا الى كوخ مدخن نقضى فيه الليل . ودعوت رفيق الطريق الى احتساء قدح من الشاى معى ؛ فقد كنت املك غلاّية من المعدن ، وهى سلواى الوحيدة فى اسفارى عبر القفقاس .

كان الكوخ ملتصقا بالصخرة من احد جوانبه ، وكانت هناك ثلاث درجات رطبة منزلقة تؤدى الى الباب . فدخلت متلمسا ، واصطدمت ببقرة . (ان الزريبة تقوم لدى هؤلاء الناس مقام حجرة المدخل) . ولم اعرف الى اية ناحية اتجه ؛ فها هنا خراف تشغو ، وها هنا كلب ينخر . ومن حسن حظى ان ضوءا كابيا فى ركن من الاركان اتاح لى ان اكتشف فتحة اخرى تشبه بابا ، فدخلت ، فاذا انا امام لوحة شائقة : ان الكوخ الواسع الذى يسند سقفه عمودان اسودّا من الدخان ، كان يعج بالناس . وفى وسطه تلتمع نار اوقدت على الارض ، والدخان الذى تصده ريح آتية من فتحة السقف ، ينتشر كأنه غطاء كثيف ، حتى لقد ظللت مدة طويلة لا اميز شيئا . كانت هناك امرأتان عجوزان ، واطفال

كثيرون ، وجورجي نحيل ، وكانت تغطيهم جميعا اسمال بالية ، وقد تحلقوا حول النار يستدفئون . ولم يبق علينا ، نحن ايضا ، الا ان نجلس على مقربة من النار ، وان نشعل غليونينا . وما هي الا لحظة حتى اخذت الغلاية تغني غناء حبيبا الى القلب .

قلت للرئيس ، وانا اشير الى هذه المخلوقات القذرة التي كانت تنظر الينا صامتة بنوع من الحيرة :

— مساكين هؤلاء الناس .

— انهم اغبياء . هل تصدق ذلك ؟ انهم لا يجيدون اي عمل ، يعجزون عن تعلم اي شيء . ان جماعتنا الكاباردييين والتشتشينيين ، على انهم من الصعاليك وقطاع الطرق ، يمتازون بحرارة الدم في اقل تقدير . اما هؤلاء فلا يميلون حتى الى السلاح اي ميل . وما من واحد منهم يملك خنجرا مناسبا ! انهم اوسيتيون وكفى !

— وهل عشت في تشتشينيا مدة طويلة ؟

— نعم ، لقد ظللت مع سريتي عشر سنوات ، بقلعة كامني برود . هل تعرفها ؟

— سمعت عنها .

— يا ويلنا مما لقينا من هؤلاء الناس ايها السيد ! الحمد لله على انهم هدأوا الآن بعض الهدوء . اما في ذلك الوقت فكان يكفي ان تخرج عن المتاريس مسافة مائة خطوة حتى تكون على يقين من ان شيطانا رجيما يتربص بك ، فاذا ذهلت لحظة واحدة وجدت نفسك وقد تلقفك حبل ينزلق على عنقك او تصيبك رصاصة في نقرتك ! يا لخشونتهم وقوة بأسهم !

قلت له ، يدفعني حب الاستطلاع :

— لا شك ان مغامرات كثيرة وقعت لك .

— مغامرات ؟ . . هه ! . .

قال هذا ، واخذ يفتل شاربه الايسر ، مطرقا حالما . واستبدت بي رغبة جامحة في استدراجه الى سرد قصة من القصص ، وهي رغبة طبيعية لدى جميع الذين يقومون برحلات ويسجلون ملاحظات . وغلى الماء اثناء ذلك ، فتناولت من حقيبتي قدحين ملأتهما شايا ، ووضعت احدهما امام صاحبي . فجرع جرعة ، ثم قال كمن يحدث نفسه :

— طبعا وقعت لي مغامرات ! . .

وملأتنى هذه الكلمات املا . كنت اعرف ان القفقاسيين الاقدمين يحبون ان يتكلموا وان يقصوا ، فذلك لا يتاح لهم الا قليلا : حتى لقد يقضى بعضهم مع سريته فى ركن مجهول من الارض خمس سنين طوال ، ثم لا يسمع خلال هذه السنين الخمس كلمة «عم صباحا» (لان الصول لا يحييهم الا بالصيغة الرسمية) . ومع ذلك فما أكثر الاشياء التى يمكن ان يتحدثوا عنها : انهم محاطون باناس همج يحلو للمرء ان يدرسهم ؛ والخطر يحف بهم فى كل يوم ؛ وقد تقع اغرب الحالات ، ومن المؤسف حقا انهم قلما يسجلون .

قلت لصاحبى :

— هل لك بقليل من خمرة الروم تضيفها الى الشاى ؟ ان لدىّ روما ابيض ، من تفليس . . . وهذا مساء بارد .

— كلا ، فاننى لا اشرب . شكرا .

— لماذا لا تشرب ؟

— لاننى حلفت لن اشرب . ففى ذات مرة ، وقد شربنا قليلا — كنت يومئذ ملازما

ثانيا ــ انطلقت اشارة الخطر فى الليل ، فمضينا الى مقدمة جنودنا نترنح قليلا . آه ما كان اشد حنق الكسى بتروفتش حين بلغه الامر ! لقد غضب يومئذ غضبا شديدا ، وكاد يقدمنا للمحاكمة امام مجلس حربى . ثم انه ليتفق ان يبقى المرء سنة كاملة لا يرى خلالها احدا من الناس ، فاذا اخذ يشرب فقد اضاع نفسه . . . هذا امر لا مراء فيه .

فلما نطق بهذه الكلمات اوشكت ان افقد كل امل ، ولكنه استأنف كلامه يقول :

ــ من ذلك ان الشراكسة اذا شربوا البوزا * فى احتفال من احتفالات الاعراس او الدفن ، انتهى ذلك دائما بطعان . وفى ذات مرة ، لم استطع ان انجو الاّ بكثير من العناء ، رغم اننى كنت فى ضيافة امير موال .

ــ قصّ علىّ ما وقع .

ــ اليَك ما وقع (وهنا حشا غليونه ونشق منه نفسا كبيرا وبدا يتحدث) : منذ ما يقرب

* البوزا ــ نوع من المشروبات الروحية القفقاسية .

من خمس سنين ، كنت مع سريتى فى قلعة وراء التيريك . وفى ذات يوم من ايام الخريف وصلت الينا شحنة من المؤن مع ضابط فى نحو الخامسة والعشرين من عمره ، قدم الىّ نفسه بكامل ملابسه الرسمية ، وصرّح انه ارسل الى هذه القلعة ليعمل بامرتى . كان الرجل شديد النحول ، شديد الشحوب ، وكان جاكيته جديدا بحيث ادركت فورا انه حديث العهد بالقفقاس . قلت له «لعلك قادم من روسيا ؟» ، قال : «نعم سيدى الرئيس» ، قلت وانا اصافحه : «يسعدنا ان تكون بيننا . وسينتابك الملل قليلا . . . غير اننا سنكون اصدقاء ، سترى ذلك . وارجوك ان تخاطبنى باسمى على غير كلفة ، ان اسمى مكسيم مكسيمتش ، ودع عنك هذا اللباس الرسمى ، وتعال اليّ دائما بقبعة عادية» . ثم امرت له ببيت ، واقام فى القلعة .

— وماذا كان اسمه ؟

— كان اسمه جريجورى الكسندروفتش بتشورين . أجرؤ ان اقول انه فتى طيب ، ولكنه عجيب بعض الشيء . كان يتفق لنا ان ننفق

يوما بكامله فى الصيد ، تحت وابل من المطر المنهمر فى البرد القارص ، فكان كل واحـد يرتجف ، وقد هدنا التعب هذا ، الاّ هو . وفى احيان اخرى كان يشكو ، وهو فى غرفته ، من قرّ الريح ، ويؤكد انه اصيب منه بزكام . اذا قرقع الباب ، ارتعش وامتقع لونه من الخوف ، وفى ذات مرة رأيته يصطاد خنزيرا بريا وحده . وكثيرا ما يصمت ساعات طوالا لا تستطيع خلالها ان تنتزع منه كلمة واحدة ، حتى اذا اخذ يتحدث ، ضحكت ثم ضحكت حتى اغرقت فى الضحك . نعم ، لقد كان مليئا بالغرائب ، ولا شك انه كان غنيا ، لانه كان يملك اشياء ثمينة كثيرة .

— وهل عاش بينكم مدة طويلة ؟

— سنة كاملة . سنة سأذكرها ما حييت . لشد ما احدث لى من قلق ، عفا الله عنه . هناك اناس كتب عليهم ان تقع لهم مغامرات خارقة !

هتفت وقد ظهر علىّ الاهتمام ، ورحت أملأ قدح صاحبى :

— خارقة ؟

— اسمع واحكم بنفسك . كان يقطن ، على بعد ستة فرستات من القلعة ، امير انعقدت بيني وبينه اواصر الصداقة . وقد تعود ابنه ، وهو صبي في الخامسة عشرة من عمره ، ان يأتي الى القلعة يزورنا ، فكان يجيء كل يوم لأمر من الأمور . وكنا في الحق ندللـه كثيرا انـا وبتشورين ، وكان هو عفريتا حقا . يا لحيويته ! كان يستطيع من على صهوة جواده الذي يعدو عدوا سريعا ان يلتقط قبعة من الارض ، وان يصوب بندقيته الى هدف فيصيبه . ولكن آفته الكبرى انه يحب المال كثيرا . حتى لقد وعده بتشورين ذات يوم بدينار اذا هو سرق له من قطيع ابيه احسن تيس ، فلما كان المساء من الغد دخل علينا يجر التيس من قرنيه . وكنا نحب في بعض الاحيان ان نناكده ، فاذا بعينيه تحتقنان بالدم ، واذا هو يمد يده الى خنجره على الفور . فكنت اقول له : «يا عزمت ، لن تحمل رأسك على كتفيك طويلا ! . . ولا بد ان تحل به يوما كارثة !» .

وفى ذات يوم وصل الينا ابوه الامير بنفسه ، يدعونا الى حفلة زواج ابنته الكبرى . لقد كنا اصدقاء . فكان يستحيل ان نرفض الدعوة ، رغم ان الرجل تترى . وسرنا اليه ، فلما وصلنا ، استقبلتنا الكلاب بنباح قوى ، واخذت النساء تخفى وجوهها اذ ترانا . واللواتى استطعنا ان نرى وجوههن لم يكن لهن خط من جمال . قال بتشورين : «كان ظنى فى الشركسيات انهن اجمل من ذلك» . فاجبته مبتسما : «انتظر ولسوف ترى» . كنت قد بيّتّ امرا .

كان بيت الامير يعج بالناس . فالشرقيون ، كما تعلم ، يدعون الى حفلات الاعراس من هب ودب . واستقبلنا الناس فى كثير من الاحترام ، وقادونا الى القاعة الكبرى . وحرصت على ان اعرف اين يضعون خيلنا ، فليس يدرى احد ما الذى يمكن ان يقع !

— وكيف يحتفل عندهم بالاعراس ؟

— الامر بسيط ! يقرأ «الملاّ» آيات من القرآن قبل كل شىء . ثم تقدم الهدايا للعروسين واقربائهما جميعا . ثم يأكل الناس ويشربون

البوزا . وبعد ذلك يبدأ استعراض ألعاب الفرسان . ولا بد ان يؤتى بشخص قذر ، يرتدى اسمالا ، فيمتطى حصانا اعرج ، ويقوم بحركات مضحكة ، يسلى بها الناس ! حتى اذا جاء المساء بدأ في القاعة شيء يشبه ان يكون حفلة رقص . فيأخذ عجوز فقير بالضرب على الاوتار الثلاثة من آلة يسمونها . . . نسيت كيف يسمونها . . . انها تشبه البالالايكا * عندنا ، فينهض الشباب والصبايا يصطفون صفين متقابلين ، ويصفقون ، ثم يتقدم الى وسطهم فتاة وفتى ، يتناشدان بصوت رتيب ما يخطر على بالهما من ابيات يرددها الناس بعدهما كأنهم جوقة . كنا جالسين انا ويتشورين في صدر القاعة . وفجأة تقدمت نحوه صغرى بنات صاحب البيت (لا تكاد تبلغ السادسة عشرة من عمرها) ، وغنته — كيف اقول ؟ — نوعا من المديح .

— ماذا قالت له على وجه الضبط ؟ هل تتذكر ؟

---

* آلة موسيقية روسية وترية .

قالت له ، تقريبا : «فرساننا الشبان وسيمون واثوابهم مطرزة بالفضة ولكن الضابط الروسى الشاب اجمل منهم وأبهى بريمه من ذهب كأنه بينهم شجرة حور لكنه لن يكبر فى بستاننا ولن يزهر» . فنهض بتشورين ، وحياها برفع يده الى جبينه ثم الى قلبه ، ورجانى ان اترجم لها جوابه ، لأننى اجيد لغتهم .

فلما ابتعدت همست فى اذن بتشورين أسأله :

— كيف تراها ؟

— فاتنة ! ما اسمها ؟

— اسمها بيلا .

كانت حقا فاتنة : فارعة القوام ، دقيقة الخصر ، عيناها سوداوان كأنهما عينا غزال تنفذان الى صميم القلب . ورأيت بتشورين يحلم ، ولا يفارقها ببصره ، وكانت هى ايضا تختلس النظر اليه كثيرا . ولكنه لم يكن الشخص الوحيد المعجب بالاميرة الجميلة . فلقد كانت هنالك عينان اخريان تسددان اليها من احد اركان الغرفة نظرة ساكنة حارة . انه كازبتش ، احد الذين اعرفهم منذ مدة طويلة . كان لا يمكن ان

نعرف أهو خاضع ام متمرد ؟ كانت تحوم حوله شبهات كثيرة ، ولكنه لم يفاجأ مرة واحدة متلبسا بالجرم . وكان يقود الى القلعة فى بعض الاحيان شياها نشتريها منه بسعر غير باهظ . ولكن المساومة معه كانت مستحيلة ، فهو لا يخفض السعر الذى يطلبه مثقال ذرة . . . ولان يموت خير عنده من النزول عن ذلك السعر . قالوا انه كثيرا ما كان يمضى مع الابريكيين * الى ما وراء الكوبان . والحق ان هيئته هيئة رجل من رجال العصابات : كان قصيرا ، نحيلا ، معروق المنكبين . وكان كالشيطان خفة وسرعة حركة . وكنت لا ترى قميصه الا ممزقا مرقعا ، ولكن اسلحته كانت مرصعة بالفضة . وكانت ألسن جميع الناس فى كاباردا تكيل المديح لحصانه . والحق ان من الصعب على المرء ان يتخيل حصانا اجود من ذلك الحصان . كان جميع الفرسان يحسدونه عليه . وقد حاول

---

* ابريك — باللغة الأوسيتية يعنى قاطع الطرق ، وقد اصبح الناس يطلقون هذا الاسم على سكان الجبال ابان الحرب القفقاسية ؛ اولئك الذين كانوا يقاومون الجيش الروسى .

بعضهم غير مرة ان يسرقه ، دون ان يظفر بطائل . ما زلت اتخيل ذلك الحصان حتى لكأنني اراه . كان اسود فاحماً ، وكانت عراقيبه دقيقة كأنها الحبال ، وكانت عيناه لا تقلان جمالا عن عيني بيلا . اما قوته فحدث عنها ولا حرج ! كان يستطيع ان يعدو مسافة خمسين فرستا بلا توقف . وكان مروّضا مطواعا يتبع صاحبه كالكلب ، بل كان يعرف صاحبه من صوته . وكان كازبتش لا يربطه ابدا . كان الحصان يليق برجل من رجال العصابات . . .

لم ار كازبتش مكفهر الوجه كما رأيته فى ذلك المساء . ولاحظت انه يرتدى تحت قميصه زردا . قلت فى نفسى : «لأمر ما لبس كازبتش زردا ، فلا شك انه يبيت امرا» .

كانت الحرارة خانقة فى الكوخ . فخرجت اتنشق الهواء الرطب . وكان الليل قد خيّم على الجبال ، واخذ الضباب يغشى الفجاج .

وخطر ببالى ان اقترب من السقيفة ، حيث ربطت خيولنا ، لاطمئن الى انها تعتلف ، ثم ان الحيطة واجبة . . . كان لى حصان جميل ،

رآه كثير من الكاباردييين ، فهتفوا من العجب :
«**ياكشى تخيه ، تشيك ياكشى**» ! ٭

وسرت احاذى السياج ، فاذا انا اسمع صوتين على حين غرة . كنت اعرف احد هذين الصوتين معرفة تامة ، انه صوت ذلك المتسكع عزمت ، ابن صاحب الدعوة ، وكان الصوت الآخر لا يتكلم الا قليلا ، وكان خافتا . تساءلت : «ترى فيم يتحدثان ؟ أعن حصانى مثلا ؟» ثم جثوت عند السياج ، واصخت بسمعى ، احاول ان لا تفوتنى كلمة مما يقولان . ولكن ما يصل الىّ من البيت من غناء وجلبة وصخب كان يصمنى فى بعض اللحظات عن سماع هذا الحديث الذى احرص على سماعه كل الحرص .

قال عزمت :

— ما اجمل حصانك ! لو كنت الآمر الناهى فى هذا البيت ، وكان لى ثلاثمائة فرس ، لأعطيتك نصفها ثمنا لحصانك يا كازبتش !

٭ حصان جميل ، جميل جدا .

«ها . . . انه اذن كازبتش . . .» وتذكرت الزرد الذى يرتديه تحت القميص .

قال كازبتش بعد لحظة من صمت :

— ليس له فى كاباردا كلها نظير . . . ذهبت ذات مرة مع الابريكيين ، وراء تيريك ، نغزو الروس ، ونسلب خيولهم ، ولكن الحظ لم يسعفنا ، فتفرق شملنا ، وراح يطاردنى اربعة من القوزاق * كنت اسمع من ورائى صراخ الكفار وشتائمهم . وكانت امامى غابة كثيفة . فانبطحت على سرجى ، اتكلت على الله . . . لاول مرة فى حياتى أسأت الى حصانى اذ ضربته بالسوط . . . فراح يشق طريقه بين اوراق الشجر كالطير . كان الشوك يمزق ثيابى ، وكانت اغصان الدردار اليابسة تضرب وجهى ضربا شديدا . وحصانى يقفز فوق ارومات الاشجار المقطوعة ، ويقتحم صدره الادغال اقتحاما . كان من الافضل ان ادعه عند طرف الغابة ، وان امضى على قدمى اختبئ بين الاشجار ، ولكن قلبى لم يقبل ان انفصل عن

* القوزاق — قبل ثورة اكتوبر ، فئة عسكرية كانت فى خدمة الحكومة القيصرية .

الحصان ، وجزانى النبى على ذلك خيرا . . . وازّت رصاصات فوق رأسى ، وكنت اسمع وقع اقدام القوزاق وقد ترجلوا يعدون ورائى . . . ثم اذا بأخدود عميق يظهر امامى على حين غرة ، فتردد حصانى لحظة ثم وثب . ولكن رجليه انزلقتا على الحافة الثانية من الأخدود ، فظل معلقا بيديه . فتركت الزمام ، وتدحرجت فى الأخدود . واستطاع حصانى ان ينقذ نفسه ، وان يستأنف عدوه . . . ورأى القوزاق كل ما وقع ، ولكن لم ينزل احد منهم ليبحث عنى ، ولعلهم اعتقدوا اننى مت . وسمعتهم ينطلقون فى ملاحقة حصانى كاراخيز . كان قلبى يدمى . واخذت ازحف على الاعشاب الكثيفة فى الاخدود . ثم نظرت فاذا هى نهاية الغابة . لقد انطلق عدد من القوزاق السهل . وكان حصانى يعدو امامهم ، وهم يلاحقونه صارخين . وظلوا يطاردونه مدة طويلة ، حتى اوشك احدهم ان يقبض عليه بالحبل مرتين . كنت ارتعد فخفضت عينىّ ، واخذت ادعو . ثم نظرت بعد لحظة فاذا كاراخيز ينطلق سريعا حرا كالريح ، ناشرا ذيله ، والكفرة

يتقاطرون فى السهب على جيادهم التى انهكها التعب فعجزت عن مواصلة العدو . اقسم لك بالله انى اقول الحقيقة ، الحقيقة صرفة بلا زيادة ولا نقصان ! لقد بقيت فى الاخدود حتى ساعة متأخرة من الليل . وفجأة — هل تصدق ذلك يا عزمت ؟ — سمعت فى الظلام وقع حوافر حصان يعدو على حافة الاخدود . . . انه ينخر ، ويصهل ، ويضرب الارض بسنابكه : عرفت صوت حصانى كاراخيز . . . انه هو ، رفيقى الامين ! . . ومنذ ذلك الحين لم نفترق قطّ يوما .

وسمعت كازبتش يربت على عنق حصانه الدقيقة ، ويناديه بأرق الاسماء . قال عزمت :

— لو كنت املك الف فرس لبادلتك بها على كاراخيز .

فاجابه كازبتش بعدم اكتراث :

— وما كنت لاقبل ، كلا .

قال عزمت وقد رق صوته :

— اسمع يا كازبتش ، انت رجل شهم ، وفارس شجاع ، فى حين ان ابى يخاف من

الروس ، يمنعني من المضي الى الجبال ؛ اعطني حصانك افعل لك ما تريد : اسرق لك من ابي بندقيته ، وسيفه ، وكل ما تشتهي . . . وانت تعلم ان سيف ابـي دمشقي اصلي ، يكفي ان تلمس شفرته الجسم حتى تنفذ في اللحم من تلقاء نفسها ، لا تبالي زردا كزردك !

وصمت كازبتش ، فاردف عزمت يقول :

— حين رأيتك على صهوة حصانك اول مرة ، كان يتثنى ويتوثب ويرتعش منخراه ، وتخرج حوافره من الصخر شررا . لا استطيع ان اصف لك شعوري يومئذ . اصبح كل شيء بعد ذلك اليوم يثير في نفسي الاشمئزاز . احقرت اجود خيول ابي ، واصبحت استحي ان امتطيها ، ويحرقني الشوق الى حصانك كاراخيز . اصبحت اقبع اياما بكاملها على صخرة ، استعرض بخيالي حصانك الاسود ، واتصور شموخه ، وظهره اللين ، المستقيم كالسهم . وأراه يُـغرق في عينيّ نظرة عينيه الحادتين ، كأنه يهم ان يكلمني . يا كازبتش ، سأمـوت ان لـم تبعنـي هذا الحصان . . . — قال عزمت ذلك بصوت مرتعش .

وبدا لى انه يبكى . يجب ان اذكر لك انه كان عنيدا لا يشبهه فى عناده احد ، يستحيل ان تنهطل دموعه لأى سبب من الاسباب ، حتى منذ كان اصغر سنا ، والين عودا . وسمعت شيئا يشبه ان يكون ضحكة يرد بها كازبتش على بكاء صاحبه . واردف عزمت يقول بصوت حازم :

— اننى مستعد لكل شىء . هل تريد ؟ سأسرق لك اختى . آه ما اجمل رقصها ، ما اجمل غناءها ! وانها لتطرز بالذهب تطريزا يخطف العقول . ان سلطان الترك نفسه لا يملك مثلها . . . هل تريد ؟ انتظرنى غدا فى الفج عند مجرى السيل : فسنمر من هناك بحجة الذهاب الى القرية المجاورة ، فتأخذها . . . ألا تساوى بيلا حصانك ؟

ولزم كازبتش الصمت طويلا ، وكان جوابه فى آخر الامر انه اخذ ينشد اغنية من الاغانى القديمة بصوت خافت :

فى قرانا كثير من حسان الصبايا ،
تلمع عيونهن فى الظلام كالنجوم .

ما اجمل ان نهواهن !
ولكن الحرية العارمة اجمل . . .
بالذهب يمكن ان يشترى المرء اربع نساء ،
ولكن الحصان الجواد لا ثمن له :
فهو يسابق الرياح فى السهوب ،
لا يخون ، ولا يخيب الظن .

وعبثا كان عزمت يضرع اليه ويتملقه ويبكى ويقسم الايمان . وضاق كازبتش ذرعا به فى آخر الامر ، فقاطعه قائلا :

— اذهب ايها الغلام ، فأنت مجنون ! أأنت تستطيع ان تركب حصاني ؟ يمينا لو ركبته لرماك على الارض ودقّ عنقك قبل ان تمضى به ثلاث خطوات .

فهتف عزمت وقد ثارت ثائرته ، وبلغ منه الغضب كل مبلغ :

— انا ؟

وسمعت شفرة خنجره ، خنجر الطفل ، تصلّ على زرد كازبتش . فدفعه كازبتش بيده القوية ، فاصطدم بالسياج اصطداما عنيفا اهتز منه السياج . قلت فى نفسي : «ستبدأ المعركة !»

وهرعت الى الاسطبل ، فلجمت الحصانين ، واخرجتهما من الردهة الخلفية . وما انقضى على ذلك دقيقتان حتى كان البيت قد انقلب عاليه سافله ، ذلك ان عزمت سارع ، فمزق الجلباب ، يعلن ان كازبتش اراد ان يقتله . لقد وثب جميع الناس الى بندقياتهم ، واستعرت نار المعركة . واصبحت لا تسمع الا صراخا وضجيجا وطلقات الرصاص . ولكن كازبتش كان قد وثب الى حصانه ، ومرق بين الناس كالسهم وهو يهز بسيفه .

قلت لبتشورين وانا اجره من ذراعه : «اعتقد أنه من الأفضل أن نبارح هذا المكان حالا : الهزيمة ثلثا الغنيمة» .

— انتظر ، اريد ان ارى كيف ينتهي هذا كله .

— تستطيع ان تكون على يقين من ان النهاية سيئة ! ان الامر يجرى دائما هكذا عند هؤلاء الشرقيين : يسكرون بالبوزا ، ثم تبدأ المذبحة .

ووثب كل منا الى حصانه ، ومضينا نعدو .

قلت للرئيس وقد نفد صبرى :

— وماذا وقع لكازبتش ؟

— وما عسى ان يقع لهؤلاء الناس ؟ ان كازبتش قد لاذ بالفرار !

قال ذلك وهو يفرغ قدحه .

— ولم يجرح ؟

— الحق انني لا ادرى . ولكن هؤلاء الناس يتحملون ويكابرون . رأيت منهم من ثقبت جسومهم اسنة الحراب حتى صاروا كالغربال ، ثم ظلوا يهزون اسيافهم .

وبعد لحظة من صمت استأنف الرئيس كلامه ، وهو يضرب الارض بقدمه ، قائلا :

— لن اغفر لنفسى مدى الحياة تلك الخطيئة التى ارتكبتها حين عدنا الى القلعة . لقد قصصت على بتشورين كل ما سمعته من وراء السياج . فأخذ يضحك — هذا الماكر ! — ولكنه كان قد بيّت امرا . . .

— ماذا بيّت من امر ؟ ارجوك ان تقص علىّ ذلك !

— ما دمت قد بدأت ، فيجب ان استمر . وصل الينا عزمت بعد انقضاء اربعة ايام على ذلك

الحادث . وعلى عادته ، دخل الى بتشورين الذى كان يهدى اليه شيئا من الحلوى دائما ، وكنت ساعتئذ هناك ، فدار الحديث عن الخيل . وأخذ بتشورين يكيل المديح لحصان كازبتش ، قائلا انه نشيط رشيق كالغزال ، وليس فى الدنيا كلها حصان يدانيه .

كانت عينا التترى الفتى تلتمع . ولكن لم يبد على بتشورين انه كان يلاحظ ذلك . وحاولت عبثا ان اصرف الحديث الى شىء آخر ، فكان بتشورين يرده دائما الى الكلام عن حصان كازبتش. واستمرت الحال على هذا المنوال ، فكلما جاء عزمت الى القلعة دار الحديث عن حصان كازبتش. ولاحظت بعد ثلاثة اسابيع ان الفتى صار ممتقع اللون ، هزيل الجسم ، كالعشاق الذين تحدثنا عنهم الروايات . ولم افهم من ذلك كله شيئا . . . لاننى لم ادرك سر الامر الا فيما بعد . لقد اهاج بتشورين رغبة الفتى فى الحصان ، حتى اصبح الفتى قادرا على ان يقذف بنفسه الى الماء . . . وقال له بتشورين يوما :

— اننى ارى ، يا عزمت ، ان هذا الحصان

يعجبك كثيرا . . . والحق انك لن تراه اكثر مما تستطيع ان ترى عنقك ! ولكن قل لى ، ماذا تعطى لمن يهدى اليك هذا الحصان ؟

قال عزمت :

— كل ما يريد .

— سوف أعطيك هذا الحصان اذن . ولكن على شرط : أن تحلف انك ستحقق هذا الشرط . . .

— حلفت . . . احلف انت ايضا .

— ليكن ما تريد . احلف ان الحصان سيكون لك . . . اذا سلمتنى اختك بيلا : ان كاراخيز هو مهرها . هل تعجبك الصفقة ؟

وصمت عزمت .

— الا تريد ؟ لك ما تشاء . كنت احبك رجلا ، ولكننى ارى الآن انك ما زلت طفلا . انت اصغر سنا من ان تمتطى صهوة جواد .

واحمر عزمت ، ثم قال :

— وابى ؟

— ألا يغيب عن البيت ابدا ؟

— يغيب . . .

— هل توافق ؟ . .

فقال عزمت ، وقد امتقع لونه حتى صار كالميت :

— اوافق ، ومتى تريد ذلك ؟

— متى سيجىء كازبتش . لقد وعدنا ان يأتينا بعشرة خراف . الباقى علىّ . ولكن لا تنس وعدك يا عزمت !

وهكذا تمت الصفقة . . . يا لها من صفقة وضيعة ذميمة ! صارحت بتشورين بذلك فيما بعد ، ولكنه اكتفى بان قال : ينبغى لهذه الشركسية المتوحشة الصغيرة ان تعد نفسها سعيدة بالزواج من رجل مهذب مثلى . (لاحظ ان بتشورين سيعد زوجها رغم كل شىء) . ثم ان كازبتش لص تجب معاقبته بما يستحق ان يعاقب به . قل لى بربك : كيف يمكننى ان اجيب على هذا الكلام ؟ فقد كنت فى ذلك الحين اجهل كل شىء عن المؤامرة التى بيتاها . وفى ذات يوم ، جاء كازبتش يسألنى هل بنا حاجة الى خراف وعسل ، فأمرته ان يأتينا بالخراف والعسل غدا .

وبادر بتشورين فأبلغ عزمت النبأ . قال له :

— سيكون كاراخيز غدا فى حوزتى . فاذا لم تجئنى بأختك هذا المســاء ، فلــن ترى الحصان . . .

فاجابه عزمت بقوله :

— نعم !

ومضى الى القرية عدوا .

وفى المساء تناول بتشورين اسلحته وخرج من القلعة . اما كيف ائتمرا على هذا كله ، فذلك ما اجهله . المهم انهما عادا الى القلعة فى الليل معا ورأى الخفير على سرج عزمت امرأة شُد ذراعاها وساقاها بوثاق ، واسدل على وجهها حجاب .

فسألت الرئيس قائلا :

— والحصان ؟

— انتظر لحظة ، فقد وصلنا الى الحديث عن الحصان . فى البكرة من صباح الغد وصل كازبتش يسوق امامه عشرة خراف يريد ان يبيعها ، فربط حصانه عند السياج ودخل علىّ . فقدمت له قدحا من الشاى ، فهو ، على انه من قطاع

الطرق ، صديقى .

وتجاذبنا اطراف الحديث فى امور شتى . . . وفجأة رأيته يرتجف ، ويتبدل وجهه ، ويقفز الى النافذة . كانت النافذة لسوء الحظ ، تطل على الباحة الخلفية . قلت له :

— ما بك ؟

قال وهو يرتعد :

— حصانى ! . . حصانى ! . .

وسمعت وقع الحوافر حقا .

— لا شك ان احد القوزاق يصل الى القلعة .

فزأر يقول :

— لا ! «اوروس يامان ، يامان !» * .

ثم وثب الى خارج الغرفة كالفهد ، وبقفزتين صار بالباحة . وسد الخفير عليه باب القلعة ببندقيته ، ولكنه قفز فوقها واخذ يركض فى الطريق ، فرأى عزمت يعدو بالحصان القوى الجبار كاراخيز وسط عاصفة من العجاج ، وقد ابتعد كثيرا . فلم يتمهل ، بل صوب بندقيته واطلق النار . وتوقف

---

* روسى حقير ، حقير !

لحظة فعرف ان رصاصته اخطأت الهدف ، فاطلق صرخة حادة وحطم بندقيته على صخرة ، والقى بنفسه على الارض ينتحب كطفل . . . وهرع رجال القلعة ، وتحلقوا حوله ، ولكنه لم ير احدا . واخذوا يعلقون على الحادث ، ثم قفلوا راجعين . وامرت بان يوضع ثمن الخراف لكازيتش الى جانبه . فلم يمسه ! كان مستلقيا على الارض كالميت ، وقد تمرغ وجهه بالتراب . وصدقنى اذا قلت لك : انه ظل على هذه الحال طوال الليل ، حتى اذا طلع الصباح ، عاد الى القلعة يسأل ان يسمى له الشخص الذى خطف الحصان . وكان الخفير قد رأى عزمت يفك وثاق الحصان ثم يمضى به عدوا ، فلم يجد من الضرورى ان يخفى عنه اسمه . فلما سمع كازيتش اسم عزمت ، طار الشرر من عينيه ، واتجه نحو القرية التى يعيش فيها ابو عزمت .

— ثم ماذا ؟

— انه لم يجد الاب فى البيت ، فلقد سافر الاب ، وسيغيب ستة ايام والا فهل كان يتاح لعزمت ان يقتاد اخته ؟

ولما عاد الاب من رحلته لم يجد ابنته ولا ابنه . كان عزمت يقدر عاقبة عمله ، ويعرف ان ما فعله يمكن ان يكون جزاؤه الموت . ولم ير احد عزمت بعد ذلك . لعله التحق بعصابة من الابريك ، ثم هلك فى مكان ما وراء التيريك او الكوبان . . . نهاية يستحقها ! . .

اعترف ان ذلك كله ازعجنى كثيرا . وحين علمت ان الشركسية عند بتشورين ، وضعتُ شارة رتبتى العسكرية على كتفى ، وتناولت سيفى ، وذهبت اليه .

كان مستلقيا على سريره فى الغرفة الاولى ، وقد وضع احدى يديه تحت عنقه ، وامسك بالاخرى غليونه المنطفئ . وكان باب الحجرة الثانية مغلقا ، والمفتاح ليس على القفل . رأيت هذا كله بلمحة واحدة . . . واخذت اسعل واضرب نعلىّ بالارض ، ولكنه تظاهر بانه لا يسمع . فقلت بلهجة صارمة :

— ايها السيد الملازم الثانى ، ألا ترى اننى هنا ؟

— ها ! اهلا وسهـــلا بك يـــا مكسيم

مكسيمتش ! هل تريد غليونا ؟

قال ذلك دون ان ينهض .

— عفوا ! لست مكسيم مكسيمتش ، بل انا رئيسك !

— سيان . هل تريد قدحا من الشاى ؟ ليتك تعرف الامر الذى يعذبنى ويرهقنى .

قلت وانا اقترب من السرير :

— اعرف كل شىء .

— حسن انك تعرف كل شىء ، ذلك ان مزاجى لا يساعدنى الآن على الكلام .

— ايها السيد الملازم الثانى ، لقد اقترفت عملا ربما سئلت عنه انا ايضا . . .

— دعك من هذا الكلام ! ألم نتعود ان نتقاسم كل شىء ؟

— كفاك مزاحا ، سلمنى سيفك ، من فضلك ! . .

— ميتكا ، هات السيف ! . .

وجاءنى ميتكا بالسيف . فلما فرغت من واجبى على هذه الصورة جلست على السرير وقلت :

— اسمع يا جريجورى الكسندروفتش ، اعترف بان ما فعلته اساءة !

— اى اساءة تعنى ؟

— انك خطفت بيلا ! لا شك انه ذلك الوغد عزمت ! هيا ، اعترف .

— ولكنها تعجبنى ! . .

ما عسى ان اجيب على هذا الكلام ؟ لقد صمت ، ولكننى قلت بعد لحظة :

— اذا طلبها ابوها فيجب ان تردها اليه .

— لا ! لا يجب .

— لكنه سيعرف اخيرا انها هنا .

— وكيف يمكن ان يعرف ذلك ؟

ومرة اخرى ، لم اجد ما اجيب به على كلامه . فقال بتشورين وهو ينتصب قائما :

— اسمع يا مكسيم مكسيمتش ، انت رجل شهم ، واذا نحن رددنا الفتاة الى ذلك المتوحش فسيقتلها او يبيعها . ما وقع قد وقع . وانما ينبغى الآن ان لا نفسد كل شيء بسدى . دعها عندى ، واحتفظ بسيفى

— ارنيها على الاقل .

— انها وراء هذا الباب . ولكننى عبثا حاولت ان اراها اليوم . انها قابعة فى ركن من اركان الحجرة . وقد اسدلت عليها حجابها . انها لا تتكلم ، ولا تنظر الى احد . انها كثيرة الخوف كالغزال . لقد دعوت زوجة صاحب الدكان الى خدمتى اليوم ، فهى تعرف اللغة التترية ، وسوف تعنى بالفتاة ، وتعودها على فكرة انها لى . ذلك انها لن تكون لاحد غيرى .

قال تلك الجملة الاخيرة وهو يضرب المنضدة بقبضة يده . وافقت على كل شىء ، وهل يمكن ان افعل غير ذلك ؟ ان هناك اشخاصا يضطر المرء دائما الى الموافقة على ما يريدون .

قلت لمكسيم مكسيمتش :

— وبعد ذلك ؟ هل استطاع ان يروضها وان يجعلها انيسة ام انها ضوت فى سجنها حنينا ؟

— حنينا ؟ دعك من هذا الكلام ! لقد كانت ترى ، وهى فى قلعتنا ، الجبال التى كانت تراها وهى فى قريتها . وهل يحتاج هؤلاء المتوحشون الى اكثر من ذلك ؟ وكان بتشورين

يقدم اليها فى كل يوم هدية جديدة . فكانت فى اول الامر ترفض الهدايا صامتة متكبرة . واستفادت من ذلك كله المرأة التى عهد اليها بخدمتها ، فازدادت من ذلك فصاحة وبلاغة . آه من الهدايا كم تفعل فى النساء ! اى شىء ترفض امرأة ان تفعله من اجل خرقة ملونة ؟ ! . ولكن دعنا من هذا الآن . لقد تعب بتشورين كثيرا . وكان يتعلم اللغة التترية اثناء ذلك ، وبدأت هى تفهم اللغة الروسية . وتعودت شيئا فشيئا ان تنظر اليه ، فكانت تنظر اليه فى اول الامر من تحت ، ثم اصبحت تنظر اليه بعد ذلك من جانب . ولكنها ظلت حزينة كاسفة البال ؛ وكانت تغنى بصوت خافت ، حتى ان الكآبة كانت تتسرب الى نفسى انا ايضا ، حين اسمع غناءها من الغرفة المجاورة . وشهدت ذات يوم منظرا لن انساه مدى الحياة : مررت قريبا من النافذة فألقيت نظرة على الحجرة ، فرأيت بيلا جالسة على الفراش ، وقد اطرقت برأسها ، ورأيت بتشورين واقفا امامها يقول :

— اسمعى يا عزيزتى ! ألا تعرفين

انك ستكونين لى عاجلا او آجلا ؟ فلماذا تعذبينني اذن ؟ ام انك تحبين احدا من التشتشينيين ؟ اذا كان الامر كذلك تركتك تذهبين الي بيتك فورا . (وهنا ارتعشت ارتعاشة لا تكاد ترى ، وهزت رأسها بالانكار) . ام تُراك تكرهينني وتشمئزين منى ؟ (وهنا تنهدت) . ام ان دينك يمنعك ان تحبينى ؟ (وهنا اصفر وجهها ، وظلت صامتة) . صدقى ما اقوله لك . ان الله هو رب جميع الشعوب ، وكيف يسمح لى ان احبك ثم لا يسمح لك ان تبادلينى حبا بحب ؟ فنظرت اليه مليا ، كأن هذه الفكرة قد اثرت فيها . وكانت عيناها تعبران فى آن واحد ، عن الشك فيما يقول ، والرغبة فى تصديق ما يقول ، يا لهاتين العينين ؟ انهما تلتمعان كجمرتين .

واردف بتشورين يقول :

— اسمعى يا بيلا . انك ترين كم احبك . وانى قادر على ان افعل كل شىء من اجل ان تكونى سعيدة . اريد ان تكونى سعيدة . فان عاد اليك الحزن ، مت من ذلك غما . عدينى بانك ستكونين مرحة .

كانت بيلا تفكر دون ان تنفصل عيناهـا السوداوان عن عينى بتشورين ، ثم افتر ثغرها عن ابتسامة رقيقة ، وهزت رأسها بنعم . فتناول بتشورين يدها واراد ان يقنعها بتقبيلها ، فتمنعت بضعف ، واكتفت بان تكرر قولها : «لا ، لا ، دعنى» . وألح بتشورين . فاخذت ترتعش وتبكى . ثم قالت :

— اننى اسيرتك ، انا عبدتك ، وتستطيع ان تحملنى على ما تشاء ، — واجهشت تبكى مرة اخرى .

فضرب بتشورين جبينه بيده ، ومضى الى الحجرة الاخرى . فدخلت عليه ، فرأيته بذرع الغرفة جيئة وذهابا ، وقد شبك يديه ، واكفهر وجهه .

— ما بك يا صديقى ؟

— ان هذه المرأة هى الشيطان بعينه ، ولكنها ستكون لى ، اقسم على ذلك . . .

فلما هززت رأسى منكرا ، قال :

— هل تراهن ؟ ستكون لى بعد اسبوع !

— اراهن !

وتراهنا ، ثم خرجت .

وفى الغداة ، اسرع بتشورين ، فابتاع من كزليار انواعا كثيرة من النسيج الفارسى ، لا استطيع ان احصى عددها . . .

وقال لى ، وهو يعرض على هذه الاشياء كلها :

— هل تستطيع هذه الحسناء الشرقية ان تقاوم اغراء كهذا ؟

اجبته قائلا :

— انك لا تعرف الشركسيات . شتان بينهن وبين الجورجيات ، او تتريات القفقاس ، شتان . ان لهن قواعد فى السلوك اخرى ، وقد نشأن على تربية اخرى .

فابتسم بتشورين ، واخذ يصفر معزوفة عسكرية .

كنت على حق : ان الهدايا لم تؤثر فيها الا نصف تأثير : لقد غدت ارق حاشية ، واكثر ثقة . . . هذا كل شىء . فعزم بتشورين على اللجوء الى وسيلة اخيرة . ففى ذات صباح ، اسرج حصانه ، وارتدى لباسا شركسيا ، وحمل اسلحته ، وجاء اليها يقول :

— بيلا ، انك لترين كم احبك . ولقد

اختطفتك لاعتقادى بانك ستحبينني متى عرفتني . والآن ادرك انني اخطأت التقدير ، فوداعا . كل ما املك فهو لك . وتستطيعين ان تعودى الى ابيك ، اذا احببت ذلك : انت طليقة . لقد اسأت اليك ، واريد الآن ان اعاقب نفسى ، وداعا . انني ذاهب . الى اين ؟ لا ادرى ! وقد لا انتظر طويلا الرصاصة او الطعنة التى تحيلني جثة هامدة . اذكريني ، واغفرى لى .

قال هذا ، ثم استدار ، ومد اليها يده مودعا . فلم تتناول بيلا يده ، ولزمت الصمت . كنت وراء الباب ، وكنت انظر من احد شقوقه فأرى وجهها . لقد اشفقت عليها ، ورثيت لحالها . كان وجهها اللطيف شاحبا شحوب الموتى . فلما رأى بتشورين انها لا تجيبه ، اتجه نحو الباب بضع خطوات . كان يرتجف . وأؤكد لك انه كان قادرا على ان يفعل حقا ما قد زعمه مازحا : انه كذلك . ولكن ما كاد يلامس الباب حتى وثبت اليه بيلا وارتمت على عنقه ، تجهش بالبكاء . هل تصدق ذلك ؟ وبكيت انا ايضا وراء الباب . . . ما كان اغبانى !

وصمت الرئيس ، ثم اردف يقول وهو يفتل شاربه :

— يجب ان اعترف لك اننى حزنت على نفسى اشد الحزن ، اذ رأيت اننى ما احببتنى امرأة فى حياتى مثل هذا الحب . قلت :

— وهل دامت سعادتهما مدة طويلة ؟

— نعم ، لقد اعترفت لنا بانها منذ رأت بتشورين اول مرة اصبحت تراه فى احلامها ؛ وانها ما من رجل اثر فى نفسها مثلما اثر فيها بتشورين . نعم لقد سعد كل منهما بصاحبه ! . . .

قلت على غير ارادة منى : — يا لها من خاتمة باهتة ! كنت اتوقع ان تنحل العقدة بفاجعة ، وها قد خاب ظنى . ولكننى اردفت اقول :

— وهل يعقل ان اباها لم يشتبه فى ان ابنته عندكم بالقلعة ؟

— اعتقد ان هذه الظنون قد راودته . ولكننا علمنا بعد الاختطاف ببضعة ايام انه قتل . واليك ظروف قتله . . .

وعاد اهتمامى بالقصة فانتعش . قال الرئيس :

— يجب ان اذكر لك ان كازبتش اعتقد

ان عزمت سرق الحصان بموافقة ابيه . هذا ما اقدره انا على الاقل . وفى ذات يوم ، تربص بالاب فى الطريق ، على مسافة ثلاثة فرستات من القرية . وكان الاب عائدا الى قريته بعد ان ظل يبحث عن ابنته فى كل مكان دون ان يظفر بطائل . وكان رجاله بعيدين وراءه . وكان حصانه يسير الهوينى ، وقد استغرق الرجل فى التفكير . فخرج كازبتش من احد الادغال ، ووثب الى ردف الحصان كالهر ، ورمى العجوز على الارض بطعنة من خنجره ، واستلم ازمة الحصان ، وولى هاربا . ولقد رأى بعض رجال الامير ما وقع ، فاندفعوا فى اثر القاتل يطاردونه ولكنهم لم يستطيعوا ان يدركوه .

قلت محاولا ان اعرف رأى الرئيس :

— وهكذا عوض خسارته ، وانتقم لنفسه ، أليس كذلك ؟

— كان سلوكه ، من وجهة نظرهم ، سليما لا غبار عليه .

ولم يسعنى الا ان ادهش للروس كيف يتلاءمون بسرعة مع عادات الشعوب التى يضطرون الى الحياة

بينها . ولست ادرى أهذا جدير بالذم ام بالمدح . ولكننى لا اشك فى انه يدل على مرونة نفسية عظيمة ، ويكشف عن حس سليم يغفر الشر متى رأى ضرورة لذلك ، او متى رأى ان تحطيمه مستحيل .

وكنا قد شربنا الشاى اثناء ذلك . وكانت خيولنا التى ربطناها منذ مدة طويلة فى الثلج ترتعد فرائصها . وكان القمر يشحب فى جهة الغرب من السماء ، ويهمّ ان يدخل فى الغيوم السوداء المعلقة على الذرى البعيدة كأنها مزق من ستارة مشققة . وخرجنا من البيت . . . فاذا الجو مشرق رغم تنبؤات رفيقى ؛ وكل شىء يبشر بصباح جميل . كانت النجوم التى تطوف فى الافق البعيد ، تنتشر كأنها زخارف رائعة ، ولكنها كانت تنطفئ واحدة بعد اخرى على قدر مـا كان الضوء الشاحب الآتى من الشرق يجتاح السماء ، يصبغها بلون بنفسجى قاتم ، وينير منحدرات الجبال الوعرة المغطاة بالثلج البكر ، شيئا فشيئا . كانت تلوح ذات اليمين وذات الشمال مهاو حزينة خفية ، كأنها بقع سوداء وكان الضباب

الذى يتلفف ثم ينتشر كالافاعى ، يزحف نحوها فى الاخاديد الكبيرة بين الصخور المتجاورة ، كأنه يشعر باقتراب النهار ويخشاه .

كان كل ما فى السماء وما فى الارض هادئا كقلب الانسان ساعة الصلاة فى الصباح . غير ان ريحا باردة متقطعة كانت تهب من الشرق تنفش اعراف خيولنا المغطاة بالصقيع . وسرنا . كانت الخيول الخمسة الضعيفة الهزيلة تجد كثيرا من العناء فى جر عربتينا على هذا الطريق المتعرج الذى يؤدى الى جبل الجود . فكنا نسير على الاقدام ، ونسند العجلات بالحجارة حين تعجز الخيل عن مواصلة السير . لكأن هذا الطريق يؤدى الى السماء ، فلقد كان صاعدا على مدى البصر كله الى ان يغيب فى السحاب الذى امتد على جبل الجود منذ مساء امس ، كأنه حدأة تتربص بفريستها . كان الثلج يصرّ تحت اقدامنا . وكان الهواء من الخفة بحيث يصعب التنفس . فكان الدم يصعد الى رؤوسنا فى كل لحظة . غير ان شيئا من الارتياح كان يسرى فى عروقى ، وكنت اشعر بشىء من الفرح لاننى بلغت هـذا

المبلغ من العلو فوق العالم . وانى لأعترف بان هذا الشعور شعور طفل ولكن الانسان حين يبتعد عن المواضعات الاجتماعية ويقترب من الطبيعة يغدو طفلا رغم انفه . فالنفس تتحرر من المعانى التى اكتسبتها ، وتعود الى ما كانت عليه سابقا ، وما قد تصير اليه يوماً ما . ان من سيتاح له ، كما اتيح لى ، ان يجتاز الجبال المنعزلة ، وان يتأمل مناظرها الساحرة طويلا طويلا ، وان يتنشق هواء الفجاج المنعش فى نهم ، سيفهم من غير شك رغبتى هذه فى الحديث عن تلك المشاهد الخلابة وفى وصفها والكلام عنها . ووصلنا اخيرا الى قمة جبل الجود ، فتوقفنا نسرح ابصارنا حولنا . ان سحابة رمادية تحلق فى الجو ، وتنذر انسامها بان عاصفة ستهب بعد قليل . غير ان ما يسطع به المشرق من ذهب وضياء أنسانا كليا وجود السحابة . . . نعم ، حتى الرئيس نسى وجود السحابة . ان القلوب البسيطة تحس بعظمة الطبيعة احساسا اقوى واعنف مائة مرة من احساسنا بها نحن الذين نتحمس كثيرا فى الكلام وعلى الورق.

قلت لصاحبى :

— لا شك انك معتاد على هذه المناظر الرائعة ؟

— نعم ، ان المرء ليتعود حتى على ار الرصاص ، او قل على اخفاء ضربات قلبه الذى يدق على غير ارادة منه .

— ولكننى سمعت من بعض قدماء الجنود ان لهذه الموسيقى فتنتها .

— نعم ، انها ممتعة ، بمعنى واحد من المعانى ، وهو ان ضربات القلب تزداد قوة .

ثم اشار الى المشرق واضاف يقول :

— انظر ما اجمل هذا البلد !

حقا انه لمنظر رائع ، ما اظن اننى ستتاح لى رؤية مثله . كان تحتنا وادى كويشاؤورى ، يمر به ، كخيطين من الفضة ، نهر آراغفا ونهر آخر ، ويزحف فوقه بخار ازرق يتجه نحو الفجاج المجاورة كأنه يريد ان يحتمى بها من اشعة الصباح الدافئة . وذات اليمين وذات الشمال ذرى ما تنفك فى صعود ، تتصالب وتتطاول ويغمرها الثلج ، ويغطيها النبات . وفى البعـد تبدو الجبال هى نفسها ، بيد انه ما من صخرة

فيها تشبه الاخرى . وهذه الثلوج كلها تلتمع بضياء كأنه الفضة المذهبة ، ضياء فرح نيّر تراه العين فيحب المرء ان يقضى فى هذا المكان حياته كلها . وكانت الشمس تهم ان تشرق من وراء جبل ازرق قاتم لا تفرقه عن السحابة الا عين بصيرة متمرسة . ولكن خطا داميا كان يمتد فوق الشمس ، رآه صاحبى فقال :

— لقد كنت على حق . سيكون الجو رديئا هذا اليوم . يجب ان نغذ فى السير ، والا فوجئنا بالعاصفة على كرستوفايا . . .

قال ذلك ، ثم هتف بالسائقين :

— هلما ! . .

ووضعت السلاسل على العجلات لتكون مكبحا يمنعها من الانزلاق السريع ، وامسك السائقان بأزمة الخيل ، وبدأ الانحدار . كانت على يميننا صخرة وعلى شمالنا فج تبدو لنا منه القرية الاوسيتية التى تقبع فى آخره ، كأنها عش من اعشاش السنونو . وارتعدت حين تصورت ان هذا الطريق الذى لا يمكن ان تتلاقى فيه عربتان يمر فيه

ساعى البريد تحت جنح الليل ، عشر مرات فى السنة ، حتى دون ان ينزل من عربته المرتجة . كان احد سائقينا روسيا ، فلاحا من ياروسلافل ، والآخر اوسيتيا . وكان الاوسيتى يقود حصان مجر العجلة بالزمام ، ويحترز ويحتاط كثيرا ، بعد ان حل احصنة العارض . اما صاحبنا الروسى فكان لا يبالى ، حتى انه لم يغادر مقعده فى العربة ! حتى اذا نبهته الى انه يستطيع ، فى اقل تقدير ، ان يهتم بحقيبتى التى لا اريد ابدا ان امضى الى قاع الهوة لالتقاطها متى سقطت ، اجابنى بقوله : «هوّن عليك يا سيدى ، سنصل باذن الله سالمين ! ولسنا نقوم بهذه الرحلة اول مرة !» لقد كان على حق : كان يمكن ان لا نصل ، ولكننا وصلنا مع ذلك . ألا ليت الناس يبذلون مزيدا من الجهد فى التفكير ، اذن لادركوا ان الحياة لا تستحق ان نعنى بها كل هذه العناية . . .

لعلكم تريدون ان تعرفوا خاتمة قصة بيلا ! ولكننى لا اكتب الآن قصة ، وانما اسجل مذكرات رحلة ، ولا استطيع ان احمل الرئيس على متابعة

قصته قبل ان يريد هو ذلك . فتجملوا اذن بالصبر ، او فاقلبوا بضع صفحات اذا شئتم . ولكننى لا انصح لكم بهذا ، لان قصة مرورنا بكرستوفايا (او جبل سان كرستوف ، كما اسماها الحكيم جامبا) جديرة باهتمامكم .

لقد هبطنا اذن من جبل الجود الى وادى تشرتوفا . . . ان الاسم لرومانسى ! لا شك انكم تتصورون مغارة روح الشر بين هذه الصخور التى لا يمكن الوصول اليها ! ولكنكم مخطئون . ان كلمة تشرتوفا مشتقة من «تشرتا» (بمعنى خط) لا من «تشورت» (بمعنى شيطان) ، فها هنا كانت حدود جورجيا فى القديم . ان الوادى ملئ بالثلج ، حتى ليذكر كثيرا بساراتوف ، وتامبوف وغيرهما من الامكنة **الفاتنة** فى وطننا .

حين وصلنا الى وادى تشرتوفا ، قال الرئيس وهو يشير الى ذروة يغطيها الثلج :

— هذه كرستوفايا * .

ان صليبا من الحجر يلوح اسود فى ذروتها

---

* الصليبية . — ملاحظة المترجم .

التى يؤدى اليها طريق لا يكاد يرى ولا يسير فيه السائرون الا حين يتكاثر الثلج ، فيتعذر السير فى الطريق الجانبى . وقال السائقان ان الثلوج لم يبدأ تهافتها من الجبل بعد ؛ ودارا بنا حول كرستوفايا ، مراعاة للخيل ، فما ان سرنا فى الطريق قليلا حتى التقينا بخمسة اوسيتيين عرضوا علينا خدماتهم وتعلقوا بالعجلات ، وراحوا يجرون عرباتنا ويقومونها ، وهم يصرخون . لا شك ان الطريق لم تكن خالية من الخطر . كنا نرى على يميننا اكواما من الثلج منتصبة فوق رؤوسنا ، تهم ان تتهافت فى الفج عند اول نسمة تهب . وكان الثلج يغطى بعض اجزاء الطريق الضيق ، يتهاوى تحت اقدامنا فى بعض المواضع ؛ وقد اذابته اشعة الشمس فى مواضع اخرى فاستحال الى جليد فى ليالى الصقيع . فكنا لا نتقدم ، نحن ايضا ، الا فى كثير من العناء . والخيل تقع من حين الى حين . وكان على شمالنا صدع عميق فاغر ، يجرى فيه سيل يختبئ تحت قشرة من الثلج تارة ، ويتواثب مزبدا على الصخور السوداء تارة اخرى . انفقنا ساعتين حتى

درنا حول كرستوفايا ، ساعتين من اجل فرستين . وفي اثناء ذلك هبطت السحب . واخذ البرَد والثلج يهطلان . واخذت الريح تفوّر في الفجاج ، وتزأر وتصفر كأنها سولوفيـي رازبوينك * ، وسرعان ما غاب الصليب الحجرى فى الضباب الذى تتلاحق امواجه من الشرق ، وما تنفك تزداد كثافة وسرعة . . . يجب ان اذكر عابرا ان هناك رأيا تتناقله الاجيال ، بصدد هذا الصليب ، وهو ان الامبراطور بطرس الاول هو الذى نصبه فى هذا المكان ابان رحلة قام بها الى القفقاس . ولكننا نعلم ان بطرس لم يذهب ابدا الى غير داغستان ، ثم لقد كتب على الصليب باحرف كبيرة انه نصب بامر الجنرال ييرمولوف عام ١٨٢٤ . ولكن هذا الرأى كان راسخا فى عقول الناس ، حتى ليحتار المرء ماذا يصدق وماذا يكذب ، لا سيما واننا لم نتعود الركون الى صدق ما يكتب .

بقى علينا ان نهبط ستة فرستات بين الصخور

* «قاطع الطرق-البلبل» — فى الاساطير الروسية كائن خرافى رهيب روع الركاب المارة بصفيره الحاد .

التى يغطيها الجليد وفى الثلج الموحل ، حتى نصل الى محطة كوبى . لقد اصبحت الخيل عاجزة عن مواصلة السير ، وكانت فرائصنا ترتعد . وازدادت زمجرة الاعصار . ان هذه العاصفة تشبه عواصف الشمال ، ولكن نبراتها المتوحشة كانت اشد تأوها واعمق حزنا . خاطبتها بينى وبين نفسى : «وانت ايضا ، ايتها المنفية ، تبكين السهوب الواسعة ! السهوب التى لا يحدها حد ، حيث تستطيع اجنحتك الباردة ان تنتشر ما شاء لها الانتشار ! اما هنا فانت فى مكان ضيق ، تختنقين كنسر سجين يلطم قضبان الحديد من قفصه صارخا» .

قال الرئيس :

— ان الجو ردىء . انظر من حولك . اننا لا نرى الا ضبابا وثلجا ، وقد نهوى فى منحدر او نخسف فى حفرة . ولا شك بان نهر بايدارا ، تحت ، يطفح بماء الفيضان ، حتى ليستحيل ان نجتازه . آه من هذه الآسيا التى لا يمكن ان يطمأن فيها الى شىء ولا الى احد !

وكان السائقان يضربان الخيل بالسياط صارخين

شاتمين ، والخيل تنخر وتحرن كأنها لا تريد ان تخطو خطوة واحدة بحال من الاحوال ، رغم بلاغة ضربات الاسواط كلها . وقال احد السائقين اخيرا :

— يا صاحب المعالى لن نستطيع الوصول الى كوبى هذا المساء فهلا انعطفنا شمالا ما دام فى الوقت متسع الى الآن ؟ هل ترى هناك على ذلك السفح شيئا اسود ؟ تلك بيوت يتوقف فيها المسافرون متى فاجأهم جو ردىء . يقول هؤلاء الاوسيتيون انهم يقودونكم الى ذلـك المكان اذا منحتموهم عطاء .

قال الرئيس :

— اعرف ذلك ، يا عزيزى ، اعرفه بدون ان تقوله . انه ليسعد هؤلاء الخبثاء ان يبتزوا منا العطاء تلو العطاء .

فتدخلت قائلا :

— يجب الاعتراف بان حالتنا تسوء كثيرا لولاهم .

فدمدم الرئيس يقول :

— نعم ، نعم ، ان هؤلاء الناس يشمون ،

نعم ، يشمون كل فرصة تسنح للاستفادة منا . كأننا لا نستطيع ان نهتدى الى الطريق بدونهم .

وانعطفنا شمالا ، فوصلنا الى الملجأ البائس فى غير قليل من العناء ، هو بيتان بنيا بالبلاط والحصى ، واحيطا بجدار من هذه المواد نفسها . . . وفيهما اناس يرتدون اسمالا بالية ، استقبلونا بغير قليل من الترحيب والود . وقد عرفت فيما بعد ان الحكومة تأجرهم وتطعمهم على شرط ان يستقبلوا المسافرين الذين تباغتهم العاصفة .

قلت وانا اجلس امام النار :

ـــ لا بد لكل ما يحدث من نتيجة طيبة . تستطيع هنا ان تكمل سرد قصة بيلا . فانى على يقين من ان القصة ما انتهت .

ـــ ومن اين اتاك هذا اليقين ؟

قال الرئيس ذلك وهو يطرف عينه ويبتسم ابتسامة متخابثة .

فاجبته :

ـــ لأن هذا ليس من طبيعة الامور : فالقصة التى تبدأ تلك البداية العجيبة لا بد ان تنتهى بنهاية عجيبة كذلك .

— يمينا لقد حزرت .

— يسعدنى ان احزر .

— اما انا فان ايقاظ هذه الذكريات يحزننى . كانت فتاة رائعة ، بيلا تلك . لقد الفتها فى نهاية الامر ، فكنت اشعر نحوها شعور الاب نحو ابنته ، وكانت تحبنى هى ايضا ! يجب ان اذكر لك ان ليس لى اسرة . فانا منذ زهاء اثنتى عشرة سنة لا اعرف شيئا عن امى ولا عن ابى . ولم يخطر ببالى ان اتزوج حين كنت شابا ، واحسب ان الاوان قد فات الآن . فاسعدنى ان اجد شخصا ادلّله . كانت بيلا تغنينا وترقص لنا رقصة الليزغينكا . . . آه ما كان اجمل رقصها ! لقد سبق لى ان رأيت صبايانا فى الارياف ، بل لقد كنت ذات يوم فى موسكو فى حفل يضم النبلاء ، منذ عشرين سنة ، ولكن ما شاهدته ، هناك من رقص لا يعد شيئا اذا قيس برقصها . وكان بتشورين يكسوها اجمل اللباس ، كأنها دمية من الدمى ، وكان يحيطها بالوان من الرعاية ، ويدللها ويغنجها ، وكانت تزداد رونقا وسناء . ما كان اروعها !

لقد زلت سفعة وجهها ويديها ، وتورد خداها . . . وما اكثر ما كانت تضحك ! كانت لا تكف عن السخر منى ، تلك الشيطانة الصغيرة ، غفر الله لها ! . .

— ومتى انبأتموها بموت ابيها ؟

— كتمنا ذلك عنها مدة طويلة ، الى ان تحسنت حالها . فلما صارحناها بالامر ، بكت يومين ثم نسيت .

انقضى على ذلك اربعة اشهر ، كانت تجرى الامور خلالها على احسن حال . وكان بتشورين يحب الصيد (اظن اننى ذكرت لك ذلك) . وكثيرا ما كانت تستبد به الرغبة فى المضى الى الغابة لمطاردة اليحمور والخنزير البرى . ثم اصبح الآن يقضى وقته كله فى القلعة لا يبارحها . ولكن هأنذا افاجئه ذات يوم حالما مستغرقا فى التفكير ، يذرع غرفته جيئة وذهابا ، وقد وضع يديه وراء ظهره . وفى يوم آخر ، مضى الى الصيد دون ان يخبر بذلك احدا ، وظل غائبا عن القلعة طوال الضحى . وفعل ذلك مرة ثانية ، فثالثة ، ثم ما انفكت روحاته الى الصيد تزداد . قلت

فى نفسى : هذا نذير سوء فلا بد ان شيئا وقع بينهما .

ودخلت الى بيتهما ذات صباح . كانت بيلا جالسة على سريرها بجلباب من الحرير الاسود ، وقد بدا على وجهها من امائر الشحوب والحزن ما اخافنى . . . اننى لاتصورها الآن كأننى رأيتها امس .

— اين بتشورين ؟

— فى الصيد .

— ذهب هذا الصباح ؟

صمتت كأنه يشق عليها كثيرا ان تجيب ، وقالت اخيرا وهى تزفر زفرة طويلة :

— بل ذهب امس .

— لعل شيئا قد وقع له ؟

قالت وقد ترقرقت فى عينيها الدموع :

— لازمتنى هذه الفكرة امس ، النهار كله . كنت اتصوره وقد جرحه خنزير برى او اختطفه الى الجبل احد التشتشينيين . . . كنت اتخيل جميع المصائب . اما اليوم ، فانا اعتقد انه اصبح لا يحبنى .

— دعى عنك هذه الوساوس يا صغيرتى ، ما هذه الافكار !

واخذت تبكى ، ثم ما لبثت ان رفعت رأسها بكبرياء ، وجففت دموعها ، واردفت تقول :

— اذا كان لا يحبنى فمن ذا الذى يمنعه من ردّى الى بيتى ؟ هل اكرهته على الاحتفاظ بى هنا ؟ اذا استمر الحال هكذا فسأذهب ، انا لست امة له ، انا ابنة امير ! . .

واحببت ان اهدئها فقلت :

— اسمعى يا بيلا ، انه لا يستطيع ان يبقى دائما بين يديك . انه شاب ، وهو يحب الصيد . ذهب وسيعود . واذا رآك دائما حزينة ، فلا شك ان هذا لن يلبث ان يضجره .

— نعم ، نعم ، اريد ان اكون مرحة !

قالت ذلك ، ثم ضحكت ، وتناولت طبلها ، واخذت تغنى ، وترقص ، وتثب حولى . ولكن ذلك لم يدم طويلا ، فسرعان ما عادت فتهاوت على سريرها ، واخفت وجهها بيديها .

شعرت بارتباك شديد . اننى لم اعن قبل ذلك بامرأة ! وتساءلت كيف اواسيها ، فلم

يفتح الله عليّ بشيء . ودام ذلك لحظة طويلة . صمتنا نحن الاثنين . . . انه لموقف مزعج . وقلت لها اخيرا :

— هل تريدين ان نقوم بجولة على السور ؟ ان الجو جميل جدا !

كان ذلك اليوم من اروع ايام سبتمبر ، فالسماء صافية ، والحرارة معتدلة . وكنا نستطيع ان نميز كل جبل من الجبال بوضوح . ظللنا نتجول على السور جيئة وذهابا ، دون ان ينبس احدنا بحرف . واخيرا جلست هى على العشب ، فجلست الى جانبها . انى لاضحك كلما تذكرت ذلك الموقف : كنت لها كالوصيفة .

كانت قلعتنا تقوم على قمة ، وكان المنظر الذى يُرى من على السور رائعا حقا ، فمن جهة نرى ارضا فسيحة طليقة يخددها بعض الوديان ، ثم الغابة تمتد حتى ذروة الجبال ؛ ودخانا يصعد من القرية هنا وهناك ، وخيلا ترتعى . ومن جهة اخرى نرى نهرا غير عميق تبدأ عنده ادغال مكتظة تغطى الاعالى الصوانية التى تمضى الى لقاء سلسلة القفقاس الكبرى . لقد جلسنا على

الزاوية من نتوء فى الحصن بارز . فكان ذلك يتيح لنا ان نرى كل ما قد يقع فى الجهتين . وانا لفى ذلك ، اذا انا المح رجلا يمتطى جوادا اشهب ، يخرج من الغابة ، ويقترب حتى يصبح على مسافة من القلعة لا تتجاوز مائة ذراع ، ثم يتوقف وراء النهر ، يلفت حصانه بحركة فيما يشبه الجنون . ما معنى هذا ؟

— انظرى ، يا بيلا ، بعينيك الفتيتين ، الى هذا الفارس ترى ما جاء يصنع هنا ؟

فنظرت بيلا حيث انظر ، وهتفت :

— هذا كازيتش ! . .

— آه من هذا اللص ! أهو يسخر منا ؟

وانعمت النظر ، فعرفت فيه حقا كازيتش ، بسحنته الغبراء ، ورأيته قذرا كما كان ، ورأيت ثيابه رثة خلقة كما كانت ايضا .

وصرخت بيلا وهى تمسك بيدى :

— هذا حصان ابى .

واخذت ترتعد ارتعاد ورقة من اوراق الشجر والتمعت عيناها بشرر . قلت فى نفسى : «ها — ها ! أفأنت ايضا ، ايتها الصغيرة ، تجرى فى عروقك

دماء قطاع الطرق !»

وناديت الخفير ، وقلت له :

— صوب بندقيتك ، واقتل لى ذلك الرجل الباسل هناك ، اذا اردت ان تربح روبلا من فضة !

— امرك مطاع يا صاحب المعالى ، ولكن الرجل لا يستقر فى مكان .

— قل له اذن ان يهدأ .

قلت ذلك ضاحكا .

وصاح الخفير وهو يحرك يده :

— ايها الصديق ! قف قليلا ، ما لك تدور كما تدور الدوامة .

ووقف كازبتش ليصيخ بسمعه . كان يحسب ان الخفير يريد ان يحادثه . طبعا ! وسدد الجندى الممتاز بندقيته واطلق النار . طاشت الرصاصة . فما كاد يشتعل البارود ، حتى كان كازبتش قد دفع حصانه ، وجعله يثب من جانب ، ثم اعتلى ركابه ، وصرخ ببعض الكلام ، ورفع سوطه بحركة من يهدد ، ومضى لا يلوى على شىء .

قلت للخفير :

— ألا تخجل ؟

فاجابنى مبرراً فشله بقوله :

— لقد اصبته ولكنه لم يسقط هنا وانما ذهب ليلقى مصرعه فى مكان آخر ، يا صاحب المعالى . اذ لا سبيل الى قتل هؤلاء الشياطين بضربة واحدة .

وعاد بتشورين من صيده بعد ربع ساعة . فوثبت بيلا الى عنقه ، بلا شكوى ولا عتاب لغيابه الطويل . . . اما انا فكنت ساخطا عليه . فقلت :

— هل تعرف ان كازبتش كان هنا وراء النهر منذ بضع دقائق ، واننا اطلقنا عليه النار ؟ كان يمكن ان يلقاك منذ برهة ، وهؤلاء الجبليون لا ينقضى حقدهم . هل تظن انه لم يقدر انك ساعدت عزمت ؟ وانى لاراهن على انه عـرف اليوم بيلا . انا اعرف انها كانت تعجبه كثيرا منذ سنة . فلقد صارحنى هو نفسه بهذا . ولو كان يأمل بجمع مهر كاف ، اذن لطلب يدها ، ما فى ذلك شك . . .

واستغرق بتشورين فى التفكير ، ثم اجاب :

— نعم يجب ان نكون اشد حذرا . . . يا بيلا ، لا تصعدى الى السور بعد اليوم !

وفى تلك الليلة قام بينى وبينه حديث طويل . كان يؤلمنى ان ارى شعوره نحو هذه الفتاة البائسة قد تغير . لقد صار ينفق نصف وقته فى الصيد ، وفترت عاطفته ، واصبح لا يحبها كما كان يحبها من قبل . وكانت تهزل هزالا واضحا ، وشحب وجهها الصغير كثيرا ، وفقدت عيناها ما فيهما من بريق .

فكنت اسألها فى بعض الاحايين :

— لماذا تتنهدين يا بيلا ، أأنت حزينة ؟

— لا .

— هل ترغبين فى شىء ؟

— لا .

— هل بك حنين الى اهلك ؟

— لم يبق لى اهل .

وكان يتفق ان ينقضى النهار بكامله لا استطيع ان انتزع منها غير «نعم» و «لا» . وتحدثت فى هذا الى بتشورين . فاجابنى بقوله :

— اسمع يا مكسيم مكسيمتش . ان لى طبعا رديئا ، لا ادرى هل يعود ذلك الى تربيتى ام الى ان الله خلقنى هكذا . ولكننى اعرف اننى ان كنت اسبب شقاء لغيرى ، فلست من ذلك فى سعادة . وليس فى هذا كبير عزاء لهم ، ولكن الامر هو ذاك . فى شبابي ، منذ تحررت من وصاية ابوى ، اخذت اتمتع ، فى كثير من اللجاجة الصارمة ، بجميع ما يمكن الوصول اليه بالمال من الملذات . وانتهيت ، بطبيعة الحال ، الى الاشمئزاز من جميع تلك الملذات . ثم دخلت مجتمع الطبقة الراقية ، ولكننى سرعان ما سئمت منه . ووقعت فى غرام عدد من حسناوات ذلك المجتمع ، ووقعن هن فى غرامى . ولكن هذا الغرام ما كان يزيد على ان يذكى خيالى وحبى لنفسى ، اما قلبى فظل خاويا . . . وعندئذ اخذت اقرأ واتثقف . ولكننى نفرت من العلوم ايضا ، فقد رأيت ان المجد والسعادة لا يتوقفان عليها ، لان اسعد الناس جهلاء ، ولان المجد رهن بالحظ ، ولا حاجة للمرء الا الى البراعة اذا شاء الوصول اليه . . .

وغدوت ضجرا . ثم ما لبثت ان امرت بالرحيل الى القفقاس : — تلك اسعد لحظة فى حياتى . كنت اظن ان الضجر لا سبيل له الى النفس تحت رصاص التشتشينيين : ولكن ظنى اخطأ ، فما كاد ينقضى شهر واحد حتى الفت أزيز الرصاص ومجاورة الموت ، وصرت اهتم بذلك كله اقل مما اهتم بدندنة الذباب . . . وغدوت اشد ضجرا مما كنت فى اى عهد مضى ، لاننى فقدت هنالك آخر أمل . وحين رأيت بيلا فى غرفتى ، حين وضعتها على ركبتى اول مرة ، وقبلت ضفائرها السود ، شعرت — ويا لها من غباوة — ان القدر قد رحمنى ، فارسل اليّ هذا الملاك ، ينتشلنى مما انا فيه . لقد اخطأت الظن هذه المرة ايضا . ان حب هذه الصغيرة المتوحشة لا يفضل كثيرا حب سيدة كبيرة . فهذه تزعجنى ببساطتها وسذاجتها مثلما تزعجنى تلك بتكلفها وتغندرها . اننى ما ازال احب بيلا ، ان شئت . ولن انسى لها لحظات كانت عذبة حقا ، وانى قادر على ان اضحى بحياتى من اجلها . ولكن البقاء الى جانبها يضجرنى . لا

ادرى أأنا احمق ام انا وغد . ولكن هناك شيئا لا مراء فيه ، وهو اننى جدير بالشفقة ، ولعلنى اجدر بها منها . ان لى نفسا افسدتها حياة المجتمع الراقى وخيالا قلقا ، وقلبا لا يشبع من جوع ، لا شيء يروينى . فسرعان ما آلف الالم واللذة كليهما . وان وجودى ليزداد فراغا يوما بعد يوم . ولم يبق لى الا مخرج واحد : السفر . وساسافر متى استطعت ذلك . غير اننى لن اسافر الى اوروبا ، وقانى الله شر ذلك . بل اسافر الى امريكا ، الى جزيرة العرب ، الى الهند . وقد اقضى نحبى فى الطريق ! ولكننى احسب ، على الاقل ، ان هذه السلوى الاخيرة لا تنفد سريعا ، بفضل العواصف والطرق الوعرة .

واسترسل فى مثل هذا الكلام مدة طويلة ، ولقد رسخت اقواله فى ذاكرتى ، لاننى ما سمعت قبل ذلك كلاما مثل هذا الكلام من فتى فى سنه ، وارجو الله ان لا اسمع مثله طوال حياتى . . . امر لا يصدق . ولكن قل لى ، انت الذى كنت فى العاصمة منذ مدة غير طويلة فيما اظن ، هل كل الشباب هناك يشبهون هذا الشاب ؟

فاجبته بان كثيرين يقولون ما يقول ، وربما كان بينهم من يقوله صادقا ؛ وان زوال الافتتان هذا قد نشأ ، كسائر المودات ، فى اعلى طبقات المجتمع ، ثم هبط الى ادناها حتى صار مبتذلا ؛ وان الذين يشعرون اليوم بالضجر حقا اكثر من غيرهم يحاولون اخفاء هذا الداء على انه آفة وعيب .

ولم يفهم الرئيس هذه الامور المرهفة ، فهز رأسه ، وابتسم ابتسامة متخابثة ، وهو يقول :

— لعل الفرنسيين هم الذين جعلوا الضجر مودة ؟

— بل هم الانجليز .

— هل . . . حقا لقد كان الانجليز دائما سكيرين عربيدين ! . .

ولم استطع ان امتنع عن التفكير فى تلك السيدة الموسكوفية التى كانت تؤكد ان بايرون لم يكن الا سكيرا . ان الرئيس يعذر اكثر مما تعذر تلك السيدة : فهو يريد ان يمتنع عن الشراب ، فلا عجب ان حاول ان يقنع نفسه بان كل ما فى الدنيا من شرور مرده الى السكر .

واردف الرئيس يكمل سرد قصته بقوله :

— ولم يظهر كازبتش بعد ذلك . غير انني (لا ادري لماذا) ما كنت استطيع ان اطرد من ذهني هذه الفكرة ، وهي انه لم يجيء الى القلعة عبثا ، وانه يدبر امرا .

وفي ذات يوم ، اصر بتشورين على ان اصحبه الى صيد الخنازير البرية . فرفضت في اول الامر . . . ألم ار في حياتي خنزيرا بريا ؟ ولكنه استطاع اخيرا ان يجرني الى ما اراد . فمضينا في الصباح يصحبنا خمسة جنود . وظللنا حتى الساعة العاشرة نجوس القصب والغابة ، دون ان نعثر على شيء . قلت له : «ألا نعود ؟ لماذا العناد ؟ لقد كتب علينا ان لا يسعفنا اليوم حظ !» ولكنه كان لا يريد ان يعود خاوي الوفاض ، رغم الحرارة والتعب . . . هكذا خلق : اذا عزم على شيء ، لا يرجع عنه قيد انملة . لا شك ان امه قد افسدته بالدلال في صغره . . . وفي نحو الظهر ، وقعنا اخيرا على واحد من هذا الخنازير البرية اللعينة . واطلقنا النار . . . ولكن الخنزير كان قد ولى الادبار بين القصب . كان

الحظ يصر على ان لا يواتينا فى ذلك اليوم . . .
وبعدما استرحنا قليلا ، قفلنا راجعين .

كنا نسير جنبا الى جنب صامتين ، وقد ارخينا الاعنة . وفيما نحن على وشك الوصول (غير ان بعض الاشجار كانت تخفى القلعة عنا) اذا نحن نسمع صوت رصاص ينطلق . . . فتبادلنا النظر ، وراودتنا شبهة واحدة ، فعدونا نحو الجهة التى جاء منها الصوت . فرأينا الجنود يهرعون على السور جماعة ، ويشيرون الى شىء فى السهل : انه فارس يهرب سريعا ، ويحمل على سرجه شيئا ابيض ، فصرخ بتشورين صرخة حادة يحسده عليها اى تشتشينى ، واستل بندقيته من جرابها ، واندفع وراء الفارس ، وتبعته .

ومن حسن الحظ ان خيلنا لم تكن مكدودة من الصيد ، فكانت تنهب الارض نهبا ، فاذا المسافة بيننا وبين الفارس الهارب ما تنفك تتناقص . . . واخيرا عرفت ان الفارس هو كازبتش ، ولكننى لم استطع ان اميز ما يحمل . فاندفعت بحصانى حتى حاذيت بتشورين ، وصحت به : «هذا كازبتش» ، فنظر بتشورين الىّ ، وهزّ رأسه ،

وجلد حصانه .

واصبحنا من كازبتش على مرمى البندقية . عبثا يحاول ان يسرع . كان حصانه لا يتقدم الا فى مشقة ، اما لانه متعب ، واما لانه دون خيلنا . لا شك انه تذكر فى تلك اللحظة حصانه السابق كاراخيز .

ورأيت بتشورين يسدد اليه وهو يعدو . . . فصحت به «لا تطلق النار ، احتفظ بطلقتك ، فسندركه !» آه من هؤلاء الشباب الذين يتحمسون حين لا تجب الحماسة ! . . . وانطلقت الرصاصة ، فحطمت احدى قدمى الحصان ، فما سار بضع قفزات بقوة اندفاعه ، حتى كبا ثم خرّ على ركبتيه . ووثب كازبتش على الارض ، فرأينا انه يحمل بين ذراعيه امرأة يغطيها حجاب ابيض . انها بيلا . مسكينة بيلا ! وصاح كازبتش يقول لنا بلغته كلاما لم نفهمه ، ثم اشهر على بيلا خنجره . . . لم يبق من الوقت لحظة نضيعها ، فاطلقت انا النار دون ان اخطئ الهدف . اعتقد ان الرصاصة اصابته فى كتفه ، لان ذراعه ما لبثت ان سقطت . . . فلما تبدد الدخان ، رأينا الحصان

الجريح مجندلا على الارض ، ورأينا بيلا الى جانبه . اما كازبتش فكان قد ترك بندقيته ، وراح يتسلق احدى الصخور متسللا بين الشوك كالهر . كنت ارغب فى ان اسقطه ، ولكن وقتى لا يتسع لشحن بندقيتى . فوثبنا الى الارض ، وهرعنا نحو بيلا . كانت المسكينة بلا حراك ، وكان الدم ينزف من جرحها غزيرا . . . كان فى وسع هذا الوغـــد ان يطعنهـــا فـــى قلبها ، فينتهى كل شىء فورا . . . ولكنه طعنها فى ظهرها ! . . انها لطعنة لص من قطاع الطرق حقا !

كانت قد غابت عن وعيها ، فمزقنا حجابها ، وعصبنا جرحها بقوة . عبثا اغرق بتشورين شفتيها الباردتين بقبلاته ، فما من شىء كان يمكن ان ينعشها .

وعاد بتشورين الى سرجه ، فحملت اليه بيلا ووضعتها بين ذراعيه ، وقفلنا راجعين الى القلعة . وبعد بضع دقائق من صمت ، قال لى بتشورين : «اسمع يا مكسيم مكسيمتش ، اذا نحن سرنا بهذه الخطى البطيئة ، فلن نصل بها حية» ، فأجبته قائلا : «هذا صحيح» ، واخذنا

نعدو . كان ينتظرنا عند ابواب القلعة جمهور غفير . فحملنا بيلا ، فى كثير من الاحتراز ، الى بيت بتشورين ، وارسلنا نستدعى الطبيب . كان الطبيب سكران ، ولكنه جاء ، فاعلن بعد ان فحصها انها لن تعيش اكثر من يوم واحد . ولكنه كان مخطئا . . .

قلت للرئيس وانا اتناول يده بفرح لم استطع ان اكبحه :

— وهل شفيت ؟

فأجابنى قائلا :

— لا . . . ولكن الطبيب كان مخطئا ، لانها عاشت يومين لا يوما واحدا .

— ولكن كيف استطاع كازبتش ان يختطفها ؟

— الامر بسيط : لقد تركت القلعة وذهبت الى النهر ، رغم ان بتشورين منعها من ذلك . وكان الجو حارا . فجلست على صخرة ، واغطست قدميها فى الماء . فاقترب منها كازبتش خلسة ، فامسك بها ، وكمّ فمها ، وحملها الى الغابة ، فوثب بها الى حصانه ، ثم ولىّ هاربا . واخذت تصرخ ، فأطلق الخفراء صفارة الانذار ، واطلقوا

عليه الرصاص ، ولكنهم اخطأوه ، وفى اثناء ذلك وصلنا نحن .

— ولكن لماذا اراد كازبتش ان يختطفها ؟

— لماذا ؟ ان هؤلاء الشراكسة رجال نهب وسلب ، لا يستطيعون ان يمتنعوا عن مد ايديهم الى اى شيء ، ولو كان غير ذى فائدة . . . هذى طباعهم ، ولا يمكن تقويمها ! ثم ان بيلا تعجبه منذ مدة طويلة .

— وماتت بيلا ؟

— نعم بعد ان تألمت كثيرا ، وبعد ان آلمتنا كثيرا . ففى نحو الساعة العاشرة من المساء ، عاد اليها وعيها ، وكنا جالسين على حافة سريرها ، فما ان فتحت عينيها حتى نادت بتشورين . فأجابها وهو يمسك بيدها : انا هنا — جانيتشكا ! (هذا بلغتهم كقولنا بلغتنا «يا حبيبتى») .

— سأموت !

وحاولنا ان نهدئ روعها ، فاكدنا ان الطبيب اقسم ليشفيها . فهزت رأسها ، واستدارت الى جهة الجدار : كانت لا تريد ان تموت ! . . وفى الليل اخذت تهذى . كان رأسها يحترق .

وكانت تنتابها احيانا قشعريرة من الحمى ، تهز جسمها هزا قويا . وراحت تقول كلاما مضطربا يدور على ابيها واخيها . . . تريد ان ترى جبالها ، وان تعود الى بيتها . . . ثم تكلمت عن بتشورين ، فكانت تناديه بأرق الاسماء او تعاتبه على انه اصبح لا يحب جانيتشكا كما كان يحبها من قبل . . .

وكان بتشورين يصغى اليها صامتا ، وقد وضع رأسه بين يديه . ولكن ما من دمعة ترقرقت فى عينيه خلال ذلك كله . ألانه كان عاجزا عن البكاء ؟ ألانه كان يسيطر على نفسه ؟ لا ادرى . اما انا فلم ار فى حياتى شيئاً اجدر من هذا المشهد بالرثاء .

فلما طلع الصبح ما عادت تهذى . وظلت خلال ما يقرب من ساعة ، ساكنة ، شاحبة ، ضعيفة لا يكاد يرى المرء انها تتنفس . ثم شعرت انها احسن حالا ، فأخذت تتكلم . ولكن هل تدرى ماذا قالت ؟ ان فكرة كهذه لا يمكن ان تراود الا شخصا يحتضر . . . قالت انها تأسف على انها ليست مسيحية ، ذلك لان

روحها وروح بتشورين لن تلتقيا فى العالم الآخر ، وان امرأة اخرى ستكون خليلته فى الجنة . فبدا لى ان انصّرها قبل ان تموت ، فاقترحت عليها ذلك ، فنظرت الىّ ، مدة طويلة ، مترددة لا تستطيع ان تقول كلمة . . . ثم اجابت بقولها : بل اموت على دينى الذى ولدت عليه . وانقضى على هذا النحو نهار بكامله . ما اشد ما تغيرت فى هذه الساعات القليلة ؟ لقد تجوف خداها الشاحبان ، واتسعت عيناها ، وجفت شفتاها . . . كان ثمة ما يحرق جوفها ، كأن فى صدرها نارا حامية .

ثم جاء الليل . لم يغمض لنا جفن ، ولم نتركها لحظة واحدة . كانت تتألم ألما هائلا ، وتئن ، وكانت ، متى هدأ ألمها قليلا ، تحاول أن تقنع بتشورين بأنها احسن حالا ، وتتوسل اليه ان يمضى الى فراشه وينام . وكانت تلثم يده وتظل ممسكة بها . وفى الصباح استبد بها الخوف من الموت ، فأخذت تضطرب ، وانتزعت ضمادها فعاد الدم ينزف من جرحها ، وأعدنا تضميد الجرح . فهدأت قليلا ، وطلبت الى

بتشورين ان يقبلها . فركع بتشورين الى جانب السرير ، وانهض رأس المحتضرة ، والصق فمه بشفتيها اللتين اخذ البرد يدب فيهما ، فأحاطت عنقه بذراعيها المرتجفتين ، كأنها تريد فى هذه القبلة ان تسلمه روحها . . . لقد احسنت بموتها صنعا ! والا كيف كانت تصبح لو هجرها بتشورين ، وهذا ما كان لا بد ان يقع فى يوم من الايام ! . .

وفى صباح الغد ، ظلت هادئة ، صامتة ، طيعة ، رغم جميع لزقات طبيبنا ، وجميع جرعاته . قلت للطبيب : «ألم تقل انها لن تعيش ؟ فما فائدة جميع هذه الادوية اذن ؟» فأجابنى بقوله : «لراحة الضمير ، يا مكسيم مكسيمتش» ، نعم الضمير !

وبعد الظهر اخذت تتألم من العطش . ففتحنا النافذة ، ولكن الجو كان فى خارج الغرفة اشد حرارة . فوضعنا الى جانب سريرها ثلجا ، فلم يجدها ذلك شيئا . كنت اعلم ان هذا الظمأ الشديد دليل على ان النهاية قد شارفت ، ونبهت بتشورين الى ذلك .

— اعطونى ماء ، اعطونى ماء . . .

هذا ما كانت تقوله بصوت اجش ، وهى تنهض قليلا .

واصبح بتشورين شاحبا كالبياض ، فتناول كأسا ملأه بالماء ، وناولها اياه . فغطيت عينى بيدى ، واخذت اتلو دعاء لا اذكر الآن ما هو . . . نعم ، ايها السيد الطيب ، لقد رأيت قبل ذلك اناسا يموتون ، فى مستشفيات عسكرية او فى ساحة القتال . ولكن شتان . ويجب ان اعترف لك مما زاد ألمى انها قبل موتها لم تذكر اسمى مرة واحدة . . . وكنت مع ذلك احبها حب الاب لبنته ! . . ولكن سامحها الله . . . فما كان لها ان تذكرنى ساعة الموت ! . .

وشعرت براحة بعد ان شربت الماء . وما هى الا دقائق ثلاث حتى كانت تلفظ انفاسها الاخيرة . . . وقربت من شفتيها مرآة ، فظلت المرآة صافية ! . . فأخرجت بتشورين ، وذهبت به الى السور . . . وظللنا نمشى مدة طويلة جنبا الى جنب دون ان ينبس احدنا بكلمة . كان وجهه لا يعبر عن شىء خاص . وشعرت من ذلك بشىء من الأسف : فلو كنت مكانه اذن

لمت حسرة ! وجلس اخيرا على الارض ، فى الظلام ، واخذ يخط شيئا على الرمل بقطعة من الخشب . واردت انا — على سبيل اللياقة فى حقيقة الامر — ان أواسيه ، فاذا هو يرفع رأسه ، وينفجر ضاحكا . . . شعرت بقشعريرة فى ظهرى ، ومضيت اوصى بالتابوت .

اعترف لك بأننى ما توليت الاهتمام بهذا الامر ، الا لاسلو . وكان عندى حرير ، فغطيت به التابوت ، ثم زينته بشرائط كان بتشورين اشتراها لها .

وفى الصبح من الغد ، دفناها عند ضفة الساقية ، وراء القلعة ، غير بعيد من المكان الذى جلست اليه آخر مرة . كانت اشجار الاكاسيا والبيلسان تحيط بالقبر . وددت لو اغرس على قبرها صليبا ، ولكننى لم اجرؤ ان افعل ، لانها ليست مسيحية على كل حال . . .

— وبتشورين ؟

— بتشورين ظل مريضا مدة طويلة ، وهزل كثيرا ، هذا الفتى المسكين . ولكننا لم نتحدث بعد ذلك عن بيلا . كنت اعلم ان ذلك يحز

فى نفسه ، فعلام اتحدث اذن عنها ؟ وبعد ثلاثة اشهر نقل الى فوج ى . . . ، فسافر الى جورجيا ، ولم اره بعد ذلك . . . وقيـــل لى اخيرا انه عاد الى روسيا ، ولكن ذلك لم يذكر فى البلاغات . ثم ان الاخبار تصلنا متأخرة جدا .

وهنا اندفع فى كلام طويل لا ينتهى ، عن انزعاجه من ان الانباء لا تصل الا بعد سنة كاملة . لعله كان يريد ان يخنق ذكرياته الحزينة .

فتركته يتكلم ، دون ان اصغى اليه .

واستطعنا بعد ساعة ان نستأنف سيرنا ، فقد هدأت الزوبعة ، وصفا اديم السماء . وفى الطريق ادرت الحديث مرة اخرى على بيلا وبتشورين . قلت :

— ولا تعرف ماذا حل بكازبتش ؟

فقال :

— لا اعرف ماذا حل به . ولكننى سمعت اخيرا من يقول ان هناك على طرفنا الايمن ، لدى شابسوغ * ، رجلا متهورا اسمه كازبتش ،

---

* احدى القبائل الجبلية .

يرتدى جلبابا احمر ، ويذهب ويجيء تحت وابل رصاصنا دون ان يستحث خطاه ، حتى اذا مرت رصاصة على مقربة منه ، حياها فى ادب . ولكننى لا اظن انه هو نفسه .

وافترقنا فى كوبى . فلقد ركبت عربة البريد ، ولم يستطع هو ان يتبعنى لكثرة احماله . وما كنا نظن اننا سنلتقى بعد ذلك . ولكننا التقينا . فان شئتم قصصت عليكم ذلك . انها لحكاية طويلة . . . ولكن اعترفوا ان لمكسيم مكسيمتش حقا فى تقديركم واحترامكم ، فعندئذ اكافأ كل المكافأة على قصتى التى قد تكون طويلة بعض الطول .

٢ ـ
مكسيم مكسيمتش

بعد ان استأذنت مكسيم مكسيمتش بالسفر ، اجتزت مضيقى تيريك وداريال عدوا ، افطرت فى كازبك ، ثم تناولت الشاى فى لارس ،

ووصلت الى فلاديقفقاس فى وقت العشاء .
سأعفيكم من وصف الجبال ، ومن عبارات الدهشة ، ومن رسم اللوحات ، فهى جميعا لا تمثل شيئا (ولا سيما لمن لم يكن يوما فى تلك المناطق) ، وسأعفيكم من الملاحظات التى لن يقرأها احد .

لقد نزلت الفندق الذى ينزله جميع المسافرين ، والذى ليس فيه احد تأمره بدراج او بحساء . فان العجزة الثلاثة الذين عهد اليهم بالبيت كانوا اكثر غباء او اكثر سكرا من ان نستطيع الحصول منهم على شيء .

وقال لى هؤلاء ان عليّ ان امكث هنالك ثلاثة ايام ، لان «الفرصة» لم تصل بعد من ييكاتيرينوجراد فلا يمكن ان تعود اليها . يا لها من فرصة ! . . والروسى لا تسليه نكتة باردة لذلك عمدت ، على سبيل التسلية ، ان ابسط على الورق قصة بيلا التى رواها لى مكسيم مكسيمتش ، دون ان يدور بخلدى انها ستكون بداية سلسلة طويلة من القصص : فانظروا كيف يمكن ان يكون لظرف طارئ تافه من سوء

العواقب ! . . ولكن لعلكم تجهلون ما هى «الفرصة» ؟ انها عدد من الخفراء هو نصف سرية من المشاة وقطعة من المدفعية تصاحب النقليات عبر كاباردا ، من فلاديقفقاس الى ييكاتيرينوجراد .

وضجرت فى اليوم الاول كثيرا . حتى اذا جاء الصباح من الغد ، رأيت عربة تدخل ساحة النزل . . . ها انه مكسيم مكسيمتش ! . . وتلاقينا كما يتلاقى صديقان قديمان . واقترحت عليه ان يشاركنى غرفتى ، فقبل بلا كلفة حتى ربت على كتفى ، وتجعد وجهه بابتسامة . ما اكثر ما كان مضحكا ! . .

وكان لمكسيم مكسيمتش معرفة عميقة بفن الطهى : فشوى دراجا ، وبدا له ان يرشها بماء الخيار المملح ، فكانت فكرة موفقة يجب ان اعترف اننى لولاه ما اكلت شيئا ساخنا . وساعدتنا زجاجة من خمر كاخيتيا على ان ننسى ان ليس ثمة الا طبق واحد . ثم اشعل كل منا غليونه وجلسنا ، انا بالقرب من النافذة ، وهو بالقرب من الموقد الذى اشعلناه لان النهار

كان باردا ورطبا . وصمتنا . وما عسى ان نقول ؟ لقد قص عليّ كل ما قد وقع له من حوادث شائقة ولم يكن لديّ انا ما اقصه عليه . ونظرت من النافذة . هذه بيوت صغيرة واطئة كثيرة تتناثر وراء الاشجار على طول تيريك الذى اخذ يزداد فى هذا المكان عرضا ؛ وهذا خط الجبال المسنن يبدو من بعيد ازرق اللون ، ووراءه يظهر كازبك بقبعته البيضاء كقبعة الكاردينال . واخذت اودع هذه الامكنة بينى وبين نفسى ، وكنت اشعر منذئذ بالاسف لفراقها . . .

وظللنا على هذه الحال مدة طويلة . كانت الشمس تختبئ وراء الذرى المتجلدة ، وكان ضباب بلون اللبن ينتشر فوق الوديان ، حين سمعنا جرس مركبة يرن فى الشارع ، وسمعنا صرخات السائقين . ودخلت ساحة النزل عدة مركبات تصحبها جماعة من الارمن قذرة ، وتتبعها عربة ذات مظلة خفيفة ، رشيقة ، انيقة ، يبدو انها صنعت فى الخارج . وكان يمشى وراءها رجل ذو شاربين طويلين ، يرتدى سترة من الطراز المجرى ، وتبدو عليه امائر الخادم

الراقى . يستحيل ان يخطئ المرء فى رتبته متى رأى طلاقته فى هز رماد غليونه وصراخه وراء السائق : لا شك انه خادم مدلل لسيد كسول ولا شك انه نوع من فيغارو روسى .

فهتفت به من النافذة :

— ايه ايها الصديق ، أهذه هى «الفرصة» تصل ؟

فنظر الىّ فى شىء من العجرفة ، واصلح ربطة عنقه ، واشاح بوجهه عنى . وكان يسير الى جانبه رجل من الارمن فاجابنى ، وهـو يبتسم ، بانها هى «الفرصة» حقا ، وانها ستسافر فى صباح الغد .

قال مكسيم مكسيمتش ، وهو يقترب من النافذة :

— هذا حسن !

ثم اضاف :

— ما اجمل هذه العربة ! لا شك ان صاحبها موظف كبير ، ذاهب الى تفليـــس للتفتيش . وواضح انه لا يعرف جبالنا . اؤكد لك ، غير مازح ، ان هذه العربة لن تمضى

بعيدا ، حتى ولـو كانت قـد صنعـت فى انجلترا . . . دعنا نعرف من هو . . .

وخرجنا من الدهليز . كان فى آخر الدهليز باب ينفتح على غرفة جانبية رأينا الخادم والسائق يحملان اليها الحقائب . صاح الرئيس :

— قل لى ، ايها الصديق ، لمن هذه العربة الجميلة ؟ . . هه ؟ . . انها لرائعة حقا ! . .

فدمدم الخادم ببضع كلمات لم نفهمها ، دون ان يلتفت الينا ، وهو يحل احدى الحقائب . فغضب مكسيم مكسيمتش ، فامسك بالرجل غير المؤدب من كتفه وقال :

— اسمع ، يا صاحبى ، اليك اوجـه الكلام .

— هذه العربة ؟ . . انها لسيدى . . .

— من هو سيدك ؟

— بتشورين . . .

— بتشورين ؟ هل قلت بتشورين ؟ . . آه ، يا الهى ؟ . . هل خدم سيدك فى القفقاس ؟ . . — هتف مكسيم مكسيمتش بذلك ، وهو يشدنى من كمى ، واشرقت عيناه ببريق من الفرح .

فاجابه الخادم بقوله :

— اظن انه كان فى القفقاس ، لست فى خدمته الا منذ مدة قصيرة . . .

— حسن ! واسمه جريجورى الكسندروفتش ؟ . . أليس كذلك ؟ . . ان سيدك صديقى ! — قال ذلك ثم هوى على كتف الخادم بضربة ودية جعلته يترنح .

فقطب الخادم ما بين حاجبيه ، وقال :

— من فضلك ، يا سيد ، انك تزعجنى .

— هوّن عليك يا صاحبى ! هل تعلم اننا كنا صديقين حميمين ؟ انا وسيدك ، نتخاطب بصيغة المفرد ؟ واننا كنا فى الخدمة معا . . . ولكن هو ، اين هو ؟ . .

فاجاب الخادم بان بتشورين نزل فى بيت الكولونيل ن . . . للعشاء وقضاء الليلة .

— ألا يأتى الى هنا المساء ؟ ألا تذهب انت الى هناك لامر من الامور ؟ قل له ، اذا ذهبت ، ان مكسيم مكسيمتش هنا نعم ، قل له ذلك فحسب . . . وسيعرف هو كل شىء . وسيكون اجرك على عنائك ثمانين كوبيكا .

فمط الخادم شفته شزرا يحتقر هذا الوعد الطفيف ، ولكنه رغم ذلك اكد لمكسيم مكسيمتش انه سيبلغ سيده الرسالة .

قال لى مكسيم مكسيمتش وقد اشرق وجهه :

— سيأتى مهرولا ، سترى . انا ذاهب الى الشارع انتظر . خسارة اننى لا اعرف ن . . .

ومضى فجلس على مقعد فى خارج البيت . وعدت انا الى غرفتى . لا بد ان اعترف باننى كنت ، انا ايضا ، انتظر مجىء بتشورين بفارغ صبر فلئن كانت الصورة التى ارتسمت فى ذهنى عن شخصيته من حديث الرئيس ليست بالصورة المشرّفة كثيرا ، فلقد كنت ارى فى بعض ملامح طبعه امارات بارزة تلفت النظر . وبعد ساعة من الزمان ، جاء احد العجزة يحمل السماور يغلى وابريق الشاى .

فصحت بمكسيم مكسيمتش من النافذة اقول :

— مكسيم مكسيمتش ، هل تريد شايا ؟

— لا ، شكرا ، ليس بى ظمأ .

— قدح واحد على الاقل ، لقد تأخر الوقت ، والجو بارد .

— لا ، لا ، شكرا . . .

— لك ما تريد !

وتناولت الشاى وحدى . وبعد عشر دقائق ، عاد الرئيس العجوز ، وهو يقول :

— انك على حق ، فمن الافضل ان احتسى قدحا من الشاى الساخن . ولكننى خفت ان افوّته . . . لقد ذهب الخادم منذ مدة طويلة ، لا شك انه حبس عن المجىء .

وتجرع مكسيمتش قدحا من الشاى بسرعة عظيمة ، ورفض ان يتناول قدحا آخر ، وعاد الى مقعده ، وقد بدت عليه علائم العصبية قليلا . كان واضحا ان عدم اهتمام بتشورين بالرئيس العجوز يحزنه اشد الحزن — لا سيما انه كان يحدثنى عن صداقتهما منذ قليل ، وانه كان قبل ساعة واحدة ، على يقين من ان بتشورين سيهرع اليه متى سمع اسمه .

انقضى وقت طويل ، وجاء الليل ، ففتحت النافذة مرة اخرى ، وناديت مكسيمتش قائلا ان ساعة النوم قد حانت . فدمدم ببعض الكلام ، فكررت قولى ادعوه الى النوم ، فلم

يجب بشيء .

تمددت على الاريكة ، وغطيت جسمي بمعطفي ، وتركت الشمعة مشتعلة . وسرعان ما غفوت . كان يمكن ان انام نوما هادئا لو لا ان مكسيم مكسيمتش ايقظني حين عاد في ساعة متأخرة من الليل . لقد رمى غليونه على المنضدة ، واخذ يذرع الغرفة ذهابا وايابا ، ثم حرّك النار في الموقد واستلقى اخيرا لينام . غير انني ظللت اسمعه ، خلال مدة طويلة ، يسعل ، ويبصق ، ويتقلب .

قلت له :

— هل يمنعك البق من النوم ؟

فقال وهو يطلق زفرة حرّى :

— ها ! نعم ، هو البق .

واستيقظت في صباح الغد مبكرا ، ولكن مكسيم مكسيمتش كان قد سبقني ، ووجدته في خارج البيت جالسا على مقعده .

قال :

— يجب ان اذهب الى الكومندان ، فارجوك اذا جاء بتشورين ان ترسل اليّ من يستدعيني .

فوعدته بذلك . فمضى يركض ركضا ، كأن اعضاءه قد استردت ، فجأة ، قوة الصبا ومرونة الشباب .

كان الصباح منعشا جميلا بين الاصباح . السحب المذهبة تبدو فوق الجبال كأنها سلسلة اخرى من الذرى الساحرة . وعلى الجهة الاخرى من الساحة الواسعة التى تمتد امام البيت ، يعج السوق بالناس ، لان اليوم احد . وأخذ يدور حولى صبية اوسيتيون حفاة ، يحملون على ظهورهم سلالا ممتلئة باقراص العسل ، فطردتهم شرّ طردة : كان فى رأسى شىء آخر . لقد بدأت اقاسم رفيقى الرئيس الطيب قلقه .

وما انقضى على ذلك عشر دقائق حتى ظهر فى الطرف الآخر من الساحة الشخص الذى كنا ننتظره . كان معه الكولونيل ن . . . صحبه حتى النزل ، ثم استأذنه ، وعاد الى القلعة . فارسلت احد العجزة فورا ، ينبىء مكسيم مكسيمتش بذلك .

وخرج الخادم الى لقاء بتشورين ، وابلغه انهم سيكدنون الخيل ؛ ثم مدّ اليه علبة

السيجار ، وتلقى اوامره ، ومضى . فاشعل السيد سيجارا ، ثم تثاءب مرتين ، وجلس على المقعد امام البيت . ينبغى لى الآن ان اصوره لكم .

انه متوسط القامة ، ويدل قده الدقيق وكتفاه العريضان على بنية قوية تستطيع ان تتحمل جميع متاعب الحياة المترحلة ، وجميع تبدلات الجو ، لم ينتصر عليها الافراط فى حياة المجون بالعاصمة ، ولا العواصف النفسية الداخلية . وكان يرتدى ردنجوتا من المخمل علاه شىء من الغبار ، ولم يربط من ازراره الا الزران الاخيران ، فكان يكشف عن قميص ناصع البياض ، يدل على ان الرجل من وجوه القوم . . . وكأن قفازيه قد صنعا خصيصا ليديه الصغيرتين الارستقراطيتين ، فلما خلع احدهما عجبت من نحول اصابعه الشاحبة . وكان يمشى بغير مبالاة . ولكننى لاحظت انه لا يهز يديه ، وهذه امارة من امائر الطبع الكتوم ، ذلك رأى اقيمه على ملاحظاتى الشخصية ، ولست اطمع فى ان تقبلوه قبولا اعمى . وحين جلس رأيت قامته المنتصبة

المستقيمة تنثنى كأن ليس له عمود فقرى . وكان وضع جسمه كله يكشف عن شىء من الضعف العصبى ، ويذكر بتلك المرأة الغندورة ذات الثلاثين عاما التى وصفها لنا بلزاك جالسة على مقعدها المزين بالمخدات ، بعد حفلة راقصة منهكة . اذا القيت عليه نظرة اولى لم تقدر انه تجاوز الثالثة والعشرين من عمره . ولكنك بعد ان تنعم فيه النظر تقدر عمره بثلاثين عاما . وكان فى ابتسامته شىء من معانى الطفولة وكان جلده ناعما رقيقا كأنه جلد امرأة . وكان شعره الاشقر المتجعد يحيط احاطة جميلة بجبينه الشاحب الذى يفيض نبلا والذى لا ترى فيه الا العين المنتبهة آثار غضون متصالبة لا شك انها تغدو اظهر واوضح فى ساعات الغضب والاضطراب . وكان شارباه وحاجباه سودا ، رغم ان شعره اشقر ، وهذا يدل على نبل المحتد ، كما يدل سواد اللبدة والذنب فى الحصان الاصهب على انه كريم العرق . ويجب ان اذكر ، اتماما للصورة ، ان انفه مقع قليلا ، وان اسنانه ناصعة ، وان عينيه كستناويتان . ولكننى احب ان اقول

بصدد عينيه بضع كلمات :

— اولا كانت عيناه لا تضحكان ، حتى حين يضحك ! هل اتيح لكم ان تروا هذا الامر العجيب ؟ . . ان هذا يدل اما على طبع ردىء ، واما على حزن عميق دائم . كانت عيناه تلتمعان ، من خلال اهدابه المغضية قليلا ، ببريق متوهج كتوهج الفوسفور ، ان صح التعبير . وليس هذا البريق انعكاسا لروح حارة او خيال ملتهب ؛ وانما هو بريق الفولاذ المصقول ، يبهر ولكنه بارد . وكانت نظراته متحركة ، ولكنها نافذة ثقيلة ، تخلف فيك شعورا مزعجا بانها نظرات تساؤل خفى ، وكان يمكن ان تحس فيها الوقاحة ، لولا انها هادئة لا تبالى . هذه ملاحظاتى ، ولعلها ما كانت لتدور فى خلدى لولا اننى كنت اعرف عن حياته بعض التفاصيل ، ورب شخص آخر يشعر شعورا مختلفا عن شعورى كل الاختلاف . ولكن احدا لم يحدثكم عنه غيرى ، فلا بد لكم من الاكتفاء بهذا الوصف الذى سقته . وينبغى ان اقول لكم ، فى الختام ، ان له شخصية جميلة . وان وجهه

لهو من الوجوه الفريدة التى تعجب نساء المجتمع الراقى على الخصوص .

وقرنت الخيول ، واخذ الجرس يرن فى رقابها ، واقترب الخادم من بتشورين مرتين ليقول له ان كل شيء مهيأ ولم يصل مكسيم مكسيمتش بعد . ومن حسن الحظ ان بتشورين الذى تعلقت نظراته بقمم القفقاس المسننة الزرقاء كان مستغرقا فى تفـكيره ولا يلوح عليه انه يتعجل المسير .

— اذا تفضلت بالانتظار قليلا ، فلسوف يسرك ان ترى صديقا قديما .

فقال بسرعة :

— ها ، نعم لقد قالوا لى ذلك امس . ولكن اين هو ؟ — فالتفت نحو الساحة ، فاذا انا ارى مكسيم مكسيمتش يركض باقصى سرعة يستطيعها . . . وما هى الا دقائق قليلة حتى كان الى جانبنا . كان يلهث ، وكان العرق يتصبب منه قطرات كبيرة ، وكانت خصلات من شعره الرمادى قد افلتت من تحت قبعته والتصقت بجبينه ، وكانت ركبتاه تصطكان . . . اراد ان يرتمى على عنق بتشورين ، ولكن بتشورين مد

اليه يده فى غير قليل من البرود ، وان يكن قد ابتسم له ايضا ابتسامة لطيفة . فتجمد الرئيس لحظة ، ثم شد على اليد الممدودة بكلتا يديه : لم يكن قادرا بعد على الكلام . قال بتشورين :

— ما اشد سروري برؤيتكم يا مكسيم مكسيمتش ! ولكن كيف صحتكم ؟

فدمدم العجوز يقول وقد اغرورقت عيناه بالدموع :

— وانت ؟ .. وانتم ؟ .. كم من السنين ... كم من الايام مضت ولم ير احدنا الآخر ! .. ولكن الى اين انتم ذاهبون ؟ ..

— انا ذاهب الى بلاد فارس ... والى ابعد من ذلك ايضا ...

— ولكن لا تذهبوا فورا ؟ .. انتظروا قليلا يا عزيزى ! .. ليس يعقل ان نفترق بمثل هذه السرعة ، بعد سنين كثيرة ...

فكان كل جواب بتشورين ان قال :

— آن اوان ذهابى ، يا مكسيم مكسيمتش .

— يا الهى ، يا الهى ! اين تسرعون هكذا ؟ ان فى نفسى امورا كثيرة يجب ان اقولها لكم ...

واسئلة كثيرة يجب ان اطرحها عليكم . . . اذن ، لقد قدمتم استقالتكم ؟ وماذا كنتم تفعلون خلال ذلك الوقت كله ؟

فاجاب بتشورين مبتسما :

— كنت اضجر !

— وهل تتذكرون حياتنا فى القلعة ؟ ما كان اجمل تلك البلاد للصيد ! هه ؟ لانكم كنتم تحبون الصيد انتم . . . ويلا ؟

فاصفر بتشورين قليلا ، وادار وجهه ، ثم قال :

— نعم ، اتذكرها !

ثم لم يلبث ان تثاءب تثاؤبا حمل عليه نفسه حملا . اراد مكسيم مكسيمتش ان يقنعه بالبقاء معه ولو ساعتين . قال : سنتناول غداءا ممتازا . عندى دراجان وخمر طيب من كاخيتيا . . . طبعا ، هو لا يعدل خمر جورجيا . . . ولكن هذا لا يمنع انه مشهور . . . وسنتحدث . . . وستقصون علىّ اخبار حياتكم فى بطرسبرج . . . أليس كذلك ؟

— اؤكد لكم يا عزيزى ماكسيم مكسيمتش انه ليس لدى ما اقصه عليكم . . . وداعا . . . آن

لى ان اسافر . . . اننى مستعجل . . . ثم اضاف الى ذلك ، وهو يتناول يده :

— شكرا على انكم ما نسيتمونى .

فقطب العجوز حاجبيه . . . كان حزينا غاضبا فى آن واحد ، وان حاول ان لا يظهر من ذلك شيئا . ودمدم متذمرا يقول :

— انسى ! انا لم انس شيئا ، انا . . . اذن لن احبسكم عن الذهاب . . . ما هكذا كنت اتصور ان القاكم . . .

فقال بتشورين وهو يعانقه فى مودة وصداقة :

— هيا ، هيا . . . انا لم ازل من كنته . . . ماذا تريدون ؟ ان على كل امرئ ان يسير فى طريقه . . . الله يعلم هل نلتقى بعد اليوم قط ! . . .

— قال ذلك وهو يصعد عربته ، وكان السائق قد جمع الاعنة وهمّ بالمسير .

فصرخ مكسيم مكسيمتش فجأة وهو يمسك بقبضة باب العربة ، يقول :

— انتظر ، انتظر ! لقد نسيت . . . اوراقك التى بقيت عندى . . . ما زلت احتفظ بها . . . كنت اظن اننى سألقاك فى جورجيا . . . اما

واننا التقينا هنا . . . فماذا اصنع بها ؟

— اصنع بها ما تشاء ! . . وداعا . . .

فصاح مكسيم مكسيمتش مرة اخرى :

— انت ذاهب اذن الى بلاد فارس ؟ . . ومتى تعود ؟ . .

ولكن العربة كانت قد ابتعدت ، فلوح بتشورين بيده كأنه يقول : قد لا نلتقى قط ، وعلام نلتقى ؟ . .

وانقضى وقت طويل ، واصبحنا لا نسمع رنين الجرس ولا قرقعة العجلات على ارض الطريق الحجرى ، ولكن العجوز المسكين ظل واقفا فى مكانه ، غارقا فى تفكيره . وقال اخيرا :

— نعم ، — كان يحاول ان يظهر بمظهر من لا يبالى ، ولكنى رأيت دموع الحسرة تلمع فى اهدابه ، — لا شك اننا كنا صديقين . . . ولكن هل بقى فى ايامنا هذه اصدقاء ؟ . . من انا بالنسبة له ؟ اننى لا املك ثروة طائلة ، ولا رتبة عالية . ثم اننا متفاوتان كثيرا فى السن . . . ها قد رأيته ، لقد اصبح على المودة منذ زيارته مرة اخرى لبطرسبرج . . . يا لها من عربة !

ياله من متاع ! وهذا الخادم المتعجرف ! . . .

قال ذلك وهو يبتسم ابتسامة ساخرة . ثم التفت الىّ يسألنى :

— ولكن قل لى انت ، ما رأيك فى كل ذلك ؟ . . ما ذهابه الى بلاد فارس ؟ . . اما انا فهذا يضحكنى ! . . كنت اعرف انه رجل طائش لا يمكن الاعتماد عليه . . . ولكن يؤسفنى مع ذلك ان ينتهى الى اسوأ العواقب . . . لا بد مما ليس منه بد . . . لطالما قلت له : ماذا تنتظر من اولئك الذين ينسون اصدقاءهم ؟ . .

ابتعد مكسيم مكسيمتش ، ليخفى عنى انفعاله ، ومضى الى الباحة يدور حول عربته ، ويتظاهر بانه يفحص عجلاتها ، ولكن عينيه كانتا تمتلئان بالدموع فى كل لحظة .

قلت له وانا اقترب منه :

— مكسيم مكسيمتش ، ما هى تلك الاوراق التى تركها لك بتشورين ؟

— والله لا اعرف شيئا ! لعلها مذكرات . . .

— وما عسى ان تصنع بها ؟

— ما اصنع بها ؟ سأحشو بها الخراطيش .

— بل اعطنى اياها .

فنظر الي دهشا ، ثم دمدم بين اسنانه ببعض الكلام ، واخذ يبحث فى طوايا حقيبته ، ثم اخرج منها دفترا ورماه على الارض فى ازدراء ، ثم اخرج دفترا ثانيا فثالثا فعاشرا صنع بها كلها مثلما صنع بالاول . كان فى غضبه شيء من غضب الاطفال ؛ فكنت اشعر بالحاجة الى الضحك واشفق عليه فى آن واحد .

قال :

— هى لك . اهنئك على هذه اللقطة . . .

— وهل استطيع ان اصنع بها ما اشاء ؟

— اطبعها فى الجرائد اذا احببت . . . اما انا فاسخر من ذلك كله . لست صديقه ولا قريبه . . . صحيح اننا عشنا مدة طويلة تحت سقف واحد . . . ولكنه ، على كل حال ، ليس الوحيد بين الناس . . .

فتناولت الاوراق ، وذهبت بها بسرعة ، خشية ان يعدل الرئيس عن رأيه . وجاء بعد قليل من يقول لنا ان «الفرصة» تسافر بعد ساعة فامرت بكدن الخيل . ودخل علىّ الرئيس وانا

اضع قبعتى على رأسى تهيؤا للرحيل فلم يبد لى انه يتهيأ للسفر . كان وجهه عابسا باردا .

— وانت يا مكسيم مكسيمتش ، ألا تسافر ؟

— لا .

— لماذا ؟

— لم ار المقدم بعد وهناك اشياء يجب ان انقلها اليه . . .

— ولكنك ذهبت اليه ؟

فقال مرتبكا :

— نعم ذهبت اليه ، ولكننى لم اجده فلم انتظره . . . فهمت كل شىء : لعلها اول مرة فى حياة العجوز يؤثر فيها **امرا شخصيا** ، كما يقال بلغة القراطيس ، على امور الخدمة . . . وانظر كيف كوفئ على ذلك ! قلت له :

— انه ليؤسفنى ، انه ليؤسفنى كثيرا ، يا مكسيم مكسيمتش ، ان نفترق بمثل هذه السرعة .

— نحن لسنا الا شيوخا جهالا . . . اما انتم فشباب من الطبقة الراقية . انتم اناس متكبرون ،. ترضون ان تعاشرونا تحت رصاص الشراكسة ، ولكنكم بعد ذلك تستحون ان تمدوا

ايديكم الينا .

— لا استحق هذا التقريع يا مكسيم مكسيمتش !

— آ . . . ما قلت هذا من اجلك ثم اننى اتمنى لك كل انواع السعادة ، وسفرا ميمونا !

كان فراقنا جافا بعض الجفاف . لقد غدا مكسيم مكسيمتش رئيسا عجوزا متذمرا لا اكثر . لماذا ؟ لان بتشورين مد اليه مجرد يده ، عن غفلة او لاى سبب آخر ، فى حين ان مكسيم مكسيمتش كان يريد ان يعانقه ، ان يثب الى عنقه . انه ليحزن المرء ان يرى شابا فى ريعان صباه يفقد اجمل آماله واحلامه حين ترفع عن بصره الغشاوة الوردية التى كان ينظر من خلالها الى افعال الناس وعواطفهم . ولكن الشاب يمكن ان يستبدل باوهامه القديمة اوهاما جديدة ، تنقضى كالاولى ، ولكنها عذبة كالاولى . اما فى سن مكسيم مكسيمتش فماذا يستبدل الانسان باوهامه القديمة ؟ لا بد ان يقسو القلب ، وان تنغلق النفس . . .

وسافرت وحدى .

يوميات بتشورين

مقدمة

علمت منذ مدة قصيرة ان بتشورين مات بعد عودته من بلاد فارس . ولقد سرني هذا النبأ كثيرا ، فهو يهب لى حق نشر هذه المذكرات . لقد استفدت منها فمهرت باسمى اثرا ليس لى . ارجو ان لا يؤاخذنى القارئ على هذه السرقة الادبية البريئة !

ويجب الآن ان اشرح قليلا الاسباب التى حفزتنى الى ان انشر فى الناس اسرارا شخصية لرجل لم اعرفه ابدا . لو كنت صديق ذلك الرجل ، لفهم كل انسان ما يتصف به الصديق الحقيقى من افشاء للاسرار خبيث . ولكننى لم ار الرجل الا مرة واحدة فى حياتى ، حتى لقد رأيته على قارعة الطريق . فانا اذن لا يمكن ان اكن له ذلك الكره الذى لا يفسر ، ذلك الكره الذى يتقنع بقناع الصداقة ، ولا ينتظر

الا ان يموت الشخص المحبوب او ان يفجع حتى يصب على رأسه الوان التقريع والنصح والسخر والاسف .

حين اعدت قراءة هذه المذكرات ، اقتنعت بصدق هذا الرجل الذى كشف عن ضعفه وعن نقائصه بلا رحمة . ورب قصة نفس من النفوس مهما تكن صغيرة تكون اشيق وانفع من قصة شعب بأسره ، ولا سيما حين تكون ثمرة ملاحظات اجراها على نفسه فكر ناضج ، ثم كتبها لا تدفعه الى كتابتها رغبة عابثة فى اثارة الدهشة والشوق فى انفس القراء . ان مما يعيب «اعترافات» روسو انه كان يقرؤها لاصدقائه .

فالرغبة فى نفع الناس هى وحدها التى دفعتنى اذن الى نشر هذه الاجزاء من يوميات القت بها الصدفة بين يدىّ . ولقد غيرت جميع الاسماء ، غير ان الاشخاص الذين يدور الكلام عليهم سيعرفون انفسهم من غير شك ، وقد يجدون فى هذه المذكرات تبريرا لافعال كانوا الى هذا اليوم يأخذونها على شخص فارق هذا العالم — اننا نغفر ما نفهمه ، نغفره دائما تقريبا .

لم اضمن هذا الكتاب الا ما له صلة باقامة بتشورين فى القفقاس . وقد بقى عندى دفتر كبير يروى قصة حياته كلها : وسأنشر هذا الدفتر ايضا ذات يوم ، ليرى الناس فيه رأيهم . ولكننى لا اجرؤ ان اتحمل هذه التبعة بعد ، وذلك لاسباب كثيرة هامة .

ولعل بعض القراء يريدون ان يعرفوا رأيى فى خلق بتشورين . ان عنوان الكتاب يتضمن الجواب . ورب قائل يقول : «ولكن فى هذا سخرية قاسية» . من يدرى ؟

١

تامان

لا شك ان تامان هى اسوأ مدينة صغيرة بين جميع المدن البحرية بروسيا . لقد كدت اموت فيها جوعا ، واكثر من ذلك انهم ارادوا اغراقى فى تلك المدينة . وصلت مع البريد فى ساعة متأخرة من الليل واوقف السائق احصنته المكدودة الثلاثة امام البيت الحجرى الوحيد الذى كان يقوم عند مدخل المدينة . كان الخفير ، وهو قوزاقى من البحر الاسود ، نائما نصف نوم ، فلما سمع رنين جرسنا ، استيقظ وصاح بصوت اجش : «من هذا ؟» ، وهرع نحونا وكيل ضابط مع ديسياتنيك * فشرحت لهما اننى ضابط ، واننى اسافر الى الجيش المقاتل . وطلبت منهما ان يجدا لى مكانا ابيت فيه . فقادنى الديسياتنيك ، وطاف بى المدينة كلها ، ولكننا لم نستطع

* عريف عشرة من القوزاق .

ان نجد عزبة واحدة خالية . وكان الجو باردا ، وكنت لم اعرف النوم منذ ثلاث ليال ، كنت مرهقا حقا ، فغضبت وصرخت :

— ايها اللص ، خذني الى حيث تريد ، خذني الى الشيطان ان شئت ، على شرط ان تجد مكانا !

فاجابني وهو يحك نقرته :

— بقى بيت واحد حقير ، لن يعجبك يا صاحب المعالى . انه مكان سيئ .

فامرته بان يقودنى اليه ، دون ان افهم معنى قوله على وجه الدقة . فاخذ يطوف بـى مدة طويلة فى ازقة صغيرة قذرة لا ارى فيها على يمينى وعلى شمالى الا جدرانا متهدمة حتى وصلنا الى بيت صغير على شاطئ البحر .

كان القمر بدرا ، يضيء سقف مسكنى الجديد ، وهو سقف من قصب ، ويضيء جدرانه البيضاء . وفى الباحة التى يحيط بها جدار ، كان يقوم بيت حقير مائل ، وهـو اصغر واقدم من البيت الاول ، ويقع تقريبا على حافة منحدر وعر ، ومن تحته تتلاطـم

الامواج الزرقاء القاتمة ، فتحدث هديرا لا ينقطع . كان القمر الهادىء يتأمل البحر الهائج الذى يطيعه . واستطعت ان ارى على ضوء القمر ، بعيدا عن الشاطئ سفينتين تنتصب اجهزتهما السوداء ساكنة على خط الافق الشاحب ، كأنها نسيج العنكبوت . قلت فى نفسى «ان فى المرفأ سفنا ، وسأسافر غدا الى غيليندجيك» .

وكان ناصفى * قوزاقيا من جنود الجبهة ، فامرته بان يأخذ حقيبتى وان يصرف العربة . ثم ناديت صاحب البيت : فلم اسمع جواباً . وقرعت الباب فلم اسمع جوابا ايضا . ما معنى هذا ؟ واخيرا خرج الىّ من الظلام صبى فى نحو الرابعة عشرة من عمره . قلت له :

— اين صاحب البيت ؟

فاجاب بروسية ركيكة :

— ليس له صاحب .

— كيف ؟ ليس له صاحب ؟

— نعم ، ليس له .

— وصاحبة البيت ؟

* الناصف هو الجندى التابع لضابط .

— ذهبت الى الطرف الآخر من المدينة .

— ومن يفتح لى الباب ؟

قلت ذلك وانا اضرب الباب بقـــدمى ، فانفتح من تلقاء نفسه . كانت تفوح من البيت رائحة الرطوبة . فاشعلت عود ثقاب ، وقربته من وجه الصبى ، فاذا انا ارى عينين بيضاوين . كان الصبى اعمى ، اعمى تماما منذ الولادة . كان واقفا امامى بلا حراك . فاخذت اتفرس فيه .

يجب ان اعترف اننى اتطير من جميع العمى ، والعور ، والصم ، والبكم ، والمقعدين ، ومن قطعت ايديهم ، ومن تحدبت ظهورهم ، الى آخر ما هنالك . فلقد لاحظت ان ثمة علاقة بين ظاهر الانسان ونفسه ، كأن فقـد المرء عضوا من اعضائه يؤدى الى فقدان ملكة من ملكاته .

اخذت اذن اتفرس فى وجه الاعمى . ولكن ما عسى ان يقرأ المرء فى وجه بلا عينين ؟ وكنت قد اطلت النظر اليه ، مشفقا على غير ارادة منى ، حين لاحظت ابتسامة خفيفة لا

تكاد ترى ، تطوف بشفتيه الدقيقتين ، فاحدثت في نفسي تأثيرا مزعجا الى ابعد حدود الازعاج : أهو يتظاهر بالعمى ؟ وقلت لنفسي ان المرء يستحيل عليه ان يصطنع غشاوة على عينيه (وما عسى ان يقصد من ذلك ؟) ، ولكن الشك في ذلك ظل يراودني ! وكثيرا ما تستبد بي ظنون كهذه . . . سألته اخيرا :

— أأنت ابن صاحب البيت ؟

— لا .

— فمن انت اذن ؟

— يتيم ، فقير .

— هل لصاحبة البيت اولاد ؟

— لا ، كانت لها بنت ، ولكنها مضت الى الطرف الثاني من البحر مع تترى .

— اى تترى ؟

— لا اعرف انا . هو تترى من القرم ، ربان زورق من كرتش .

ودخلت الكوخ . كان كل اثاثه مقعدين ومنضدة ، وصندوقا كبيرا بالقرب من الموقد ولا ايقونة على الجدار : هذا نذير سوء ! وكانت

ريح البحر تقتحم الغرفة من النافذة التى كسر لوح من زجاجها . فاخرجت من حقيبتى شمعة اشعلتها ، ثم أخذت ارتب اشيائى ، ووضعت سيفى وبندقيتى فى ركن من اركان الغرفة ، ووضعت مسدساتى على المنضدة ، وفرشت احد المقعدين بمعطفى وفرش القوزاقى بمعطفه المقعد الآخر وبعد عشر دقائق كان يغط فى نوم عميــق ويشخر . اما انا فلم استطع ان انام . كنت لا انفك اتصور فى الظلام الصبىّ ذا العينين البيضاوين.

وانقضى على ذلك ما يقرب من ساعة . كنت ارى القمر من النافذة يتلألأ وكانت اشعته تدخل الى البيت ، وتسقط على ارضه الترابية . وفجأة رأيت على الجانب المضىء من الارض خيال شخص يمر . فرفعت رأسى ونظرت من النافذة فرأيت شخصا يمر بسرعة ويختفى . كنت لا استطيع ان اصدق ان الشخص نزل منحدر الشاطئ ولكنه لا يستطيع ان يمضى الى مكان آخر . فنهضت واندسست فى جلبابــى ، ووضعت خنجرى فى زنارى ، وخرجت اسير بخطى محترسة فرأيت الاعمى مقبلا ، فالتصقت بالجدار ،

فمر على مقربة منى بخطى واثقة ولكنها محاذرة . كان يحمل تحت ابطه رزمة فلما انعطف نحو المرفأ اخذ يهبط ممرا ضيقا وعرا . فتبعته على مسافة منه ، بحيث اظل اراه فلا يغيب عنى ، وقلت لنفسى : «اليوم يتكلم الخرس ويبصر العمى» .

واخذت السحب تغشى القمر اثناء ذلك ؛ وكان الضباب يصعد من البحر ، فلا يكاد يرى المرء ، من خلاله ، الا التماع فانوس على مؤخرة السفينة القريبة ؛ وعلى الشاطئ يلتمع زبد الامواج التى تلوح كأنها تهم بابتلاعه فى كل لحظة . وبينما كنت اهبط المنحدر الوعر فى كثير من العناء ، رأيت الاعمى يتوقف لحظة ، ثم ينعطف يمينا . كان يسير قريبا جدا من الماء حتى كان يتراءى لى فى كل لحظة ان الامواج ستتلقفه وتمضى به . لا شك انها ليست نزهته الاولى ، لقد كان يمضى فى سيره على ثقة واطمئنان ، يتنقل من صخرة الى صخرة ، ويتحاشى الفجوات . ووقف اخيرا ، ورأيته كأنه يصيخ بسمعه الى صوت لا اعرف اى

صوت هو ، ثم جلس على الارض ، ووضع الرزمة التى كان يحملها . فاختبأت انا وراء نتوء من الصخر ، وكنت ارى حركاته جميعها . وما هى الا دقائق معدودة حتى لاح على الطرف الآخر شكل ابيض ، اقترب من الاعمى ثم جلس الى جانبه . فكانت الريح تنقل اليّ من حين الى حين بعض ما دار بينهما من كلام . قال صوت امرأة :

— ايها الاعمى ، ان الجو ردىء ولن يصل يانكو .

— يانكو لا يخشى العاصفة .

— الضباب فى تكاثف متزايد .

وكان فى صوت المرأة رنة من حزن .

— المرور بين حرس السواحل فى الضباب اسهل .

— واذا غرق ؟

— عندئذ تذهبين الى الكنيسة يوم الاحد بلا شريط حريرى جديد .

وكان صمت . ثمة شىء لفت نظرى : ان الاعمى الذى لم يكلمنى الا بلهجة روسية

ركيكة ، قد انطلق لسانه الآن بكلام روسى فصيح .

قال وهو يصفق بيديه :

— هل ترين ؟ لقد كنت على حق . ان يانكو لا يخشى البحر ولا الريح ولا الضباب ولا حرس الجمرك . اسمعى ! ليس هذا صوت اصطخاب الماء ، بل صوت مجدافيه الطويلين ، انا واثق من ذلك .

فوثبت المرأة واقفة ، واخذت تتفحص الافق قلقة . قالت :

— انت تخرف . لا ارى شيئا .

واعترف انني امعنت النظر ايضا فلم ار شيئا يشبه ان يكون قاربا . وانقضت عشر دقائق ، فاذا انا ألمح نقطة سوداء بين جبلين من الامواج . كانت النقطة تكبر تارة وتصغر تارة اخرى . انها قارب يرتفع بطيئا على الذرى المتحركة ، ثم يهبط سريعا وما ينفك يقترب من الشاطئ . لا شك انه جرىء جدا ذلك الشخص الذى تجاسر فى ليلة كهذه ان يشرع فى قطع مضيق طوله عشرون فرستا ، ولا شك ان الدافع الذى

حفزه الى ذلك خطير . وكنت ، وانا احدث نفسى بذلك ، اراقب القارب المسكين واجف القلب على غير ارادة منى . كان يغطس كالبطة ، ثم يتحرك مجذافاه بسرعة كأنهما جناحان ، فيخرج من الهوة وسط سبائخ الزبد . ولحظة لاح لى انه من اندفاعه سيرتطم بالشاطئ ويتمزق اربا اربا ، رأيته يستدير للموجة برشاقة ، ويدخل فى خليج صغير ، سليما لم يمسسه اذى . وخرج منه رجل متوسط القامة ، يضع على رأسه قلبقا تتريا من فرو الخروف . ولوّح بيده ، فأخذ الثلاثة يخرجون من القارب اشياء كثيرة ، بلغت من الكثرة اننى ما زلت الى اليوم اتساءل كيف لم يغرق بها القارب . وحمل كل منهم على كتفه حزمة كبيرة ، وابتعدوا على محاذاة الشاطئ ، وسرعان ما غابوا عنى . كان علىّ ان اعود الى البيت . ويجب ان اعترف ان هذه الحوادث قد احدثت فى نفسى شيئا من الاضطراب ، فكنت انتظر الصباح بفارغ الصبر .

ودهش القوزاقى كثيرا حين استيقظ فرآنى بثيابى ، ولكننى لم اشرح له سبب ذلك .

وظللت امتع طرفى ، من النافذة ، بجمال السماء الزرقاء تطوف فيها مزق من الغيوم ، وبشاطئ القرم ـ يلوح من بعيد خطا بلون البنفسج ، ويعلوه برج منارة ابيض فوق صخرة مرتفعة . ثم ذهبت الى قلعة فاناجوريا لاسأل قائدها متى استطيع ان اركب السفينة الى غيليندجيك .

ولكن القائد لم يستطع ان يجزم لى بشىء واسفاه ! فالسفن التى رأيتها فى الميناء ، بعضها لخفر السواحل ، وبعضها الآخر مراكب تجارية لم تشحن باى بضاعة بعد . وقال القائد :

ـ قد تصل سفينة البريد بعد ثلاثة ايام او اربعة ، وعندئذ نرى ما يكون . ـ فرجعت مكدر المزاج ، فرأيت القوزاقى ينتظرنى على عتبة الباب ، وقد ظهرت على وجهه علائم الاضطراب ، قال :

ـ الحالة سيئة ، يا صاحب المعالى !

ـ نعم يا صديقى ، يعلم الله متى نسافر من هنا !

فزادت هذه الكلمات قلقه ، وانحنى علىّ يقول بصوت خافت :

ـ هذا مكان مريب . لقد التقيت اليوم

بوكيل ضابط اعرفه ، وهو قوزاقى من البحر الاسود ، كان من مفرزتى فى العام الماضى ، فلما ذكرت له اين نسكن ، اجابنى بقوله : «هذا ، يا صاحبى ، مكان مريب . . . هؤلاء اناس مشبوهون ! . .» وهذا صحيح . فما هذا الاعمى الذى يذهب وحده الى السوق والى البئر والى الخباز ؟ . . يظهر انهم معتادون هنا على هذا .

— وهل رأيت صاحبة البيت اليوم ؟

— نعم لقد جاءت اثناء غيابك عجوز وابنتها .

— ابنتها ؟ ولكن ليس لها ابنه .

— ان لم تكن ابنتها ، فلست ادرى من تكون ؛ اسمع ، ان العجوز فى البيت .

ودخلت الكوخ فرأيت فى الموقد نارا كثيرة ، يطبخ عليها غداء فاخر لا يتناول مثله اناس فى مثل فقرهم المدقع . ولم تجب على جميع اسئلتى الا بانها صماء لا تسمع . ماذا اعمل ؟ التفت نحو الاعمى ، وقد جلس امام الموقد يغذى النار باغصان يابسة ، وقلت له وانا امسك باذنه : وانت يا اعمى النحس . ألا قلت لى

اين ذهبت البارحة تحمل رزمتك ؟

فأخذ الاعمى يتأوه ويبكى ويصرخ :

— اين ذهبت ؟ لم اذهب الى اى مكان... رزمة ؟ اى رزمة ؟

وسمعت العجوز فى هذه المرة ، فدمدمت تقول :

— لا يعرف الناس الا ان يلفقوا ! ماذا تريد من هذا الصبى البائس ؟ ماذا صنع ؟

فازعجنى هذا كله اخيرا ، فخرجت وقد صممت على ان اجد مفتاح السرّ .

وتلفعت بمعطفى اللبادى ، وجلست على حجر مسندا ظهرى الى جدار السياج . كان البحر يمتد امامى ، وكان لا يزال يضطرب بعاصفة الليلة البارحة ، وكان هديره الرتيب الذى يشبه جلبة مدينة تهم بالنوم يذكرنى بالسنين الخوالى ، فانتقل بفكرى الى الشمال ، الى عاصمتنا الباردة . وغرقت فى ذكرياتى ، فذهلت عن كل ما حولى . . . وانقضت على ذلك ساعة كاملة او يزيد ، ولاح لى فجأة اننى اسمع غناءا . نعم انه غناء . . . هى امرأة تغنى بصوت نضير .

ولكـــن من اين يأتى هذا الغنـــاء ؟ وارهفت سمعى . انه غناء غريب ، بطىء حزين تارة ، سريع نشط تارة اخرى . ونظرت حـــولى فلم ار احدا . وعدت ارهف السمع . لكأن هذه النبرات تهبط من السماء ؟ ورفعت بصرى الى فوق ، فلمحت على سقف البيت فتاة ترتدى ثوبا مخططا ، يتموج شعرها فى الهواء : انها لحورية من حوريات البحر حقا . وكانت تحمى عينيها من اشعة الشمس بيدها ، وتتفرس فى الافق البعيد ، ضاحكة مخاطبة نفسها تارة ، ومستأنفة غناءها تارة اخرى . وانى لاتذكر اغنيتها كلمة كلمة :

فى البحر الجميل
تسير السفن
السفن ذات الاشرعة البيض ،
طليقة كالرياح .

بين هذه السفن
يسير قاربى
قاربى الذى ليس له جهاز ،
وليس له الا مجذافان .

حين تهب الزوبعة
تطوى جميع السفن القديمة
اجنحتها
وتتفرق فوق الامواج .
اما انا فانحنى للبحر

قائلة :
«حذار ايها البحر الخبيث
ان تقلب قاربى ،
قاربى الملیء
بالف شیء ثمین
يدير دفته فى الظلام الدامس
رجل محنك» .

ودار فى خلدى فورا ان هذا الصوت هو الصوت الذى سمعته فى الليلة البارحة . فاذهلنى ذلك قليلا ، حتى اذا نظرت بعد لحظة الى السطح ، كانت الفتاة قد بارحته . . . وفجأة رأيتها تمر امامى راكضة . كانت تغنى اغنية اخرى ، وهى تصفق باصابعها ، ودخلت على العجوز بسرعة كأنها الريح . وسمعتهما تتشاجران . كانت هى تضحك فى قهقهة عالية ، وكانت

العجوز تصرخ غاضبة . وفجأة رأيت حوريتى تستأنف ركضها المتواثب ، حتى اذا اقتربت منى ، توقفت ، ونظرت فى عينـىّ كأن وجودى يدهشها ، ثم تحولت عنى فى غير احتفال ، وابتعدت نحو الشاطئ بخطى بطيئة . ولكنها لم تستقر هنالك ، بل ظلت تحوم حول البيت طوال النهار ، تثب وتغنى بلا هوادة . ما اغربها من فتاة ! لم يكن فى وجهها اى امارة من امارات الجنون . بالعكس ، كان فيما ترشقنى به عيناها النافذتان من نظرة متحدية ، قوة مغناطيسية لا استطيع وصفها . . . وكان يتراءى لى ان عينيها تنتظران فى كل لحظة سؤالا ، ولكننى ما اكاد افتح فمى حتى تولى هاربة ، وهى تبتسم ابتسامة متخابثة .

ما رأيت فى حياتى امرأة مثلها ، ابدا . لم تكن جميلة ، ولكن لى فى الجمال آرائى . انها اصيلة العرق . . . واصالة العرق هذه هـى الشىء الهام فى النساء كما فى الخيول جميعا . تلك حقيقة يرجع الفضل فى اكتشافها الى فرنسا الفتية . وهى تتجلى (اعنى اصالة العرق لا فرنسا

الفتية) فى المشية واليدين والساقين ، وفى الانف على وجه الخصوص . ان الانف المستقيم اندر فى روسيا من قدم صغيرة . ولاح لى ان مغنيتى لم تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها . ان مرونة قدها العجيبة ، وطريقتها الخاصة فى احناء رأسها ، وشعرها الكستناوى الطويل ، والتماع جلدها المتلوح عند الجيد والكتفين كبريق الذهب ، وانفها المستقيم خاصة ، كل ذلك قد سحرنى وملك علىّ عقلى ورغم اننى قرأت فى نظراتها المراوغة ما لا اعرف من معانى الشراسة والشبهات ، ورغم ان فى ابتسامتها شيئا لم اجد سبيلا الى فهمه ، فلقد اسرتنى اسرا قويا ، واطاش انفها الجميل صوابى . وتخيلت كأننى وجدت مينيون التى تصورها غوته ، وابتدعها خياله الالمانى الجامح . والحق ان بين الفتاتين لوجوها كثيرة من الشبه : انتقال مفاجئ من الحركة الصاخبة الى الهدوء الشامل ، كلام هو الالغاز ، سير متواثب ، غناء غريب . . .

فلما جاء المساء ، استوقفتها عند العتبة ، وجرى بيننا هذا الحديث :

— قولى يا بنتى الجميلة ما كنت تصنعين اليوم على السطح ؟

— ذهبت انظر من اين تهب الريح ؟

— ولماذا ؟

— لان الريح تأتى بالسعادة .

— وهل كانت اغنيتك تستدعى السعادة ؟

— السعادة تأتيك حيث تغنى .

— واذا اتتك اغنية بالشقاوة ؟

— الشقاوة تنقض السعادة . وبين الخير والشر خطوة .

— من علمك هذه الاغنية ؟

— ما علمنيها احد . ما يخطر ببالى ، اغنيه ، يسمعه من يجب ان يسمعه ، ومن لا يجب ان يسمعه لا يفهمه .

— وما اسمك ايتها المغنية الجميلة ؟

— سل عن اسمى من سمانى .

— ومن ذا الذى سماك ؟

— كيف تريد ان اعرف ذلك ؟

— ايتها الماكرة الصغيرة ! لا بأس . . . اننى عرفت عنك بعض الامور (لم يتغير وجهها ،

ولم تمطّ شفتيها ، كانني اقصد بكلامى غيرها) . اعرف انك ذهبت فى الليلة البارحة الى الشاطئ .

ثم اصطنعت كل ما استطيع من جدّ ، وقصصت عليها ما رأيته بالامس كاملا . كنت اظن انها ستضطرب . ابدا . لقد انفجرت تضحك مقهقهة .

— رأيت كثيرا ، ولكنك عرفت قليلا . . . وما عرفته ، فاحتفظ به لنفسك .

— واذا قصصت على القائد كل شيء ؟

كنت قد اصطنعت هيئة جادة بل قاسية . فهربت فجأة وهى تغنى ، كما يهرب العصفور من دغل حين يجفل . لقد جاءت كلمتى الاخيرة فى غير محلها . ولم يدر بخلدى ما عسى ان يكون لها من عواقب ، وساندم عليها فى القريب .

هبط الليل . فامرت صاحبى القوزاقى ان يسخن غلايتى كما كان يفعل فى المعسكر ، واشعلت الشمعة ، وجلست قريبا من المنضدة ادخن غليونى . كنت افرغ من احتساء القدح الثانى من الشاى حين سمعت فجأة صرير

الباب ، وسمعت ورائى حفيف ثوب ، ووقع اقدام خفيفة . فارتعشت والتفت ، فاذا هى حوريتى ! جلست امامى فى رفق ، دون ان تقول كلمة واحدة . ورفعت عينيها ، فرأيت نظرتها — لا ادرى لماذا — تفيض عاطفة ورقة ، وذكرتنى بواحدة من تلك النظرات التى سبق ان عبثت بحياتى فى كثير من الاستبداد والطغيان . لاح لى انها تنتظر ان اسألها ، ولكننى صمتّ وقد تملكنى اضطراب لا سبيل الى وصفه . كان وجهها قد اكتسى شحوبا يضرب الى الزرقة ، ويفضح ما بنفسها من قلق واضطراب . وكانت يدها تطوف على المنضدة بلا هدف ، ولاحظت انها ترتعش ارتعاشا خفيفا . . . وكان صدرها يعلو من حين الى حين ثم يتجمد كأنها كانت تحبس نفسها . وضقت ذرعا بهذه المهزلة فى آخر الامر ، واوشكت انْ اقطع حبــل الصمت بطريقة لا تخلو من غلظة ، اى بان اقدم لها قدحا من الشاى ، فاذا هى تنهض فجأة ، فتطبع على شفتىّ قبلة رطبة محرقة ، فزاغ بصرى ، ودار رأسى ، وعانقتها عناقا قويا ،

عناق فتى موله . ولكنها انسلت من بين يدى كالافعى ، وهمست فى اذنى تقول : «متى نام جميع الناس فى هذا المساء ، تعال الى شاطئ البحر» . ثم خرجت مسرعة كالسهم ، فقلبت الغلاية والشمعة التى كانت على الارض .

صاح صاحبى القوزاقى الذى كان قد استقر على فراشه وامل ان يستدفئ مما بقى من الشاى :

— ان بها جنا !

عندئذ فقط ، ثبت الى نفسى .

وبعد ساعتين على وجه التقريب ، حين صمت كل شىء فى المرفأ ، ايقظت القوزاقى وقلت له :

— متى سمعت طلقة مسدس ، فاسرع الى الشاطئ . — فجحظت عيناه ، وقال لى دون وعى :

— نعم يا صاحب المعالى .

ووضعت المسدس فى حزامى ، وخرجت . كانت تنتظرنى على حافة المنحدر ، وكانت ثيابها اخف من خفيفة . وكان شال صغير يلف جسمها اللدن .

قالت وهى تمسك بيدى :

— اتبعنى .

واخذنا نهبط . ما زلت اتساءل الى الآن كيف صنعت يومئذ حتى لم تُدقّ عنقى . فلما وصلنا الى تحت ، اتجهنا يمينا ، سائرين فى الممر الذى تبعت فيه الاعمى الليلة البارحة . ما كان القمر قد طلع بعد ، وليس فى قبة السماء الزرقاء القاتمة الا نجمتان صغيرتان تتلألآن كانهما مناران يهديان سراة الليل . وكانت الامواج ثقيلة تتعاقب بحركة رتيبة ، ولا تكاد تقوى على رفع القارب المنعزل الذى شد الى الشاطئ . قالت :

— لنصعد الى القارب .

فترددت قليلا ، لاننى لا احب النزهات العاطفية فى الماء كثيرا ، ولكن اوان التراجع كان قد فات ؛ فلقد وثبت الى القارب ، ففعلت مثلها ، ولم اشعر الا ونحن فى عرض البحر ، قبل ان ادرك ماذا يجرى . قلت لها غاضبا :

— ما معنى هذا ؟

فاجابت ، وهى تجلسنى وتطوقنى بذراعيها :

— معناه انني احبك . . .

وجعلت خدها على خدى ، فاحسست بزفراتها الحارة تلفح وجهى . وفجأة ، سمعت شيئا يسقط فى الماء . فمددت يدى الى حزامى فلم اجد شيئا . . . المسدس ! آ . . . لقد راودتنى شبهة رهيبة ، فصعد الدم الى رأسى والتفت فرأيت اننا بعدنا عن الشاطئ مسافة خمسين ساجين * على وجه التقريب ، وانا لا اعرف السباحة ! فاردت ان ادفعها عنى ، ولكنها تشبثت بثيابى كالهرة ، ثم اوشكت فجأة ان تلقى بى الى الماء بدفعة قوية . وترنح القارب . ولكننى صمدت . وكان بيننا عندئذ صراع مستميت . لقد ضاعف الغضب قواى ، ولكننى سرعان ما لاحظت اننى دون خصمى خفة ، فقبضت على يديها الصغيرتين وضغطتهما ضغطا شديدا ، وانا اقول لها :

— ماذا تريدين ؟

فقضقضت اصابعها ، ولكنها لم تصرخ . ان طبيعة الافعى فيها ، تتحمل وتتجلد . قالت :

* ساجين — وحدة لقياس الطول تساوى ٢،١٣ متر .

— لقد رأيت ، وستشى بنا !

واستطاعت بجهد كبير ان تقلبنى على حافة القارب ، فاصبح نصف جسمى ونصف جسمها يتدليان خارج القارب ، واصبح شعرها يلامس صفحة الماء . فاشرفنا على الهلاك . فاستندت بركبتى الى قاع القارب ، وامسكت غديرتها باحدى يدىّ ، وامسكت خناقها باليد الاخرى ، فتركت ثيابى ، فالقيتها الى البحر بمثل لمح البصر .

كان الظلام مخيما ، ورأيت رأسها بين الزبد مرتين ، ثم لم ار شيئا . . .

ووجدت فى قاع القارب نصف مجذاف قديم ، فاستطعت بجهود طويلة ان اصل اخيرا الى الشاطئ . وفيما كنت اسير الى الضفة لاعود الى منزلى حانت منى التفاتة الى الجهة التى جاء اليها الاعمى امس ينتظر بحّار الليل . وكان القمر قد بدأ يزحف فى السماء ، فتراءى لى شبح ابيض يجلس الى الشاطئ ، فاقتربت بخطى مختلسة يدفعنى حب الاطلاع ، وانبطحت على العشب ، عند ذروة المنحدر ، فكنت اذا مددت رأسى استطيع ان ارى كل ما يجرى تحت . ورأيت

حوريتى . . . لم يدهشنى ذلك كثيرا بل اسعدنى تقريبا . كانت تعقف شعرها الطويل الذى يتقاطر منه الزبد . وكان قميصها المبلل يرسم جسمها اللدن ، وصدرها الناهد . وما هى الا لحظة حتى ظهر فى الافق البعيد زورق يقترب من الشاطئ سريعا . فلما وصل خرج منه ، كالامس ، رجل بضع على رأسه قلبقا تتريا ، ولكن شعره قد قصّ على طريقة القوزاق ، وفى حزامه سكين كبيرة . قالت له :

— يانكو ، لقد ضاع كل شىء .

واستمر الحديث بينهما طويلا ، ولكن صوتهما كان خافتا جدا ، فلم استطع ان اسمع منه شيئا .

وقال يانكو اخيرا بصوت مرتفع :

— والاعمى اين هو ؟

قالت :

— لقد ارسلته . . .

وبعد بضع دقائق ظهر الاعمى يحمل على ظهره كيسا وضعوه فى الزورق . قال يانكو :

— والآن ايها الاعمى ، اسمع جيدا ما

اقوله لك . ستحرس المكان . . . هل تفهم ماذا اعنى ؟ . . ان هناك بضائع ثمينة . . . قل لـ . . . (لم اسمع الاسم) ان لا يعتمد عليّ بعد الآن ، فالحالة هنا سيئة . لن يرانى ابدا . اصبح الامر خطرا . سأمضى ابحث عن عمل فى غير هذا المكان . ولن يسهل عليه ان يجد رفيقا جسورا مثلى . قل له لو دفع مبلغا اكبر ، لما تركه يانكو . لن اعدم ان اجد عملا ، حيثما هبت ريح ، وهدر بحر .

ثم اردف يقول بعد لحظة صمت :

— انها لا تستطيع ان تبقى هنا ، فسوف آخذها معى . قل للعجوز انه آن لها ان تموت . . . ان تذهب الى جهنم ! وهى لن ترانا على كل حال .

قال الاعمى بصوت متوسل :

— وانا ؟

فكان جواب يانكو :

— وماذا تريد ان اصنع بك ؟

وفى اثناء ذلك كانت حوريتى قد وثبت الى الزورق واخذت تومئ لرفيقها ان يأتى ؛ فوضع

يانكو شيئا فى يد الاعمى ، وهو يقول :

— اليك ما تشترى به حلوى .

— هذا كل شىء ؟

— خذ ايضا .

وسقطت قطعة من النقد على الصخرة ترن . فلم يتناولها الاعمى . ووثب يانكو الى الزورق . كانت الريح تهب من الشاطئ فنشرا شراعا صغيرا ، ورأيتهما يبتعدان بسرعة . وفى ضوء القمر رقص شراعهما الابيض مدة طويلة بين الامواج المظلمة . كان الاعمى لا يزال جالسا على الشاطئ ، وفجأة سمعته يجهش منتحبا ، وظل يبكى طويـلا طويلا . . . احزننى ذلك . لماذا رمانى القدر فى هذه البيئة الهادئة ، بيئة هؤلاء **المهربين الشرفاء** ؟ لقد كنت كالحصاة سقطت فى نبع صاف فعكرته ، لقد عكرت عليهم هدوءهم ، وكدت اهوى الى القاع ايضا كالحصاة !

عدت الى مسكنى . فرأيت الشمعة تذوب عند المدخل ، فى طاس من الخشب ، ورأيت القوزاقى يغط رغم اوامرى فى نوم عميق قابضا على بندقيته بكلتا يديه . فتركته ينام ، وحملت

الشمعة ودخلت الى الغرفة . واحسرتاه ! ان صندوقي الصغير ، وسيفي ذا الغمد الفضي ، وخنجري الداغستاني الذي اهداه اليّ احد الاصدقاء ، كل ذلك قد اختفى . عندئذ فقط عرفت ماذا كان يحمل ذلك الاعمى اللعين على ظهره . فايقظت صاحبي القوزاقي بضربة خشنة ، وغضبت وزمجرت ، ولكن ما عساي اصنع ؟ ألا يكون من المضحك ان اشكو الى السلطات صبيا اعمى سرقني ، وفتاة في الثامنة عشرة من عمرها كادت تغرقني ؟ من حسن حظي انني اتيحت لي في الغد فرصة السفر فتركت تامان . اما ماذا صار اليه الاعمى البائس والعجوز ، فلا ادري . ثم وفيم تعنيني افراح الناس وآلامهم ، انا الضابط المترحل ، المكلف فوق ذلك بمهمة ! . .

نهاية القسم الاول

الفصل الثانى

تتمة يوميات بتشورين

٢

الاميرة مارى

١١ ايار .

وصلت امس الى بياتيجورسك ، واستأجرت بيتا يقع عند طرف المدينة ، على اعلى مكان ، بسفح جبل ماشوك ، حتى ان السحب تصل الى سقفى ايام العواصف . وحين فتحت نافذتى فى الساعة الخامسة من هذا الصباح امتلأت غرفتى برائحة الازهار النابتة فى الحديقة الصغيرة ؛ وكانت اغصان الشجر المزهرة تطل علىّ من النافذة ، وتنثر الريح على مكتبى فى بعض الاحيان شيئا من اوراق زهرها الابيض . انى لأرى من الجهات الثلاث منظرا رائعا . من الغرب ارى جبل بشتو ، برؤوسه الخمسة الضاربة الى الزرقة ، كأنه «آخر سحابة من سحب العاصفة المتبددة» * ، وفى الشمال ينتصب جبل ماشوك ، كأنه قبعة الفرو

* بيت من قصيدة بوشكين «السحابة» .

على رأس رجل من بلاد فارس ، ويحجب عنى كل ذلك الجزء من الافق . اما فى الشرق فالمنظر ابهى وادنى الى الفرح : فى الأسفل تمتد امامى زركشة المدينة الصغيرة ، الجميلة النظيفة ، واسمع خرير الينابيع ، ينابيع الاستشفاء ، واصوات الناس تتكلم لغات شتى . ووراءها الجبال تتدرج صاعدة ، وتزداد زرقة وابخرة كلما امعنت فى الصعود . وفى آخر الافق تمتد سلسلة الذرى الفضية يغطيها الثلج ، تبدأ بجبل كازبك وتنتهى بجبل الالبروز ذى القمتين . . . يا لها من فرحة ان يعيش الانسان فى بلد كهذا البلد ! ان نشوة مرحة لتسرى فى عروقى كلها ، الهواء نقى غض كقبلة طفل ، والشمس دافئة ، والسماء زرقاء — ماذا اريد على هذا من مزيد ؟ لا مكان للاهواء والرغبات والحسرات هنا . . . ولكن ها قد حانت الساعة ، يجب ان امضى الى نبع أليزابت : فقد قيل لى ان صفوة الناس التى جاءت للاستشفاء بالماء تلتقى هناك .

. . . .

سرت ، وانا اهبط الى مركز المدينة ، فى شارع كبير ، فالتقيت بجماعات من الناس عابسة ، تصعد الجبل فى بطء . ان معظمها اسر ملاكين كبار من السهوب ، هذا ما يلاحظه المرء فورا من اردية الازواج التى رثّت واصبحت لا تجارى الزىّ الحديث ، وكذلك من افراط نسائهم وبناتهم فى التزين . لا شك انهم يستطيعون ان يعدّوا على الاصابع جميع شباب مياه الاستشفاء لانهم نظروا الىّ مستطلعين فى غير قليل من اللطف ، غرتهم تفصيلة ردائي البطرسبرجية ، ولكنهم ما لبثوا ان اشاحوا بوجوههم فى استياء ، حين ابصروا على كتفى شارات ضابط من ضباط القتال .

اما زوجات القائمين على السلطات المحلية ، وهن اللواتى يكرمن مثوى الضيوف ، فقد كان استقبالهن الطف واجمل . كن يحملن فى ايديهن نظارات ذات سواعد ، ولا يلقين كبير بال الى البدلة العسكرية ، كالاخريات . لقد تعودن ان يلقين فى القفقاس قلوبا حارة تحت الازرار ذات الارقام ، وعقولا مثقفة تحت القبعات العسكرية

البيضاء * . ان هاته السيدات لطيفات جدا . وليس للطفهن انقضاء . ان لهن عشاقاً جدداً كل سنة وربما فى هذا سرّ لطفهن الذى لا ينضب له معين . وبينما كنت اصعد الدرب الضيق الذى يؤدى الى ينبوع اليزابت مررت بجمهور من المدنيين والعسكريين الذين يشكلون — كما عرفت فيما بعد — طبقة خاصة بين الذين يأتون الى هنا ينشدون الاستشفاء بالماء . انهم يشربون ولكنهم يشربون شيئا غير الماء وقلما يتنزهون وهم يغازلون الحسان بشكل عابر . وانهم يقامرون ويشكون من الضجر الذى يستولى عليهم . انهم متأنقون . فهم يصطنعون اوضاعا اكاديمية وهم يغطسون كؤوسهم المغلفة فى بئر الماء الكبريتى ؛ اما المدنيون فهم يضعون ربطات عنق زرقاء ، والعسكريون يكشفون عن تخريم قمصانهم بفك ياقة البدلة .

* يشير الكاتب الى الضباط سليلى الطبقة النبيلة ، الذين جردوا من رتبهم وارسلوا الى القفقاس منفيين لانهم شاركوا فى انتفاضة الديسمبريين ١٨٢٥ . كان الجنود الروس يضعون على رؤوسهم فى القفقاس قبعة بيضاء . وكان يشار الى رقم فوجهم على ازرار بدلتهم العسكرية .

انهم يتظاهرون باحتقار عميق لمنازل الاقاليم ، ويتنهدون اسفا على الصالونات الارستقراطية فى العاصمة التى حرموا من استقبالاتها .

ووصلت اخيرا الى البئر . . . ان على مقربة منه ، فى ساحة صغيرة ، بيتا ذا سقف احمر فيه الحمامات ، وبعده ممر مسقوف يتنزه فيه الناس حين تمطر السماء . وهؤلاء ضباط جرحى جلسوا على مقعد كبير ، وقد شحبت وجوههم وظهرت عليهم امارات الحزن ، ووضعت عكاكيزهم الى جانبهم . وهناك سيدات يذهبن ويجيئن فى الساحة الصغيرة بخطى سريعة بانتظار تأثير الماء فيهن . ان بينهن وجهين جميلين او ثلاثة . وفى الممرات المزروعة باشجار الكرمة التى تغطى سفح جبل ماشوك ، كانت تظهر من حين الى حين قبعات مزركشة هى قبعات النساء اللواتى يحببن العزلة اثنين اثنين ، لاننى المح دائما الى جانب هذه القبعات قلنسوة عسكرية ، او قبعة مدورة كريهة . اما عشاق المناظر الطبيعية فقد برزوا على الصخرة التى يقع عليها الجناح المسمى «معزف ايول» ، وينظرون الى جبل الالبروز

بنظارة مقربة . وكان بينهم مربيان مع تلاميذهما ، وفدوا الى المياه استشفاء من داء الخنازير .

وكنت الهث من التعب فتوقفت عند حافة الجبل ، واستندت الى زاوية بيت صغير ، واخذت اسرح طرفي فى هذه المناظر الخلابة ، فاذا بصوت اعرفه يهتف من ورائى :

— هه ، بتشورين ! أأنت هنا منذ زمان ؟

فالتفت ، فاذا هو جروشنيتسكى ، فتعانقنا . لقد عرفته اثناء احدى الحملات ، وقد اصيب برصاصة فى ساقه ، ووصل الى المياه قبلى باسبوع .

ان جروشنيتسكى جندى قضى فى الخدمة سنة واحدة لا اكثر . وهو يصرف غندرته الى ارتداء معطف جندى مصنوع من جوخ غليظ ويحمل صليب القديس جرجس ، وهو صليب يعطى للجنود من غير ذوى الرتب . انه فتى جميل ، ملوح الجلد ، اسود الشعر ، يحسبه من يراه اول مرة انه فى الخامسة والعشرين من عمره ، مع انه ما كاد يبلغ الواحدة والعشرين ؛ فاذا تكلم رمى رأسه الى الوراء ، وفتل شاربه فى كل لحظة بيده اليسرى ، لانه يستند فى اليمنى الى عكازه .

انه يتحدث بسرعة وتصنع : وهو من اولئك الناس الذين يملكون لكل ظرف من ظروف الحياة جملا متفصحة جاهزة ، ولا يهزهم الجمال البسيط ، ويرفعون لواء المشاعر النادرة ، والاهواء الرفيعة ، والآلام الفذة . فادهاش الناس هو لذتهم الكبرى ، والحالمات من بنات الاقاليم يفتتن بهم ايما افتتان ، حتى اذا طعنوا فى السن اصبحوا اما من ملاكى الاراضى الهادئين ، واما من السكيرين ، وقد يصبح احدهم هذا وذاك فى آن واحد . وكثيرا ما يتصف هؤلاء الناس بمزايا عالية ، ولكن لا فى الشعر ابـــدا . ولقـــد كان هوى جروشنيتسكى ان ينشد الشعر ، وكان لا ينضب معينه متى خرج الحديث عن نطاق الافكار العادية . ولم استطع يوما ان اناقشه . انه لا يجيب على اعتراضاتك ، ولا يصغى اليك ، بل ينتظر ان تتوقف عن الكلام ، حتى يندفع فى حديث طويل تظن ان له علاقة بما قلت ، فاذا هو استمرار لخطابه لا اكثر .

وهو انسان هجاء ، وكثيرا ما تكون لدعاته فكهة ، ولكنها لا تشتمل على حقد ، ولا تصيب

مقتلا ابدا . . . فلن يستطيع ان يقتل احدا بكلمة . وهو لا يعرف الناس ، لا يعرف اوتارهم الضعيفة ، لانه طوال حياته لم يهتم الا بنفسه ، وكان غايته ان يصبح بطل رواية . وقد اراد ان يلقى فى روع الناس انه لم يخلق لهذا العالم ، وانه ميسرّ لما لا ادرى من آلام خفية — ومن كثرة ما كرر ذلك على مسامع الناس اصبح يصدقه هو نفسه . من اجل هذا يرتدى معطفه الخشن ، معطف الجندى ، فى كثير من الاعتزاز والفخر . وقد ادركت انا هذه الحقيقة ، فهو لذلك لا يحبنى ، رغم ان علاقاتنا هى فى الظاهر من اقوى علاقات الصداقة . وهو يدعى الشجاعة والبسالة ، ولكننى رأيته اثناء القتال : كان يهز سيفه وهو يصرخ ، ويهجم مغمضا عينيه . ما هذه هى الشجاعة الروسية ! . .

وانا ايضا لا احبه . واشعر اننا سنصطدم يوما على ممر ضيق ، فتقع الطامة على واحد منا .

واذا وُجد اليوم فى القفقاس ، فلا شك ان ذلك كان نتيجة تعصبه الرومانسى . وانا على يقين انه فى صبيحة اليوم الذى ترك فيه قرية ابيه ،

قال لامرأة ما من الجيران ، وهو متجهم الوجه : انه لا يسافر للخدمة وكفى ، بل يسافر باحثا عن الموت ، لان . . . ولا شك انه اضاف يقول وهو يغطى عينيه بيده : «لا ، لا ، يجب ان لا تعرفى (او يجب ان لا تعرفن) ! لان نفسك بريئة نقية ، فقد تهلعين اشد الهلع اذا عرفت ! وفيم اقول لك السبب ؟ من انا بالنسبة لك ؟ هل تستطيعين ان تفهمينى ؟ . .» الى آخر ما هنالك .

ولقد قال لى هو نفسه : ان ما حمله على الالتحاق بفوج ك . . . سيبقى الى الابد سرا بينه وبين السماء .

على انه حين يطرح عنه قناعه التعيس . . . شخص ممتع مسل بعض الشىء . . . ومن الشائق ان يراه المرء مع النساء ، فلا شك انه عندئذ ينشر ريشه !

التقينا اذن كما يلتقى صديقان قديمان ، وسألته عن الحياة فى بياتيجورسك ، وعن الاشخاص الذين يجدر ان يعرفهم المرء ممن يعيشون فيها ، فقال وهو يتنهد :

— الحق اننا نعيش حياة خالية من الشعر . في الصباح نشرب الماء ونكون واهنين كجميع المرضى ، وفى المساء نشرب الخمر ونصبح ثقيلى الظل كسائر الاصحاء . وهناك نساء ، ولكن المرء لا يجد فى صحبتهن كبير متعة : يلعبن الورق ، ولا يجيدن التأنق فى الملبس ، ويتحدثن بلغة فرنسية رديئة . ولم يأت من موسكو هذا العام الا الاميرة ليجوفسكايا وابنتها ، ولكننى لا اعرفهما . ان معطف الجنود الذى ارتديه اشبه بخاتم البؤس ، وما يثيره من اهتمام الناس يثقل على نفسى كالصدقة .

فى تلك اللحظة مرت بنا سيدتان ذاهبتان الى البئر : اولاهما متقدمة فى السن قليلا ، والثانية صبية رشيقة خفيفة . لم استطع ان ارى وجهيهما المختبئين تحت القبعتين ، ولكن ملابسهما تلتزم ادق قواعد الذوق الانيق : فلا شىء زائد عن حدود الاعتدال . كانت الصغرى ترتدى فستانا gris de perles * ، ويحيط بعنقها الرشيق منديل خفيف من الحرير . وكان

* اشهب بلون اللؤلؤ .

حذاؤها العالى الاحمر ، يشد قدمها الدقيقة الى الكعب على اجمل صورة ، حتى ان اجهل الناس باسرار الجمال لا يمكنه متى رآه الا يصيح ، من الدهشة على اقل تقدير . وكان فى خطواتها الخفيفة ، على امتلائها بالنبالة ، شىء من العذرة والطهارة ، لا يمكن وصفه ، ولكن البصر يدركه . وحين مرت قربنا فاح منها عبق لا سبيل الى تفسيره ، عبق كالذى يخرج من رسائل حبيبة .

قال لى جروشنيتسكى :

— هى الاميرة ليجوفسكايا ، وابنتها مارى ، كما تناديها على الطريقة الانجليزية . هما هنا منذ ثلاثة ايام فقط .

— ها ، وعرفت اسمها ؟

قال وقد اصطبغ وجهه بحمرة الخجل :

— سمعته مصادفة . اعترف لك باننى لا احرص على ان اتعرف اليهما . فالذى يخدم فى الجيش يكاد يكون فى نظر هؤلاء الارستقراطيين المتعجرفين انسانا متوحشا ، لا يعنيهم كثيرا ان يكون هنالك عقل يفكر تحت القبعة المرقمة ، او قلب يخفق تحت معطف الجوخ الغليظ .

قلت مبتسما :

— مسكين هذا المعطف ! ولكن قل لى ، من هو هذا السيد الذى يتقدم نحوهما ويمد اليهما قدحا ، فى كثير من اللطف ؟

— هو رابيفتش ، رجل مفرط الاناقة من موسكو ؛ مقامر ، يُعرف ذلك فورا من السلسلة الذهبية الكبيرة المعلقة بصدّارته الزرقاء . وانظر الى هذه العصا الكبيرة ! لكأنها عصا روبنسون كروزيه ! ثم انظر الى لحيته ، والى شعره à la moujik *

— انت تحقد اذن على النوع البشرى كله .

— هناك ما يدعو الى ذلك . . .

— صحيح ؟

وفى اثناء ذلك كانت السيدتان قد غادرتا البئر ، فلما مرتا بالقرب منا رفع جروشنيتسكى صوته قائلا بالفرنسية ، وهو يصطنع مع عكازه وضعا دراميا :

– Mon cher, je haïs les hommes pour ne

---

* تسريحة على طريقة الفلاح الروسى .

pas les mépriser, car autrement la vie serait une farce trop dégoutante.*

فالتفتت الاميرة الصبية الجميلة ، وكافأت الخطيب بنظرة مستطلعة طويلة لا يمكن تعريف معناها ، ولكنها لم تكن نظرة ساخرة على كل حال . ولا اكتمكم انني في اعماق نفسي هنأته من صميم فؤادي .

قلت له :

— ان الاميرة ماري فاتنة . ان لها عينين مخمليتين ، نعم مخمليتين ، وانصحك باتخاذ هذا التعبير لنفسك اذا تكلمت عن عينيها فيما بعد . وان اهدابها تبلغ من الطول ان اشعة الشمس لا تنعكس في البؤبؤ . احب هذه الاعين التي ليس لها بريق . انها عذبة جدا . يحس المرء انها تلاطفه . . . على انني اعتقد ان ليس في وجهها من جمال غير هذا . ولكن هل اسنانها بيضاء ؟ هذا امر اساسي ! يؤسفني ان عبارتك المتنفخة لم تحملها على الابتسام .

---

* يا عزيزي ، انا اكره الناس كي لا احتقرهم ، والا اصبحت الحياة مسخرة تدفع الى كثير من الاشمئزاز .

فقال جروشنيتسكى مستاء :

— انك تتحدث عن امرأة جميلة حديثك عن حصان انجليزى .

فقلت محاولا ان اصطنع لهجته :

Mon cher, je méprise les femmes pour ne pas les aimer, car autrement la vie serait un mélodrame trop ridicule.*

وهنا ادرت له ظهرى وابتعدت ، وقضيت نحوا من نصف ساعة اتنزه فى شعاب الكروم بين صخور الكلس والجذوع . واشتدت الحرارة ، فاردت ان اعود الى بيتى ، فلما مررت بالقرب من النبع ، وقفت تحت السقيفة اتنفس فى ظلها ، فاتيح لى ان ارى مشهدا شائقا : الاشخاص قد توزعوا هكذا : الاميرة الام والمتظرف الموسكوبى جالسان على مقعد ، وقد استغرقا فى حديث يلوح خطيرا ؛ والفتاة التى لعلها فرغت منذ لحظة من شرب كأسها الاخيرة ، تسير حالمة بالقرب من البئر حيث يقف جروشنيتسكى . ولم

* يا عزيزى ، انا احتقر النساء كى لا احبهن ، والا غدت الحياة ميلودراما تدفع الى كثير من الضحك (بالفرنسية فى الاصل) .

يكن فى الساحة الصغيرة احد غير هؤلاء .

فاقتربت ، واختبأت وراء زاوية من السقيفة . وفى هذه اللحظة سقط كأس جروشنيتسكى على الرمل ، فانحنى يحاول التقاطه ، ولكنه لم يستطع ذلك بسبب ساقه المريضة . مسكين ! ما اكثر ما بذل من جهود وهو يستند الى عكازه ، دون ان يظفر بالكأس ! فى هذه اللحظة كان وجهه المعبّر ينم حقا عن الالم .

كانت الاميرة مارى قد رأت هذا كله خيرا منى .

فاندفعت نحو جروشنيتسكى خفيفة كعصفور ، وانحنت على الارض ، فتناولت الكأس ، ومدتها اليه بحركة لا نهاية لسحرها ، واصطبغ وجهها بحمرة شديدة ؛ ثم التفتت بسرعة الى جهة السقيفة ، فلما تأكدت من ان امها لم تر شيئا ، ارتد اليها هدوؤها فورا . وحين فتح جروشنيتسكى فمه ليشكر لها جميلها ، كانت قد ابتعدت . وبعد دقيقة خرجت من الرواق مع امها ورايفتش ، ومرت بالقرب من جروشنيتسكى ، وهى تتخذ هيئة الجد والوقار ، حتى انها لم تلتفت الى

وراء ، ولا لاحظت تلك النظرة المولّهة التى تابعها بها وهى تهبط الجبل الى ان غابت وراء زيزفونات الشارع . . . ثم لمحتُ قبعتها فجأة فى الشارع ، ورأيتها تدخل باب بيت من اجمل بيوت بياتيجورسك ، وكانت الاميرة تتبعها ، فلما وصلت الى الباب ، استأذنت رايبفتش .

عندئذ لاحظ الجندى المسكين وجودى .

قال وهو يضربنى بيده ضربة قوية :

— هل رأيت ؟ انها لملاك ! . .

قلت له اتكلف السذاجة :

— لماذا ؟

— انت اذن ما رأيت ؟

— بل رأيتها تناولك كأسك . ولو كان الحارس هناك لفعل ما فعلت ، ولاسرع الى ذلك اكثر منها ، لانه قد يأمل فى عطاء . ثم انها قد اشفقت عليك : كان وجهك يتجعد تجعدا رهيبا وانت تستند الى ساقك الجريحة . . .

— ألم يهززك ، فى تلك اللحظة ، ان ترى روحها تشع فى وجهها ؟

— لا .

لقد كذبت ، ولكننى كنت اريد ان احنقه . انى لاهوى المعاكسة بفطرتى ، وحياتى كلها لم تكن الا نسيجا من المتناقضات الحزينة الشقية بين عقلى وقلبى . يكفى ان ارى شخصا متحمسا حتى اصبح باردا كالثلج ، واعتقد اننى اذا عاشرت شخصا بارد العاطفة رخوا اصبحت من اشد الحالمين جموح هوى . ويجب ان اعترف ان شعورا مؤلما اعرفه من قبل قد حز فى قلبى قليلا فى هذه اللحظة . انه الغيرة . اقول ذلك بلا لف ولا دوران ، لاننى تعودت ان اعترف بكل شىء صراحة . ثم انه ليندر ان نجد شابا (اقصد شابا من الطبقة الراقية تعود على ان يتملق الناس غروره) يلتقى بامرأة جميلة ، وينتبه اليها خلسة ، ثم لا يؤذيه ان يراها ، على حين فجأة ، تؤثر عليه ، ايثارا واضحا ، شخصا آخر لا تعرفه اكثر مما تعرفه هو .

وهبطنا الجبل صامتين ، ومررنا فى الشارع امام البيت الذى غابت فيه الحسناء . لقد كانت جالسة الى النافذة . فشدنى جروشنيتسكى من كمى ، وارسل اليها نظرة من تلك النظرات ،

العاطفية المضطربة فى آن واحد ، التى ليس لها فى النساء كبير تأثير . اما انا فصوبت اليها نظارتى . فرأيت ان نظرة جروشنيتسكى تجعلها تبتسم ، وان نظارتى الوقحة تغضبها كثيرا : كيف يجرؤ ضابط يخدم فى القفقاس ان يسدد نظارته الى اميرة من موسكو ؟ . .

١٣ ايار .

فى هذا الصباح اتى الىّ الطبيب . ان اسمه فرنر ، ولكنه روسى . وهل فى هذا عجب ؟ لقد عرفت المانيا كان يدعى ايفانوف .

ان فرنر شخص فذ فى أكثر من ناحية . انه ريبى مادى ، كسائر الاطباء على وجه التقريب . وهو الى ذلك شاعر — اقول هذا جادا لا هازلا : هو شاعر دائما فى اعماله ، واحيانا فى اقواله ، وان لم ينظم فى حياته بيتين من الشعر . لقد درس جميع اوتار القلب الانسانى ، كما تدرس الاعصاب فى جثة تشرح ، ولكنه لم يجن من معرفته اى فائدة يوما ، كما يتفق لعالم كبير

فى التشريح ان لا يشفى من حمى ! وكان من عادة فرنر ان يسخر من مرضاه خفية ، ولكننى رأيته يبكى وهو ينحنى على جندى يحتضر . . . كان فقيرا ويحلم بالملايين ، ولكنه ما كان ليفعل «الامر» طمعا فى مال . قال لى يوما انه يؤثر ان يخدم عدوا على ان يخدم صديقا ، لان فى خدمة الصديق شيئا من بيع الاحسان ، فى حين ان الكره يزداد على قدر نبل الخصم . وكان سليط اللسان فى اغتياب الناس : اكثر من رجل طيب احاله هجاؤه فى اعين الناس غرا احمق . وقد اشاع عنه اطباء المياه ، خصومه الحاسدون ، انه يصور مرضاه تصويرا كاريكاتوريا ، فاستاء المرضى منه ، وكادوا ينقطعون جميعا عن استشارته . وحاول اصدقاؤه ، اعنى جميع الممتازين ممن يخدمون فى القفقاس ، ان يردوا الى الناس ثقتهم به ، بعد ان تزعزعت ، ولكنهم لم يستطيعوا الى ذلك سبيلا .

كان من اولئك الناس الـذين يزعـجـك منظرهم اول مرة ، ولكنه يعجبك بعد ذلك ، متى عرفت عيناك ان تكتشف فى ملامحه

المتنافرة روحا مجربة نبيلة رفيعة . لقد رأينا نساء يحببن رجالا مثله حبا مجنونا ، ولا يبادلن دماماتهم بجمال انضر الشباب عودا وازهاهم وردا ، كأنديميون * . يجب ان نعترف للنساء بهذه الميزة ، وهى انهن يدركن جمال النفس بالغريزة ، ولعل هذا هو السبب فى ان رجلا مثل فرنر يحبهن ايضا اعنف الحب .

كان فرنر قصير القامة ، نحيلا ، رهيفا ، كطفل . وكانت احدى ساقيه اقصر من الاخرى ، كبايرون . وكان رأسه يبدو كبيرا بالقياس الى جسمه . وكان شعر رأسه قصيرا فلو رأى عالم من علماء الجمجمة ما يظهر فى جمجمته العارية من نتوءات ، لادهشه هذا التزاوج العجيب بين ميول متعارضة اشد التعارض . وان عينيه الصغيرتين السوداوين اللتين لا تستقران على حال من القلق ، تحاولان ان تسبرا اغوار فكرك . وترى من ملبسه انه ذو ذوق ، وانه يعتنى بهندامه ، قفازه الضارب الى الصفرة يغطى يديه الصغيرتين العصبيتين ،

* انديميون — هو شاب فى القصص اليونانية القديمة يرمز الى الشباب والجمال الخالدين .

ورداؤه وربطة عنقه وصدارته سوداء اللون دائما . ولقد لقبه الشباب باسم مفستوفيليس * . فكان يتظاهر بالاستياء من ذلك ، ولكن هذا اللقب كان يتملق غروره فى اعماق نفسه . لقد تفاهمنا بسرعة . وانعقدت بيننا اواصر التعارف ، اقول التعارف ولا اقول الصداقة ، لاننى فى حقيقة الامر عاجز عن الصداقة ، ذلك لان احد الصديقين لا بد ان يكون عبدا للآخر ، ولو ان احدا منهما لا يريد ان يعترف بذلك لنفسه فى كثير من الاحيان . وانا امرؤ لا يمكن ان اكون عبدا ، كما ان القيادة متعبة فى هذه الحال ، اذ لا بد لمن يقود من ان يجيد الخداع . ثم اننى املك خدما ومالا ، فما لى ولهذا كله . . .

واليكم كيف تعارفنا : لقد لقيت فرنر فى س . . . ، فى حلقة من الشباب غفيرة صاخبة ؛ ودار الحديث فى آخر السهرة فلسفةً وميتافيزيقا . كنا نتحدث عن العقائد ، وكان لكل منا عقائده التى تختلف عن عقائد الآخرين .

---

* هو اسم الروح الشريرة فى الحكايات الالمانية القديمة ، وربما يقصد ليرمونتوف هنا شخصا من مسرحية غوته «فاوست» .

قال الدكتور :
ــ اما انا فلا اعتقد الا بشيء واحد . . .
ظلت تدفعني الرغبة في معرفة رأى هذا الشخص الذى ظل الى ذلك الحين صامتا :
ــ ما هو هذا الشيء ؟
قال :
ــ انني سأموت في ذات صباح ، قريب او بعيد .
قلت :
ــ انا اغنى منك . . . لانني اعتقد بشيء آخر ايضا : هو انني في ذات مساء مشؤوم ولدت .
ووجد جميع الناس ان ما نقوله سخف . ومع ذلك لم يقل احد منهم كلاما اقرب منه الى العقل . ومنذ ذلك الحين تميزنا كلانا عن العامة . وكنا نلتقى كثيرا ، فنتجاذب اطراف الحديث في شؤون مجردة جادين ، الى ان لمحنا في ذات لحظة ان كلا منا يتلاعب بالآخر ، فنظر كل منا الى صاحبه نظرة صارمة ، كما كان يفعل العرّافون الرومانيون ، على ما

يزعم شيشرون ، ثم انفجرنا ضاحكين . . . وظللنا نضحك مدة طويلة ، ثم افترقنا ، وقد سرّ كل منا بهذه السهرة .

كنت مستلقيا على اريكة ، انظر الى السقف وقد وضعت يدى تحت عنقى ، حين دخل فرنر الى غرفتى . فجلس على احد المقاعد ، بعد ان وضع عصاه فى ركن من اركان الغرفة ، وابلغنى وهو يتثاءب ان الجو حار فى الخارج ، فاجبته بان الذباب يزعجنى ؛ ثم صمتنا .

قلت له بعد لحظة :

— لاحظ يا عزيزى الدكتور ان الدنيا تصبح مملة اذا خلت من الحمقى . انظر : نحن هنا رجلان ذكيان ، نعلم مقدما اننا نستطيع ان نتناقش فى كل امر الى غير نهاية . . . ونحن لذلك لا نتناقش فى اى امر . ان كلا منا يعرف تقريبا جميع ما يدور فى رأس الآخر من افكار خفية . ورب كلمة واحدة هى عندنا قصة برمتها . اننا نرى بذرة كل عاطفة من عواطفنا من خلال جميع الحجب . وما هو محزن يتراءى لنا مضحكا ، وما هو مضحك يبدو لنا محزنا ،

ويمكن القول على وجه العموم اننا لا نحفل بشيء ، غير انفسنا . لذلك لا يمكن ان يقوم بيننا تبادل في العواطف والافكار . نحن نعرف الواحد عن الآخر كل ما نريد ان نعرفه ولا نريد ان نعرف اكثر من ذلك ، وليس لنا اذن الا مخرج واحد : هو ان نتبادل قصّ الحكايات . فهات قصّ عليّ حكاية من الحكايات .

وتعبت من هذا الخطاب الطويل ، فاغمضت عيني ، واخذت اتثاءب ، فقال لي الدكتور بعد لحظة من تفكير :

— في كلامك الملتبس ، مع ذلك ، فكرة !

— بل فكرتان !

— قل لي الاولى اقول لك الثانية .

— ابداً .

قلت ذلك وانا انظر الى السقف وابتسم بيني وبين نفسي .

قال :

— انت ترغب في مزيد من المعلومات عن شخص وافد الى المياه ؛ وانا اعرف من هو ذلك الشخص ، لانهم طلبوا معلومات عنك هناك .

— دكتور ، يستحيل علينا حتما ان نتحادث : ان كلا منا يقرأ ما بنفس الآخر .

— اليّ الآن بالفكرة الثانية .

— الفكرة الثانية هى هذه : كنت اريد ان تقص انت شيئا عليّ ، اولا لان الاستماع لا يتعب كما يتعب الكلام ؛ ثانيا لان ذلك لا يورطنى فى ان اقول اكثر مما يجب ان اقول ؛ ثالثا لان المرء يستطيع بالاستماع ان يلم باسرار غيره ؛ رابعا ، لان الاذكياء من امثالك يؤثرون ان يكون امامهم مستمعون لا محدثون . ولننتقل ، بعد ذلك ، الى الموضوع . ما الذى قالته لك الاميرة الام عنى ؟

— أأنت واثق انها الام . . . لا البنت ؟

— واثق .

— لماذا ؟

— لان البنت سألت عن جروشنيتسكى .

— انت فى النفاذ الى الامور صاحب موهبة عظيمة . لقد قالت الفتاة انها متأكدة من ان هذا الشاب الذى يرتدى معطف ضابط حُرم من رتبته على اثر مبارزة . . .

— ارجو ان تكون قد تركت لها هذا الوهم الممتع !

— طبعا .

فهتفت فرحا :

— لقد وجدنا العقدة . وسنعنى بعد الآن بالحل الذى ستنتهى اليه المهزلة . يأبى القدر ان يتركنى الضجر ، هذا واضح .

قال الدكتور :

— احس سلفاً أن جروشنيتسكى المسكين هذا سيكون ضحيتك . . .

— تابع كلامك يا دكتور .

— قالت الام ان وجهك ليس غريبا عليها . . . فقلت لها لعلك رأيته يا سيدتى ببطرسبرج ، فى المجتمع . . . وذكرت لها اسمك . . . كانت تعرف اسمك . يظهر ان قصتك اثارت هناك كثيرا من الجلبة . واخذت الاميرة تقص علىّ مغامراتك ، ولا شك انها اضافت الى اقوال الناس تعليقات من عندها . . . وكانت ابنتها تصغى اليها فى كثير من الاستطلاع ؛ حتى اصبحتَ فى خيالها بطلا من ابطال الروايات . . . ولم اكذب شيئا مما

قالته الاميرة ، رغم علمي بان ما تقوله هراء سخيف .

فهتفت وانا امد يدى ليصافحها :

— انت صديقى !

فشد الدكتور على يدى وقد بدا فى وجهه التأثر ، وقال :

— اذا شئت قدمتك اليها . . .

فقلت وانا اضرب كفا بكف :

— عفوك . . . هل يقدم الابطال ؟ انهم يُعرفون حين ينقذون حبيبتهم من موت محقق . . .

— هل تنوى حقا مغازلة الاميرة الصغيرة ؟

— ابدا ، ابدا . ها أنا اظفر اخيرا يا دكتور : انك لا تفهمنى .

وقلت بعد لحظة من صمت :

— ويؤسفنى ذلك . . . اننى لا ابوح ابدا باسرارى ، بل احب كثيرا ان تُحزر حزرا ، حتى استطيع ان انفيها متى اردت . ولكن يجب ان تصف لى الام وابنتها ، وان تقول لى من هما .

— اولا ، الام هى امرأة فى الخامسة والاربعين من عمرها ، جيدة المعدة ، ولكنها

فاسدة الدم ، على خديها بقع حمراء . قضت فى موسكو النصف الثانى من عمرها ، فسمنت هناك من قلة العمل وترهلت . وهى تحب الحكايات البذيئة ، وقد تقول هى نفسها اشياء جريئة ، حين لا تكون ابنتها هناك . لقد قالت لى ان ابنتها عذراء كحمامة . وما شأنى انا فى هذا ؟ وددت لو اجيبها : «اطمئنى بالا ، فلن اقول هذا لاحد» . الام تستشفى من الروماتزم ، والبنت الله اعلم بما تستشفى منه ! ولقد نصحت لهما بان تشرب كل منهما كأسين من الماء الكبريتى فى اليوم ، وان تستحما بالماء المعدنى مرتين فى الاسبوع . ويظهر ان الام لم تتعود الامر والنهى ؛ وهى تفيض احتراما لذكاء ابنتها ، ولثقافة ابنتها ، التى قرأت بايرون بالانجليزية كما انها تعرف الجبر . يظهر ان الفتيات بموسكو اندفعن فى ميدان العلوم ؛ يمينا انهن ليحسن صنعا ! فالرجال ، هنا ، على وجه العموم ، ليسوا على حظ وافر من الظرف ، ولا شك ان المرأة الذكية لا تطيق ان تلهو معهم . والام تحب الشباب كثيرا ، اما ابنتها فتنظر اليهم فى

شيء من الاحتقار : تلك عادة من موسكو ! هناك لا يستملحن الا العقول الذكية ذات الاربعين عاما .

— هل كنت بموسكو يا دكتور ؟

— نعم ، كان لى فيها زبائن .

— كمّل .

— اعتقد اننى قلت كل شيء . . . ها ! نسيت : يبدو ان الصبية تحب حديث العاطفة والهوى وما الى ذلك . ولقد قضت شتاء ببطرسبرج ، فلم تسرّ فيها ولا سيما فى مجتمع الاكابر : يظهر ان الناس استقبلوها هناك استقبالا باردا .

— ألم تر عندهما اليوم احدا ؟

— بلى . كان عندهما شخص من الحاشية ، وضابط من الحرس شديد التبهرج ، وسيدة وصلت منذ قريب ، تمت الى الاميرة بقرابة من ناحية زوجها ، سيدة جميلة جدا ، ولكنها تعانى مرضا شديدا فيما يبدو . . . ألم تلقها عند البئر ؟ انها شقراء ، متوسطة القامة ، متسقة القسمات ، شاحبة اللون كالمصدورين ، وعلى خدها الايمن شامة سوداء . لقد خطف وجهها بصرى ، فانه

معبر جدا .

فدمدمت بيني وبين نفسي :

— على خدها شامة ؟ أهذا ممكن ؟

فنظر اليّ الدكتور ، وقال مفخما كلامه ، وهو يضع يده على قلبي :

— انت تعرفها !

هذا صحيح ، ولقد اشتدت خفقات قلبي . قلت له :

— انت الآن المنتصر ، ولكنني اعتمد عليك ، لا تفضحني . انني ما رأيتها بعد ، ولكنني ابصر في هذه الاوصاف ، يقينا ، وجه امرأة احببتها منذ زمن بعيد . فلا تأت على ذكرى بكلمة ، واذا سألتك فحدثها عني بسوء .

فقال فرنر وهو يهز كتفيه :

— لك ما تريد .

فلما ذهب الدكتور شعرت بحزن شديد يقبض صدري . أهي الصدفة تجمعنا مرة اخرى في القفقاس ، ام انها تعمدت ان تجئ الى هنا ليقينها بانها ستلقاني ؟ وما عسى ان يكون لقاؤنا ؟ ولكن ، اولا ، أهي هي حقا ؟ انني

ما اخطأت يوما فيما اوجس من مشاعر ! ما من رجل يسيطر عليه الماضى كما يسيطر عليّ . فان ذكرى الحزن او الفرح لتترجع فى نفسى ترجعا اليما ، وتخرج منها دائما نفس الاصوات . . . هكذا شاءت الاقدار ان اكون . لا انسى شيئا ، لا انسى شيئا .

بعد الغداء ، فى نحو الساعة السادسة ، ذهبت الى الشارع الكبير . كان الشارع يغص بالناس ، وكانت الاميرة وابنتها جالستين على احد المقاعد ؛ وكان الشباب يحومون حولهما . فاتخذت لى مكانا على مقعد آخر يبعد قليلا عن ذلك المقعد . واستوقفت ضابطين اعرفهما من د . . . واخذت اقص عليهما حكاية . . . ويظهر ان الحكاية كانت هزلية كثيرا ، فلقد اخذا يضحكان كالمجانين . واجتذب حب الاستطلاع الى حلقتنا بعض من كانوا يحيطون بالاميرة . وشيئا فشيئا هجرها الجميع وانضموا الينا . لم ينضب معينى . كانت حكاياتى فكهة الى درجة الهذيان ، وكان تندرى على من يمر امامنا من اشخاص متفردين خبيثا الى حد الجنون . . . وظللت افكه

جمهوری وابهجه الى ان غابت الشمس . وقد مرت الاميرة الصغيرة من امامی عدة مرات ، وهی تمسك بيد امها ، يصحبهما عجوز قصير اعرج . وكان بصرها حين يقع علیّ فی كل مرة يعبر عن الغيظ ، وان حاولت ان تظهر مظهر اللامبالی .

وسألت شابا عاد اليها على سبيل الادب :

— ماذا كان يقص عليكم ؟ لا شك ان حديثه كان شائقا ؟ لعله كان يحدثكم عن مآثره فی المعارك ؟ . .

قالت ذلك بصوت عال ، وربما كانت تنوی ان تغمز من قناتی . قلت فی نفسی : «هاها . . . ها انت تغضبين اذن ايتها الاميرة العزيزة . . . انتظری ، فلسوف ترين ما هو ادهی من ذلك» .

وكان جروشنيتسكی يتبعها كحيوان كاسر ، ولا يفارقها بنظره . اراهن على انه سيطلب ان يقدمه احد الى الاميرة غدا . وسيسرها ذلك كثيرا ، لانها ضجرة .

١٦ ايار .

لقد تقدمت اعمالى خلال يومين تقدما هائلا . ان الاميرة الصغيرة حانقة عليّ ، ما فى ذلك ريب . حتى لقد نُمى اليّ انها اغتابتنى مرتين او ثلاث مرات ، بقدْح لا يخلو من مرارة ، ولكنه لا يخلو من كثير من مداراة . انها لتستغرب كثيرا كيف ان رجلا اختلف الى المجتمع الراقى ، وعرف بنات عمها وعماتها فى بطرسبرج ، لا يحاول ان يتعرف عليها . اننا نلتقى كل يوم عند البئر فى الشارع الكبير . واحاول بكل ما اوتيت من قوة ان انتزع منها عبادها المعجبين بها ، وهم من ضباط الحاشية البارزين ، ومن الموسكوبيين الشاحبين وغيرهم ، وكنت اظفر بذلك دائما على وجه التقريب ، وانا امرؤ اكره ان استقبل الناس فى بيتى ، ولكن بيتى يعج بهم الآن فى كل يوم ، يتغدون ويتعشون ويلعبون . ان الشمبانيا التى اقدمها لهم تنتصر على ما فى عينيها الجميلتين من قوة جاذبية مغناطيسية !

لقيتها امس فى مخزن تشيلاخوف ، تساوم

على سجادة رائعة من السجاد العجمى . كانت تضرع الى امها ان لا تتباخل ، فان هذه السجادة ستكون جميلة جدا فى مخدعها ! . . فزدت عليها اربعين روبلا ، واخذت السجادة . فكافأتنى على ذلك بنظرة يلتمع فيها حنق يفتن اللب . وتعمدت فى وقت الغداء ان ارسل حصانى الشركسى يتنزه تحت نوافذ بيتها ، وقد فرش ظهره بهذه السجادة . وقال لى فرنر ، الذى كان فى تلك اللحظة عندهما ، ان اثر ذلك فى نفسها كان اثرا دراميا شديدا . ان الاميرة الصغيرة تريد ان تؤلب جميع الناس علىّ ، حتى لقد لاحظت على ضابطين من ضباط الحاشية انهما اوشكا ان لا يلقيا علىّ التحية اثناء وجودها ، ولكن ذلك لا يمنعهما من المجئ الى بيتى للغداء كل يوم .

اما جروشنيتسكى فقد اصبحت حاله غريبة . انه يسير ، وقد وضع يديه خلف ظهره ، لا يعرف احدا ولا يلوى على شىء . وكأنما شفيت ساقه بسحر ، فهو الآن لا يكاد يعرج . وقد اتيح له ان يخاطب الاميرة الام ، وان يثنى

على ابنتها . ولا شك انها ترضى بالقليل ، ولا تلحف ، فها هى ذى ترد تحيته منذ ذلك الحين بابتسامة محببة لطيفة .

وسألنى امس :

— أأنت اذن تصر على ان لا تتعرف الى السيدة ليجوفسكايا وابنتها ؟

قلت :

— نعم .

قال :

— ولكن بيتهما امتع بيوت المياه قاطبة . . . ان الطبقة الراقية كلها هنا . . .

— يا عزيزى ، هذه الطبقة الراقية تزعجنى كثيرا . . . هنا او هناك . ولكن هل تتردد انت عليهما ؟

— لم اذهب اليهما بعد ، لقد تحدثت مع الاميرة الصغيرة مرتين او ثلاث مرات ، ولكن المرء يخجل ان يفرض نفسه فى بيت ، رغم ان هذا مألوف هنا . . . لو كان لى على الاقل شارات ضابط . . .

— عفوا ، انك على ما انت عليه اكثر

لفتا للاهتمام . وكل ما فى الامر انك لا تعرف الاستفادة من مزايا الظرف الذى انت فيه . . . ان معطف الجنود الذى ترتديه يجعلك فى نظر فتاة عاطفية بطلا وشهيدا .

فابتسم جروشنيتسكى ابتسامة الرضى ، وقال :

— دعك من هذا الكلام !

فاردفت اقول :

— انا واثق من ان الفتاة تحبك منذ الآن .

فاحمر حتى الاذنين ، وتجهم .

ايه ايها الغرور ، انت الرافعة التى كان يبحث عنها ارخميدس ليرفع العالم ! . .

قال جروشنيتسكى وهو يتصنع الزعل :

— انت تحيل كل شىء الى مزاح . . . فالفتاة ، اولا ، لا تعرفنى الا قليلا جدا . . .

— النساء لا يحببن الا من لا يعرفنه .

— ولكننى لا اطمع فى ان اعجبها . كل ما فى الامر اننى اريد التعرف الى اسرة ممتعة ، ومن المضحك ان تداعبنى آمال اخرى . . . اما انتم ، يا غزاة بطرسبرج ، فشأنكم شأن آخر . . يكفى ان تنظروا الى امرأة حتى تذوب فورا . . .

بالمناسبة ، هل تعرف ان الاميرة قد تحدثت عنك ؟

— كيف ؟ حدثتك عنى ؟

— ولكن ليس لك ان تسر بما قالته عنك . لقد بدأت معها حديثا بالقرب من البئر ، على سبيل المصادفة تماما . فما كدنا نتبادل ثلاث كلمات حتى سألتنى : «من ذلك السيد ذو النظرة القاسية المنفرة ؟ . . لقد كان معك حين . . .» ثم احمرت فقد تذكرت بادرتها اللطيفة ، ولم تشأ ان توضح . قلت لها : «لا حاجة بك الى ان تعينى لى ذلك اليوم ، فستظل ذكراه منقوشة فى نفسى الى الابد . . .» يا عزيزى بتشورين ، لست اهنئك ، فانها ترى فيك رأيا سيئا . . . وهذا مؤسف حقا ، لان مارى فتاة لطيفة جدا . . .

واحب ان الفت نظركم الى ان جروشنيتسكى هو من اولئك الذين اذا تحدثوا عن امرأة لا يكادون يعرفونها ، قالوا : عزيزتى مارى ، او عزيزتى صوفيا ، متى حظيت برضاهم عنها ، واعجابهم بها .

قلت بنبرة جادة :

— حقا لا بأس بها . . . ولكن حذار يا جروشنيتسكى ! ان اكثر الفتيات الروسيات يغتذين بحب افلاطونى ، دون ان يربطن به فكرة الزواج . والحب الافلاطونى اشد انواع الحب قلقا . يلوح لى ان الاميرة من تلك النساء اللواتى يردن ان يتسلين ، فاذا ضجرت معك دقيقتين متعاقبتين ، ضعت الى الابد . . . صمتك يجب ان يثير استطلاعها ، وحديثك يجب ان لا يرويها تماما . يجب ان تجعلها دائما فى حالة تعلق . لسوف تخاصم من اجلك رأى الناس جميعا عشر مرات ، لسوف تعد هذا تضحية منها فى سبيلك ، ولكنها سوف تأخذ بتعذيبك جزاء لنفسها ، ثم اذا بها ، فى ذات صباح ، تقول لك بلامراعاة انها اصبحت لا تطيقك . ان لم تتسلط عليها ، فان قبلتها الاولى نفسها لن تعطيك حقا فى قبلة ثانية . ستغنج لك ما شاء لها الغنج ، ثم اذا بها ، بعد عام او عامين ، تتزوج قردا اشوه اطاعة لامها ، وتروح تندب حظها الشقى ، وتقول انها ما احبت فى حياتها الا رجلا واحدا هو انت . ولكن الاقدار لم تشأ ان تجمعها

بذلك الرجل ، لانه يرتدى معطف جندى ، رغم ان قلبا نبيلا فياضا بالحب يخفق تحت ذلك المعطف الغليظ الرمادى . . .

فضرب جروشنيتسكى المنضدة بيده ، واخذ يذهب ويجئ فى الغرفة .

وضحكت فى اعماق نفسى ، حتى لقد ابتسمت مرتين ، ولكنه ، لحسن الحظ ، لم يلاحظ ابتسامتى . واضح انه عاشق مدنف ، لانه اصبح اكثر ثقة مما كان . ولاحظت انه يحمل خاتما من تلك الخواتم الفضية المنقوشة التى تصنع هنا . فاشتبهت فى امر هذا الخاتم ، فنظرت فيه ، فرأيت اسم **مارى** منقوشا فى داخله باحرف صغيرة ، والى جانب الاسم نقش تاريخ اليوم الذى ناولته فيه الكأس ! لم اقل شيئا . فاننى لا احب ان اضطره اضطرارا الى البوح بكل شىء ، وانما اريد ان يتخذنى نجيا من تلقاء ذاته ، فعندئذ سأتفكه . . .

. . . .

استيقظت اليوم فى ساعة متأخرة من الصباح ، فلما وصلت الى البئر لم اجد هنالك احدا .

وكان الجو حارا . وغمامات صغيرة بيضاء ، شعثة ، تتراكض من الذرى التى يغطيها الثلج ، وتنذر بالعاصفة . وكان الدخان يتصاعد من قمة ماشوك كما يتصاعد من مشعل أُطفئ . وهذه مزق من الغيوم تتموج وتزحف كالثعابين ، كأن الادغال الشائكة هى التى تحبسها عن المسير . كان الهواء مشحوناً بالكهرباء ؛ فتسربت تحت عرائش الممر الذى يؤدى الى المغارة . كنت مكتئبا حزين النفس ، افكر فى المرأة التى على خدها شامة ، والتى حدثنى عنها الدكتور . . . لماذا جاءت ؟ ولكن أُهى هى حقا ؟ وما الذى جعلنى اعتقد انها هى ؟ ما الذى يجعلنى على يقين من ذلك ؟ ان كثيرا من النساء على خدودهن شامات . وفيما انا افكر فى ذلك ، وصلت الى المغارة . كانت تجلس هنالك على مقعد من الحجر ، تحت القبة الظليلة الرطيبة ، امرأة تلبس قبعة من القش ، تتلفع بشال اسود ، وقد احنت رأسها على صدرها . كانت قبعتها تخفى وجهها ، وكنت اهم ان اعود ادراجى ، حتى لا اعكر عليها احلامها ، فاذا هى تنظر

اليّ . فهتفت بالرغم منى :

— فيرا !

فارتعشتْ ، ورأيت وجهها يمتقع . قالت :

— كنت اعرف انك هنا .

فجلست وتناولت يدها . ان اضطرابا نسيته منذ زمن بعيد ، سرى فى كيانى كله حين سمعت صوتها الحبيب . واخذت عيناها العميقتان تنظران فى عينى . فقرأت فى نظراتها ارتيابا ، وشيئا يشبه ان يكون لوما . قلت :

— ما اطول هذه المدة التى لم ارك خلالها !

— نعم انها طويلة جدا ، وقد تغيرنا كلانا كثيرا .

— اى انك اصبحت لا تحبيننى ؟

— انا متزوجة ! . .

— وتزوجت مرة اخرى ؟ ولكن زواجك لم يكن يمنعنا من شىء منذ بضع سنين . . .

فسلت يدها من يدى ، واحمر وجهها احمرارا شديدا .

— لعلك تحبين زوجك الثانى ؟

فلم تجب على سؤالى ، واشاحت بوجهها عنى .

— لعله شديد الغيرة ؟

وظلت صامتة .

— فماذا اذن ؟ لعله شاب ، لعله جميل ، لعله غنى جدا ، وانت تخشين . . .

ونظرتُ اليها ، فارتعدتُ خوفا . كان وجهها يعبر عن يأس عميق . . . وكانت الدموع تترقرق فى عينيها ، تمتمت تقول :

— يلذ لك اذن ان تعذبنى ؟ كان ينبغى ان اكرهك منذ عرفتك ، لانك لم تهب لى غير الشقاء . . .

كان صوتها يرتعش ، ثم انحنت علىّ ، واسندت رأسها الى صدرى .

قلت اخاطبها بينى وبين نفسى : «لعلك من اجل هذا بعينه احببتنى ، لان الافراح تُنسى ، اما الاتراح فلا تنسى مدى الحياة . . .»

وشددتها بين ذراعى شدا قويا ، وظللنا هكذا مدة طويلة ، ثم تقاربت شفتانا واتحدتا بقبلة طويلة مسكرة . كانت يداها باردتين كالثلج ، وكان جبينها يحترق احتراقا . ودار بيننا عندئذ حديث من تلك الاحاديث التى اذا سجلت على

الورق لم يبق لها معنى ، من تلك الاحاديث التى لا يمكن تكرارها بل ويتعذر تذكرها ؛ ذلك لان ما يعبر عنه الصوت يغنى عما يقوله اللسان ويكمله ، كما فى اوبرا ايطالية .

انها تصر اصرارا جازما على ان لا اتعرف الى زوجها ، العجوز القصير الاعرج الذى لمحته فى الشارع الكبير . لقد تزوجته من اجل ابنها . فهو غنى ومصاب بالروماتزم . . . ولم ابح لنفسى اى مزاح فى حقه ، لانها تحترمه كأب ، ولكنها تخونه زوجا . . . ما اعجب قلب الانسان ، لا سيما اذا كان قلب امرأة !

ان زوج فيرا ، واسمه سميون فاسيليفتش ، يمت الى الاميرة ليجوفسكايا بقرابة بعيدة ، وبيتاهما متلاصقان ، فكثيرا ما تذهب فيرا الى الاميرتين . وقد وعدتها بان اتعرف الى السيدة ليجوفسكايا وابنتها ، وان الاطف الفتاة لكى يحسبوا ان الهوى حيث انظر . وهكذا لم يتغير فى خططى شىء ، وسوف اتسلّى . . .

اتسلّى ! . . نعم ! لقد تجاوزت من الحياة تلك المرحلة التى لا تسعى فيها النفس الى غير السعادة ،

والتى يشعر فيها القلب بحاجة الى حب قوى جامح . ان كل ما ارغب فيه الآن هو ان اكون محبوبا ، وان لا تحبنى الا بضعة نساء ! بل اننى لاشعر ان تعلقا دائما يمكن ان يكفينى : ما ابأسها للقلب من عادة ! . .

ثمة شىء ادهشنى دائما ، هو اننى لم اكن فى يوم من الايام عبدا للنساء اللواتى احببتهن . بالعكس ، كنت اسيطر على ارادتهن وعلى قلوبهن سيطرة لا سبيل لهن الى دفعها ، دون ان افعل من اجل ذلك شيئا . أيرجع هذا الى اننى لا احرص على اى شىء حرصا عميقا ، والى انهن يخشين فى كل لحظة ان افلت منهن ؟ أيرجع الى ان جسمى قوى ذو تأثير مغناطيسى ؟ ام يرجع ، بكل بساطة ، الى اننى لم الق امرأة ذات ارادة قوية ؟

يجب ان اعترف ، من جهة اخرى ، اننى لا احب النساء اللواتى يملكن طبعا قويا : وهل على النساء ان يملكن طبعا قويا ؟ . .

على اننى اتذكر الآن اننى احببت مرة ، مرة واحدة ، امرأة قوية عنيفة ، لم استطع ان

انتصر عليها ، فافترقنا عدوين ، واغلب ظنى اننا لو تعارفنا بعد ذلك الوقت بخمس سنين ، اذن لكان يمكن ان نفترق على غير هذه الصورة . . .

ان فيرا مريضة جدا ، رغم انها لا تريد الاعتراف بذلك . اخشى ان تكون مصابة بالسل ، او بهذا المرض الذى يسمونه fièvre lente * ، وهو مرض ليس روسيا ابدا ، وليس له فى لغتنا اسم يسمى به .

وحبستنا العاصفة التى هبت اثناء وجودنا فى المغارة ، نصف ساعة ايضا . لم تطلب فيرا ان اعاهدها على الوفاء ، ولا سألتنى هل احببت غيرها منذ افترقنا . . . بل عاد اطمئنانها الي ، كسابق عهدها . ولن اخونها . . . انها المرأة الوحيدة التى اعجز عن خيانتها . اعرف اننا سنفترق مرة اخرى ، وان هذا الفراق قريب ، وقد يكون فراقا لا لقاء بعده . . . وعندئذ يسير كل منا فى طريق غير طريق صاحبه ، الى ان نموت ، ولكن ذكراها ستظل منقوشة فى قلبى :

---

* الحمى المضنية .

قلت لها ذلك غير مرة ، وهى تصدقنى ، رغم انها تدعى خلاف ذلك .

وافترقنا اخيرا ، وتابعتها بنظراتى طويلا ، الى ان غابت قبعتها بين الادغال والصخور . وانقبض صدرى انقباضا اليما ، كانقباضه يوم انفصلنا اول مرة . آه ، كم سعدت بهذا الشعور ! أهو الشباب يريد ان يعود اليّ بعواصفه الممتعة ام هى نظرة الوداع يلقيها علىّ آخر هدية يريد ان يبقيها لى ذكرى ؟ . . انه ليضحكنى ان اتصور اننى لو رآنى احد لحسب اننى ما ازال شابا فى ميعة الصبا ! ان وجهى ما يزال نضرا على شحوبه ، واعضائى مرنة متناسبة ، وهذه غدائر كثة تحف بجبينى . . . عيناى تلتمعان ، ودمى يغلى . . .

فلما عدت الى منزلى امتطيت صهوة جوادى ، ومضيت اعدو فى السهوب ، احب ان ارانى على ظهر حصان قوى البأس ، بين الاعشاب العالية فى ريح السهول ! اننى لاتنسم الهواء المعطر بشراهة ، واغرق بصرى فى الافق البعيد الازرق ، محاولا ان اميز حواشى الاشياء ، وهى

غامضة ثم تتضح لحظة بعد لحظة . مهما تكن المرارة التى تثوى فى قلبى ، ومهما يكن الغم الذى يرهق فكرى ، فان هذا كله يتبدد عندئذ فى لحظة ، ويهدأ قلبى : ان تعب الجسم ينتصر على قلق النفس . لا ، ما من نظرة امرأة الا واستطيع ان انساها ، حين اسرح طرفى فى الجبال المشبوكة تضيئها اشعة الظهيرة ، او حين اتأمل السماء الزرقاء ، او حين اسمع السيل يتدحرج من صخرة الى صخرة هادرا مصطخبا .

لا شك ان القوزاق الذين يتثاءبون وهم فى ابراجهم يراقبون ، قد تصدعت رؤوسهم طويلا ، وهم يروننى اعدو بلا سبب ولا هدف ، اذ لا ريب انهم ظنونى من لباسى شركسيا . وكثيرا ما قيل لى ، فى الواقع ، اننى حين اكون على صهوة جوادى بلباس الشراكسة ابدو كاباردیا اكثر من الكاباردیین انفسهم . ويجب ان اعترف اننى فى كل ما يتصل بهذا اللباس الحربى النبيل ، شخص انيق جدا : ما من شريطة زائدة ، والاسلحة ثمينة ذات زخارف جد بسيطة ، وفروة القلبق ما هى بالطويلة ولا هى بالقصيرة ، والجورب

الجلدى ، والحذاء متناسبان كل التناسب ، وجلباب ابيض ، وقفطان بني . ولقد درست طويلا طريقة الجبليين فى الفروسية ، ولا يفرح قلبى لشيء كما يفرح للثناء على براعتى فى امتطاء صهوة الحصان كالقفقاسيين . اننى املك اربعة احصنة ، احدها لى انـا ، والثلاثـة الباقية لاصدقائى ، حتى لا ينتابنى الضجر وانا اعدو فى الحقول وحدى . واصدقائى يركبون خيلى مسرورين ، ولكنهم لا يرافقوننى ابدا . كانت الساعة قد بلغت السادسة حين تذكرت ان اوان الغداء قد ازف . وكان حصانى مكدودا ، فسرت فى الطريق التى تمضى من بياتيجورسك الى المستوطنة الالمانية التى كثيرا ما يذهب اليها مجتمع المياه فى نزهات التسلية . ان الطريق تتلوى وسط الادغال ، وتهبط احيانا الى وديان صغيرة تجرى فيها السواقى مغردة فى ظل الاعشاب الطويلة . والجبـال الزرقـاء ، جبـال بشتو ، وزميينايا ، وليسايا ، تنتصب فى الافق البعيد صاعدة على درجات . فلما قطعت واديا من تلك الوديان (يسميه سكان المنطقة **بالكا**) ، وقفت ليرد

13-430

حصانى الماء ، فلاحت لى جماعة زاهية من الفرسان تتنزه فى الطريق ، وتحدث جلبة كبيرة ، فاما السيدات فيرتدين اثواب الفارسات سوداء وزرقاء ؛ واما الرجال فيرتدون مزيجا من لباس الشراكسة ولباس الروس . رأيت جروشنيتسكى فى طليعة الركب مع مارى .

ان السيدات اللواتى يفدن الى المياه ما زلن يعتقدن ان للشراكسة هجمات فى وضح النهار ، وربما كان ذلك هو الذى دفع جروشنيتسكى الى ان يحمل فوق معطف الجندى الذى يرتديه ، سيفا ومسدسين ، لقد كان منظره مضحكا بهذا الزى البطولى العجيب . كان يخفينى عن اعينهما دغل كبير ، ولكننى كنت اراهما من خلال الاوراق ؛ وادركت من تعبير وجهيهما ان الحديث عاطفى . ووصلا اخيرا الى المنحدر ، فامسك جروشنيتسكى بزمام حصان الاميرة ، وسمعت نهاية حديثهما . قالت الاميرة :

— وهل تريد ان تقضى حياتك كلها فى القفقاس ؟

فاجاب الفارس :

— ما لى ولروسيا ؟ روسيا بلد يعتقد فيه الوف الناس ان من حقهم ان يحتقرونى ، لانهم اغنى منى . . . اما هنا ، فان هذا المعطف الغليظ لم يحل بينى وبين التعرف اليك . . .

قالت وقد احمر وجهها :

— بالعكس .

فارتسمت علائم الرضى على وجه جروشنيتسكى ، واردف يقول :

— هنا ، تحت رصاص المتوحشين ، ستنقضى حياتى مضطربة سريعة ، دون ان اشعر بها . . . واذا ارادت مشيئة الله ان ترسل الىّ فى كل عام نظرة مشرقة من عينى امرأة ، نظرة مثل نظرة . . .

وكانا قد وصلا الى حيث كنت ، فلكزت حصانى ، وخرجت من بين الادغال . . . فصاحت الاميرة مذعورة :

—Mon dieu, un circassien!..*

فاجبتها بالفرنسية ، كى ابرر خطأ ظنها :

---

* يا الهى ، شركسى ! . .

-Ne craignez rien, madame,-je ne suis pas plus dangereux que votre cavalier* .

قلت ذلك وانا انحنى لها قليلا . فظهرت على وجهها علائم الاضطراب . تُرى ألانها اخطأت الظن ، ام لانها عدت جوابـى وقحا ؟ اود لو يكون الافتراض الثانى هو الصحيح . والقى علىّ جروشنيتسكى نظرة استياء .

فى ساعة متأخرة من المساء ، فى نحو الساعة الحادية عشرة ، ذهبت اتنزه تحت زيزفونات الشارع الكبير . كانت المدينة نائمة ، وليس ثمة الا بضع نوافذ ما تزال تضىء . ومن جهات ثلاث تتراءى الذرى السوداء من سلاسل الجبال التى تلاصق جبل ماشوك الذى انتشرت على قمته سحابة تنذر بشر . وكان القمر يطلع من الشرق ، وفى الافق البعيد يلتمع الهدب الفضى من الجبال التى تغطيها الثلوج . وكانت اصوات الخفراء تمتزج بخرير الينابيع الحارة التى تفتح فى الليل . ومن حين الى حين ، يسمع صوت حوافر حصان

---

* لا تخافى يا آنستى : فلست اخطر من فارسك .

على ارض الشارع ، يصحبه صرير عربة او غناء تترى حزين . وجلست على احـد المقاعد ، واستغرقت في افكارى . . . انى لاشعر بحاجة قوية الى الافضاء بما فى نفسى الى احد . . . ولكن الى من افضى بما فى نفسى ؟ وذكرت فيرا . . . ترى ماذا تصنع ؟ ليتنى استطيع ان اشد على يدها الآن بيدى .

وفجأة سمعت وقع خطوات سريعة متفاوتة . لا بد انه جروشنيتسكى . . . حقا انه هو !

— من اين تأتى ؟

— من عند الاميرة ليجوفسكايا .

قال ذلك بنبرة فخورة . ثم اردف :

— ليتك سمعت مارى تغنى ! . .

— هل تريد ان اقول لك ؟ انى لاراهن على انها لا تعرف انك جندى ، بل تحسب انك ضابط جُرِّد من رتبته . . . — فاجابنى ذاهلا :

— هذا ممكن ! ولكن فيم يهمنى ؟ . .

— عفوا . لقد قلت ذلك كما يمكن ان اقول شيئا آخر . . .

— ولكن هل تعلم انها حانقة عليك اشد

الحنق ؟ لقد رأت انك على جانب من الوقاحة لا نظير له . وبذلت كل ما بوسعى من جهد حتى اقنعها بانك شخص مثقف وانك تعرف المجتمع الراقى ، فلا يعقل ان تكون قصدت اهانتها . فقالت ان نظرتك وقحة ، وانك لا شك مغرور بنفسك .

— ليست على خطأ . . . ولكن يبدو لى انك تريد ان تظاهرها ؟

— ليس لى حق فى ذلك بعد ، مع الاسف . . .

قلت فى نفسى : «ان له اذن لاملا . . .» .

واردف جروشنيتسكى يقول :

— يا حسرتى عليك . لن يسهل ان تتعرف اليهما بعد ذلك الحادث . هذه خسارة ! ان بيتهما لمن امتع ما عرفت من بيوت .

فابتسمت بينى وبين نفسى .

— ما من بيت يبدو لى فى هذه اللحظة امتع من بيتى .

قلت ذلك وانا اتثاءب ، ونهضت لاذهب . قال :

ـــ اعترف مع ذلك بانك نادم ؟ . .
ـــ هه ! ولكنني استطيع ان اذهب اليهما منذ مساء الغد ، ان اردت .
ـــ سنرى . .
ـــ وسأبدأ بمغازلة الاميرة الصغيرة اكراما لك اذا شئت . . .
ـــ هذا اذا اصغت اليك !
ـــ ما عليّ الا ان انتظر اللحظة التي يضجرها فيها حديثك . . . هيا ، هيا ، عم مساء ! . .
ـــ سأطوف قليلا ، فانه ليستحيل عليّ ان انام . . . فاذا شئت ذهبنا الى المطعم نلعب ؟ . . انني الآن لفي حاجة الى احساسات قوية . . .
ـــ اتمنى لك ان تخسر . . .
قلت له ذلك ، وعدت الى بيتي .

٢١ ايار .

انقضى ما يقرب من اسبوع ، ولم اتعرف بعد الى السيدة ليجوفسكايا وابنتها . انني انتظر فرصة مناسبة . ان جروشنيتسكي يتبع الاميرة الصغيرة كظلها ، وهما يتحدثان احاديث ما لها

من نهاية . تُرى متى يضجرها ؟ ان الام لا تلقى الى ذلك بالا ولا تحاذر ، لان الرجل **ليس بالذى تريده لابنتها بعلا** . هكذا منطق الامهات ! لقد فاجأت الصبية تلقى على جروشنيتسكى نظرة عاطفية ، مرتين او ثلاث مرات . . . يجب ان يوضع حد لهذا .

امس جاءت فيرا الى البئر لاول مرة . . . لم تخرج منذ اليوم الذى التقينا فيه بالمغارة ؛ اغطسنا قدحينا معا ، فانحت عليّ وهمست بى :

— ألا تريد ان تتعرف الى الاميرتين ليجوفسكايا ؟ ان بيتهما هو المكان الوحيد الذى يمكن ان نلتقى فيه . . .

هذا عتاب ! . . هذا شىء مضجر ! ولكننى استحقه . . .

بالمناسبة : غدا تقام فى قاعة المطعم حفلة راقصة بالاكتتاب ، سأرقص مع الاميرة رقصة المازوركا .

٢٢ ايار .

اجتمعت الطبقة الراقية فى بهو المطعم ، فما ازفت الساعة التاسعة حتى كانوا جميعا هناك .

لقد وصلت الاميرة وابنتها مع آخر من وصلوا . وكان كثير من هاته السيدات ينظرن اليها نظرة حسد وعداوة ، لان مارى كانت انيقة كل الاناقة . واللواتى يعددن انفسهن من الطبقة الارستقراطية ، اخفين حسدهن ، فاقتربن منها . هل يمكن ان لا يقع هذا ؟ متى اجتمعت النساء تكونت على الفور حلقة عليا وحلقة دنيا ! وكان جروشنيتسكى بين الجمهور على مقربة من النافذة ، قد الصق وجهه بزجاجها ، واخذ يتأمل معبودته لا يفارقها بصره لحظة . ولقد القت عليه الاميرة ، وهى تمر ، تحية لا تكاد تلاحظ ، فاشرق وجهه كالشمس . . . وبدأ الرقص برقصة بولونية . . .ثم عزفت الجوقة الفالس ، فاخذت المهاميز ترن ، واخذت ذيول الثياب ترفرف وتدور .

كنت وراء سيدة سمينة غارقة فى ريش وردى اللون ، ذكرتنى فستانها بعهد زى السلال ، وذكرتنى برقشة جلدها المحبب بذلك العصر الجميل ، عصر الحرير الاسود المذبوب . وكان فى رقبتها ثؤلول كبير اخفته تحت قفل عقدها . وسمعتها تقول لفارسها ، وهو رئيس خيال :

— ان هذه الصغيرة ليجوفسكايا طفلة لا تطاق ! تصور انها اصطدمت بى ولم تقدم الىّ اعتذارها ؛ واكثر من ذلك انها التفتت وحدقت الىّ بنظارتها التى فى يدها . . . C'est impayable! * بم تعتز هذا الاعتزاز كله ؟ انها فى حاجة الى درس قاس .

فاجابها الرئيس المهذب :

— ستعطى درسا !

ومضى الى الحجرة المجاورة .

فاقتربت من الاميرة الشابة فورا . ودعوتها الى رقصة فالس ، مستفيدا من هذه العادة المألوفة هنا ، وهى ان يستطيع الرجل مراقصة نساء لا يعرفهن . لم تكد تستطيع ان تكبح ابتسامتها وان تخفى فرح انتصارها . ولكنها سرعان ما اصطنعت عدم المبالاة بل والقسوة ؛ فاسبلت يدها على كتفى باهمال ، وعطفت رأسها قليلا الى جانب ، واخذنا ندور . لا اعرف قدا الذّ من هذا القد ولا الدن ! كانت انفاسها الطرية تهب على وجهى خفيفة . . . واحيانا تنزلق على

---

* ان هذا مضحك ! . .

خدى الملتهب غديرة من غدائرها انفصلت عن اخواتها فى زوبعة الفالس . . . درنا حول الحلبة ثلاث مرات (انها تجيد الفالس اجادة رائعة) ، واخذ منها التعب كل مأخذ ، واضطربت عيناها ، ولم تكد تستطيع شفتاها المنفتحتان قليلا ان تقولا «Merci, monsieur» * ، وهو شكر لا بد منه .

قلت لها بعد بضع لحظات من صمت ، وانا اتصنع غاية الخضوع والضراعة :

— بلغنى ، ايتها الاميرة ، انك من سوء حظى غير راضية عنى ، رغم انك لا تعرفيننى . . . وانك ترينني سفيها وقحا . . . فهل هذا صحيح ؟

فاجابت ، وهى تقلب شفتها قليلا عن سخر (يجب ان اذكر ان هذه الحركة تنسجم كثيرا مع وجهها القلّب) :

— وهل تريد ان تبقينى على رأيى هذا ؟

— لئن تجاسرت فاسأت اليك ، فاسمحى لى الآن بجسارة اكبر ، هى ان اتوسل اليك طالبا عفوك ومغفرتك . يمينا ان غاية ما اصبو

* شكرا يا سيدى .

اليه واطمع فيه ، ان ابرهن لك على انك اخطأت الظن بـى .

— سيصعب عليك هذا كثيرا . . .

— لماذا ؟

— لانك لا تأتى الينا ، وحفلة كهذه لن تتكرر كثيرا .

قلت فى نفسى «معنى هذا ان بابهما موصد عنى الى الأبد» .

وقلت لها فى شىء من الحسرة :

— ألا تعرفين ايتها الاميرة ان المجرم التائب يجب ان لا يصدّ ، والا تضاعف اجرامه ، وعندئذ . . .

هنا سمعت قهقهات وهمسات فاضطررت ان اقطع جملتى وان التفت الى وراء . فرأيت رهطا من الرجال قد وقفوا على مسافة بضع خطوات منى ، وبينهم الرئيس الخيال الذى يبيت لاميرتى الصغيرة نية الشر والعداوة . كان يبدو سعيدا جدا ، وهو يفرك يديه ، ويتبادل الغمزات مع رفاقه . وفجأة خرج من الرهط رجل يرتدى لباس السهرة ، وله شاربان طويلان

وقد التمع وجهه بعلائم السكر ، اتجه نحو الاميرة بخطى مترنحة ، حتى اذا وقف امامها ، وقد اضطربت هى من ذلك اشد الاضطراب ، شبّك يديه وراء ظهره ، وحدّق اليها بعينيه الرماديتين المشوشتين ، وقال بصوت ابحّ :

— هل تسمحين . . . ولكن لم هذه الكلفة كلها ! ببساطة ، احجزك لرقصة المازوركا . . .

فقالت بصوت مضطرب ، وهى تلقى حولها نظرة توسل :

— ماذا تريد منى ؟

ومن سوء الحظ ان امها كانت بعيدة ، ولم يكن ثمة اى رجل ممن تعرفهم ، الا واحدا من ضباط الحاشية ، رأى كل شىء فيما اعتقد ، ولكنه اختبأ بين الجمهور ، حتى لا يتدخل فى الامر .

قال السيد السكران وهو يغمز الضابط الخيال الذى كان يشجعه بحركة من رأسه :

— ماذا ؟ لا تريدين ؟ اكرر ما قلت : لى الشرف ان اطلـــبـــك pour mazure... *

* لرقصة المازوركا .

لعلك تظنين اننى سكران ؟ لا بأس . . . السكر يزيدنى براعة فى الرقص ، استطيع ان اؤكد لك ذلك جازما . . . .

رأيت انها تكاد يغمى عليها من شدة الرعب والاستياء .

فسرت الى السيد السكران ، وقبضت على ذراعه فى خشونة ، وحدّقت فى بياض عينيه ، وطلبت اليه ان ينسحب ، مضيفا الى ذلك ان الاميرة وعدتنى بان تراقصنى المازوركا منذ مدة طويلة . فقال وهو يضحك بضجة :

— اذن لا سبيل ! . . فى مرة اخرى ! . .

قال ذلك ، ومضى يلتحق برفاقه الذين شعروا بخزى شديد ، وقادوه حالا الى حجرة اخرى .

كافأتنى الاميرة على ذلك بنظرة عميقة ، نظرة لا تنسى . ومضت الى امها ، تقص عليها كل شىء ، فبحثت الام عنى حتى وجدتنى ، فشكرتنى ، وقالت انها تعرف امى ، وانها صديقة نصف «دزينة» من عماتى وخالاتى ، واضافت الى ذلك :

— كيف لم نتعارف الى الآن ؟ اعترف ان

الذنب ذنبك . انت تتهرب من جميع الناس . ما هذا ؟ آمل ان يستطيع هواء صالونى تبديد سأمك ، أليس هذا صحيحا ؟

فسقت اليها عبارة من تلك العبارات الفصيحة التى يجب ان يحفظها المرء على ظهر القلب لمناسبة كهذه المناسبة .

وطال رقص الكادريل ثم طال الى غير نهاية .

واخيرا انفجر الاوركستر يعزف المازوركا ، فى الرواق . فجلسنا انا والاميرة .

لم المح مرة واحدة الى حادثة السيد السكران ، ولا الى سلوكى السابق ، ولا الى جروشنيتسكى . وكان الانزعاج الذى احدثه فيها ذلك الحادث الكريه قد ذهب شيئا فشيئا ، فاسترد وجهها تورده ، واخذت تمزح فى كثير من الظرف ، وكان حديثها فكها دون ان تقصد الى الفكاهة ، وكان كلامها حيا طلقا رشيقا ، وكانت ملاحظاتها فى بعض الاحيان عميقة . . . والمحتُ بعبارة مضطربة ملتبسة الى اننى معجب بها منذ زمان طويل ، فاحنت رأسها واحمرت قليلا .

ثم قالت وهى تحمل نفسها على الضحك

حملا ، وترفع نحوى عينيها المخمليتين :

— انت رجل غريب !

واستأنفت كلامى اقول :

— ولئن لم اشأ ان اتعرف اليك ، فلانك محاطة بجمهور كبير من العبّاد ، وكنت اخشى ان اضيع بينهم تماما .

— انت مخطئ ! انهم جميعا مملون .

— جميعا ! هل هذا ممكن ؟

فحدقت الىّ ، كأنها تحاول ان تتذكر ، واصطبغ وجهها مرة اخرى بحمرة خفيفة ، وقالت اخيرا بلهجة جازمة :

— نعم ، **جميعا** !

— وحتى صديقى جروشنيتسكى ؟

فهتفت تقول فى لهجة الشك :

— أهو صديقك ؟

— نعم ، هو صديقى .

— لا ، طبعا ، هو لا يدخل فى عداد المملين . . .

فقلت ضاحكا :

— اذن يدخل فى عداد البؤساء ؟

— طبعا . وهل تجد فى هذا ما يضحك ؟ ليتنى اراك فى مكانه . . .

— لقد كنت جنديا انا ايضا . . . واؤكد لك ان تلك الفترة كانت اجمل ايام حياتى ! . .

قالت فى حرارة :

— أهو اذن جندى ؟ . .

ثم اردفت تقول :

— كنت اظن . . .

— ماذا كنت تظنين ؟ . .

— لا شىء ! . . ترُى من هذه السيدة ؟

ودار الحديث فى اتجاه آخر ، ثم لم نعد الى ذلك الموضوع .

وانتهت رقصة المازوركا ، فافترقنا على كلمة الى اللقاء . وانصرفت السيدات . . . فذهبت اتناول طعام العشاء ، ولقيت فرنر . قال لى فرنر :

— ها ها ! لقد قبضت عليك متلبسا بالجرم ، يا من قلت انك لا تريد ان تتعرف الى الاميرة الا بانقاذها من موت محـــقـق .

قلت :

— فعلت ما هو خير من ذلك ، انقذتها

من اغماء فى قلب حلبة الرقص ! . .

— كيف وقع ذلك ؟ قص عليّ ! . .

— بل احزره ، يا من تحزر كل شىء فى الدنيا !

٢٣ ايار .

فى الساعة السابعة من المساء ذهبت اتنزه فى الشارع الكبير . فرآنى جروشنيتسكى من بعيد . فجاء اليّ . كانت تلتمع فى عينيه حماسة مضحكة ، فصافحنى بقوة ، وقال بصوت تراجيدى :

— شكرا بتشورين . . . هل تفهمنى ؟ . .

— لا . . . ثم اننى لا اتذكر ان ما صنعت يستحق ان اشكر عليه .

— كيف ! امس ؟ هل نسيت ؟ لقد قصت عليّ مارى كل شىء . . .

— ها ، نعم ! ولكن هل اصبح كل شىء بينكما مشتركا ؟ حتى العرفان بالجميل ؟

فقال جروشنيتسكى بلهجة الجد :

ـــ اسمع ! لا تسخر من حبى اذا اردت ان تظل صديقى . انت ترى اننى احبها الى حد الجنون . . . واعتقد . . . ارجو انها تحبنى ايضا . لى رجاء اتوجه به اليك . ستذهب اليهما هذا المساء ، وعِدْنى بان تلاحظ كل شىء . ان لك خبرة فى هذه الامور ، وانت تعرف النساء اكثر منى . . . آه من النساء ! آه من النساء ! من ذا الذى يستطيع ان يفهمهن ؟ بسماتهن تكذّب نظراتهن ؛ وكلامهن يعد ويجذب ، ونبرة صوتهن تبعد وتصدّ . . . تارة يفهمن كل مادقّ من خطرات فكرنا ، وتارة يعجزن عن فهم اوضح الايماءات . . . هذه مارى مثلا : امس كانت عيناها تلتمعان بهوى عنيف وهى تنظر الىّ ، واليوم اراهما كابيتين باردتين . . .

قلت :

ـــ لعل هذا من تأثير المياه .

قال :

ـــ أوه . . . انت ترى الامور دائما من جانبها الدميم . . . ـــ ثم اضاف فى احتقار :

ـــ اذهب فأنت مادي . . . ولكن فلنغير

مادة الحديث . . . — وسرّ كثيرا بهذا التلاعب فى الالفاظ ، واصبح اكثر مرحا .

وفى الساعة الثامنة ذهبنا الى بيت الاميرة معا ، فلما مررنا تحت نوافذ فيرا رأيتها تطل من احداها ، فتبادلنا نظرة سريعة ، ثم اذا بها تصل الى صالون السيدة ليجوفسكايا بعدنا بقليل . فقدمتنى اليها الاميرة الام على انها قريبتها . فتناولنا الشاى ، وكان هناك عدد كبير من الناس ، وكان الحديث عاما . وقد حرصت على ان احظى باعجاب السيدة ليجوفسكايا ، فكنت امزح ، حتى اضحكتها ضحكا يخرج من صميم القلب عدة مرات . وكانت ابنتها تود لو تضحك ، ولكنها كانت تكظم ضحكها حتى لا تخرج عن الدور الذى اصطنعته ، فلقد كانت ترى ان السآمة تليق بجمالها ، ولعلها على حق . وسرّ جروشنيتسكى جدا ان مرحى لم يكتسبها .

وبعد تناول الشاى ذهبنا الى الصالة . قلت لفيرا ، وانا امر الى جانبها :

— أأنت راضية عن طاعتى يا فيرا ؟

فألقت علىّ نظرة تفيض حبا وشكرا . اننى

متعود على هذه النظرات ، ومع ذلك فما أكثر ما كانت تبث فى نفسى من سعادة ! واجلست الاميرة ابنتها الى البيانو ، ورجاها الناس ان تغنى . ولم انبس انا بكلمة واحدة ، بل انتهزت الفرصة ، وانسللت الى قرب النافذة مع فيرا التى كانت تريد ان تفضى اليّ بشىء خطير يهمنا كلينا . . . ترّهة من الترّهات !

واحنق عدم اكتراثى هذا الاميرة كثيرا ، كما لاحظت ذلك فى نظرة ساخطة من عينيها اللامعتين . آه كم افهمها هذه اللغة ، هذه اللغة الخرساء ، ولكنها معبرة ، وهى وجيزة ولكنها عنيفة !

واخذت اخيرا تغنى . ان صوتها جميل ، ولكنها لا تجيد الغناء . . . ثم اننى لم احسن الاصغاء . اما جروشنيتسكى فقد توكأ على البيانو امامها ، وراح يلتهمها بنظراته التهاما ، ويقول فى كل لحظة بصوت خافت :

* «Charmant! délicieux!»

قالت لى فيرا :

---

* عظيم ! رائع ! (بالفرنسية فى الاصل) .

— اسمع ! لا اريد ان تتعرف الى زوجى ، ولكن عليك ان تحوز على رضى الاميرة الام . وهذا سهل عليك ، انك تستطيع كـــل ما تشاء . فى هذا المكان وحده نستطيع ان نلتقى .

— فى هذا المكان وحده ؟

فاحمر وجهها ، واستمرت تقول :

— انت تعرف اننى عبدتك ، واننى لم استطع ان اقاومك يوما ، وسأنال عقاب ذلك حين افيق فاذا انت لا تحبنى ! ولكننى اريد ان تصون سمعتى ، لا من اجل نفسى ، انت تعرف ذلك كل المعرفة . اتوسل اليك ان لا تعذبنى كما كنت تعذبنى ، بشكوكك العقيمة وببرودتك المفتعلة . اظن اننى سأموت قريبا ، فانى احس بالوهن يزداد يوما بعد يوم . . . ومع ذلك لا استطيع ان افكر فى الحياة الآتية ، ولا احلم الا بك . . . ان الرجال لا يفهمون الافراح التى تشيعها فى القلب نظرة عين او لمسة يد . . . اقسم لك اننى حين اسمع صوتك ، اشعر بسعادة عميقة ، غريبة ، لا تغنى عنها احرّ القبلات . . .

وفى اثناء ذلك توقفت الاميرة مارى عن الغناء ، واذا بالمديح يتقاطر عليها من كل صوب ، اقتربت منها آخر من اقترب ، وقلت كلمتين فى الثناء على صوتها ، بلهجة لا اكتراث فيها .

فاطالت شفتها السفلى ، واحنت رأسها احناءة ساخرة وقالت :

— يسرنى ثناؤك كثيرا ، ولا سيما انك لم تسمع شيئا البتة . ولكن لعلك لا تحب الموسيقى .

— بالعكس ، ولا سيما بعد الغداء .

— كان جروشنيتسكى على حق حين قال ان اذواقك ليس فيها شىء من الشعر . فـهـا أنت ذا لا تحب الموسيقـى الا من زاويـة الطعام .

— مخطئة . . . لست ممن يحبون الطعام ، فان معدتى سيئة جدا . ولكن الموسيقى ، بعد الطعام ، تحمل على النوم ، ومن الخير للصحة ان ينام المرء بعد تناول الغداء ، فانا اذن احب الموسيقى من زاوية الطب . اما فى المساء ، فالموسيقى تثيرنى ، تجعلنى حزينا

مسرفا فى الحزن او فرحا مسرفا فى الفرح ، ومن المتعب ان يحزن المرء او ان يفرح حين لا يكون ثمة داع جدى يدعو الى الحزن او الى الفرح . . . ثم ان الحزن ، بين الناس ، مضحك ، والفرح ان زاد عن الحد كان وقاحة . . .

لم تصغ الى كلامى حتى النهاية ، بل ذهبت تجلس الى جانب جروشنيتسكى ، ودار بينهما عندئذ حديث عاطفى . وتراءى لى ان الاميرة كانت تجيب على عباراته البليغة ، ذاهلةً لا تعرف ماذا تقول ، على تظاهرها بانها تصغى الى كلامه فى كثير من الانتباه . ذلك انه كان ينظر اليها فى بعض الاحيان نظرة استغراب ، محاولا ان يدرك سبب هذا الاضطراب الخفى الذى تفضحه نظرتها القلقة من حين الى حين . . .

ولكننى فهمتك ايتها الاميرة العزيزة . حذار منى ! تريدين ان تقتصى لنفسك بالسلاح عينه ، تريدين ان تجرحى عزتى . لن تظفرى بذلك ! واذا اعلنت علىّ الحرب ، فلن تأخذنى بك رحمة .

تظاهرت عدة مرات ، اثناء السهرة ، باننى اريد الاشتراك فى حديثهما ، ولكنها استقبلت كلامى بشىء من الجفاف ، فابتعدت اخيرا وانا اتظاهر بالاسى والحنق . انتصرتْ الاميرة . وانتصر جروشنيتسكى ايضا . انتصرا ، يا صديقىّ ، وحثا الخطى ! عمر نصركما قصير ! . . اوجس ذلك ! انى حين اتعرف الى امرأة ادرك انها سوف تحبنى او لن تحبنى ، وما خاب ظنى يوما . . .

قضيت باقى السهرة الى جانب فيرا نتحدث فى الماضى حديثا طويلا حتى شبعت . . . اننى لا اعرف حقا لماذا تحبنى كل هذا الحب ، لا سيما انها الوحيدة التى فهمتنى فهما عميقا ، وعرفت ما بنفسى من ضروب الضعف الحقير والهوى الفاسد . . . هل يمكن ان يكون الشر جذابا الى هذا الحد ؟ . .

وخرجت مع جروشنيتسكى ، وامسك بيدى فى الشارع ، وقال بعد برهة طويلة من الصمت :

— ما رأيك ؟

وددت لو اقول له : «رأيـى انك غبـى» ،

ولكننى امسكت عن الكلام ، واكتفيت بان اهز كتفى .

٢٩ ايار .

خلال هذه الايام كلها لم اخرج مرة واحدة عن الخط الذى رسمته لسلوكى . اخذ حديثى يرضى الاميرة الشابة . لقد قصصت عليها بعض الاحداث الغريبة من حياتى ، واخذت تنظر الىّ نظرتها الى رجل فريد عجيب . اننى اسخر من كل شىء . واسخر من العواطف اكثر من اى شىء . اخذ هذا يرعبها . انها لا تجرؤ على الشروع فى حديث عاطفى مع جروشنيتسكى بحضورى . حتى انها اجابت على فوراته بابتسامة ساخرة عدة مرات . ولكننى كنت ، كلما اقترب منها ، اصطنع هيئة الاذعان ، وادعهما وحدهما . سُرَّت من ذلك فى المرة الاولى ، او تظاهرت بانها سُرت . ولكنها فى المرة الثانية سخطت علىّ . وفى المرة الثالثة سخطت عليه هو .

قالت لى امس :

— انت قليل الاعتزاز بنفسك . . . ما الذى يوهمك بان صحبة جروشنيتسكى امتع عندى من صحبتك ؟

فاجبتها قائلا :

— اننى اضحى بلذتى فى سبيل سعادة صديقى . . .

قالت :

— وتضحى بلذتى ايضا .

فحدقت اليها بنظرة رصينة ، ثم لم اتجه اليها بكلمة واحدة طوال ذلك اليوم . . . كانت فى المساء واجمة تفكر ، وفى صباح اليوم كانت اشد وجوما . وحين اقتربت منها اليوم ، كانت تصغى ذاهلة الى جروشنيتسكى الذى كان يتدفق فى الحديث عن جمال الطبيعة ، فيما اعتقد ، فلما رأتنى اخذت تضحك ضحكا عاليا (فى غير محله) متظاهرة بانها لم تلمحنى . فابتعدت واخذت اراقبها خلسة ، فرأيتها تشيح بوجهها عن محدثها ، تتثاءب مرتين . ان جروشنيتسكى يضجرها ، ما فى ذلك ريب . سأظل يومين ايضا لا اخاطبها بكلمة .

٣ حزيران .

كثيرا ما اتساءل لماذا انصب هذا الانصباب على اثارة الحب فى قلب فتاة لا انوى اغراءها ولا اريد ان اتزوجها ؟ ما هذا الطبع المغناج الذى يليق بامرأة ؟ ان فيرا تحبنى حبا لـن تقدر على مثله الاميرة مارى . . . ولو كانت الاميرة تبدو لى صعبة المنال لقلت ان الصعوبة تغرينى . . .

ولكن الامر ليس كذلك . لست اذن بصدد تلك الحاجة القلقة الى الحب التى تعذبنا فى السنين الاولى من شبابنا ، وما تنفك تنقلنا من امرأة الى اخرى ، الى ان نجد امرأة لا تستطيع ان تطيقنا ، فاذا نحن نثبت على الهوى ، ونشعر بذلك الحب الجامح الصادق اللانهائى ، الذى يمكن ان نعبر عنه فى الرياضيات بخط يبدأ من نقطة ويغيب فى الفضاء الفسيح . . . ان سر هذه اللانهاية هو العجز عن بلوغ الهدف اى الوصول الى الغاية . . !

ولكن ما الذى يحملنى اذن على هذا العناء كله ؟ أتكون هى الغيرة من جروشنيتسكى ؟ مسكين جروشنيتسكى ، انه لا يستحق حقا

هذه الغيرة ! . . ام لعلنى انسان مع تلك العاطفة الخبيثة الجارفة التى تدفعنا الى تحطيم ما تفيض به نفس الجار من اوهام عذبة ، حتى ننعم بتلك اللذة الصغيرة ، وهى ان نجيبه ذات يوم حين يسألنا وقد تملكه اليأس : بمن اثق بعد الآن ؟ فنقول له : «اسمع يا صديقى ، لقد مررت بمثل ما تمر به الآن ، ها أنذا مع ذلك ، كما ترى ، اتغذى واتعشى ، وانام هادئا ، وآمل ان استطيع لقاء الموت بلا صراخ ولا دموع !»

ثم ، أليس فى امتلاك نفس فتية ، لم تكد تتفتح ، لذة لا تقاوم ؟ انها كتلك الزهرات التى تنشر عبقها العطر لاولى اشعة الشمس : ففى تلك اللحظة انما يجب ان تجتنى ، لترمى من ثم على قارعة الطريق ، بعد ان تُشمَّ حتى الثمالة : وربما تجد يومئذ من يلتقطها . انى لاشعر بنهم فى نفسى لا يشبع ، يلتهم كل ما يصادفه على الطريق . ولا انظر الى آلام الآخرين وافراحهم الا من ناحية صلتها بى ، اى على انها غذاء لنفسى . اصبحت عاجزا عن الاندفاع المجنون بتأثير هوى جامح . لقد خنقت

الظروف طموحى . ولكنه يظهر الآن بوجه آخر ، لان الطموح ليس الا الظمأ الى السيطرة ، وغاية اللذة عندى ان أُخضع من يحيط بى . وان توحى بالحب والوفاء والخوف ، أليس ذلك اول علامة من علامات الظفر ، واكبر نصر تحققه قوتك ؟ ان تكون مبعث ألم أو لذة لآخر ، دون ان يكون لك اى حق فى ذلك ، أليس هذا اعذب غذاء تغتذى به كبرياؤك ؟ وما هى السعادة ؟ انها ارتواء الكبرياء . لو اعتقدت اننى احسن الناس واقواهم ، لاصبحت سعيدا . ولو أحبنى جميع الناس ، لوجدت فى نفسى ينابيع من الحب لا تنضب . والشر يلـــد الشر ان الألم الاول الذى تعانيه يطلعك على اللذة التى يحققها لك تعذيب الآخرين . ولا يمكن ان تخطر فكرة الشر ببال أحد ، الا ويفكر فى تحقيقها فورا . قال أحدهم : الأفكار مخلوقات عضوية ، ولادتها تهب لها شكلا ، وشكلها هو الفعل . والذى تولد فى ذهنه الأفكار اكثر من غيره ، يفعل اكثر من غيره . ويتبع ذلك ان العبقرى اذا سُمِّرَ على كرسى الوظيفة فاما أن

يموت واما ان يجن ، مثله كمثل من اوتى جسما قويا ، اذا عاش حياة خاملة ساكنة ولم ينفق من قوته شيئا ، مات بسكتة القلب .

ما الأهواء الجامحة الا افكار فى اول مرحلة من مراحل نموها . هى من شأن القلب الفتى ، وما أشد حماقة من يتصور انه يتمكن ان يظل مضطربا بها ، حياته كلها . كثير من الأنهر الهادئة هى فى اول امرها سيول عارمة جارفة . ولكن ما من نهر منها يظل يتواثب ويرغى ويزبد حتى لحظة انصبابه الى البحر . وكثيرا ما يكون هذا الهدوء دليل قوة كبيرة كامنة . ان الأفكار والعواطف الواسعة العميقة تنفى الفورات الهائجة والاندفاعات المجموعة . والنفس ، فى المها ولذتها ، تعى كل ما يجرى فيها ادق الوعى ، وتقنع ذاتها بأن ما كان لا بد ان يكون . تعرف انها ، بدون العواصف ، تجففها حرارة الشمس الدائمة . انها تتغذى بحياتها نفسها . تدلل ذاتها وتعاقب ذاتها ، كما يدلل ويعاقب طفل حبيب . لا يستطيع الانسان ان يفهم العدالة الالهية الا اذا بلغ هذه الدرجة العليا من معرفة نفسه .

حين اعدت قراءة هذه الصفحة لاحظت انني ابتعدت عن موضوعي . . . ولكن لا ضير ! . . انني اكتب هذه اليوميات لنفسي ، وكل ما اخطه سيكون لي في المستقبل ذكرى ثمينة .

. . . .

جاءني جروشنيتسكي ، ووثب الى عنقي : لقد اصبح ضابطا . وشربنا الشمبانيا . وما هي الا برهة حتى دخل الدكتور فرنر . قال فرنر يخاطب جروشنيتسكي :

— لا اهنئك .

— لماذا ؟

— لان معطف الجنود الذي كنت ترتديه جميل عليك جدا . ثق ان بدلة ضابط من ضباط المشاة تصنعها هنا ، لا تجعلك شائقا كثيرا . انظر ، لقد كنت الى الآن فريدا فذا ، اما اليوم فقد اصبحت كسائر الناس .

— لك ان تقول ما تشاء يا دكتور ، فلن يمنعني كلامك من ان افرح ! . .

وهمس في اذني :

— انه لا يعلم الآمال التي تهبها لي هذه

الشارات . . . آه . . . شارات ، شارات ! نجمات ذات سلطان . . . نعم ! اننى الآن سعيد كل السعادة .

قلت له :

ــ هل ترافقنا فى جولة حول الغور ؟

ــ انا ؟ لن اظهر للاميرة قبل ان ارتدى بدلتى الجديدة .

ــ هل تكلفنى ان ابلغها النبأ السعيد ؟

ــ كلا ، ارجوك ، لا تقل لها شيئا . . . اريد ان افاجئها بالامر مفاجأة . . .

ــ قل لى على الاقل الى اين وصلتما ؟

القاه سؤالى هذا فى اضطراب ، واخذ يفكر . كان يود لو يموّه ويتباهى ، ولكنه لم يجرؤ . وهو يخجل ان يذكر الحقيقة .

ــ هل تعتقد انها تحبك ؟ . .

ــ هل اعتقد انها تحبنى ؟ افكارك غريبة يا بتشورين ! . . وكيف تريد ان تحبنى بمثل هذه السرعة ؟ . . وهبها تحبنى ، أفيمكن لامرأة مهذبة ان تبوح بهذه الامور . . .

ــ عظيم ! . . ولعلك ترى ايضا ان على

الرجل المهذب ان يسكت ، هو الآخر ، عن هواه ؟ . .

— ولكن يا صديقى هنالك السلوك . . . بعض الاشياء لا تقال ولكنها تحزر . . .

— هذا صحيح . . . ولكن الحب الذى يُقرأ فى العينين لا يربط امرأة ، فى حين ان الكلام . . . انتبه يا جروشنيتسكى ، انها تهزأ بك . . .

— هى ؟

هتف بذلك ، وهو يرفع عينيه الى السماء ، ويبتسم ابتسامة تفيض بمعنى الرضى والاكتفاء . واضاف :

— اننى ارثى لك يا بتشورين ! . .

ثم مضى الى سبيله .

فى المساء اتجه جمع غفير نحو الغور سيرا على الاقدام .

يرى علماء البلد ان هذا الغور ليس الا فوهة بركان منطفئ . وهو يقع فى احد سفوح جبل ماشوك ، على مسافة فرست من المدينة . ويؤدى الى الغور ممر ضيق يتعرّج بين الادغال

والصخور . وقد قدمت ذراعى للاميرة الشابة حتى تجتاز الجبل ، فلم تتركها بعد ذلك خلال النزهة كلها .

دار حديثنا فى اول الامر عن الناس نغتابهم ونتندر عليهم ، فاستعرضت من نعرفهم منهم حاضرين وغائبين ، واخذت اتفكه بمضحكاتهم ، ثم اخذت اتحدث فى عيوبهم ونقائصهم . واندفعت فى الحديث . بدأت بمزاح لطيف ، ثم انتهيت الى اقذاع خبيث . وطربت هى لذلك فى اول الامر ، ولكنها ما لبثت ان اعتراها خوف . قالت :

— انت رجل خطر . انى لأوثر ان اسقط فى غابة تحت سكين قاتل سفاك ، على ان يتناولنى لسانك السليط . . . اسألك جادة لا هازلة : اذا بدا لك يوما ان تقول فىّ قول السوء ، فانتض سكينا واذبحنى . . . وما اظن ان ذلك عليك عسير .

— هل هيئتى هيئة قاتل ؟

— انت شر من ذلك . . .

ففكرت لحظة ثم قلت لها وقد بدا على

وجهى تأثر عميق :

— نعم ، ذلك كان حظى منذ نعومة اظفارى ! كان جميع الناس يقرأون فى وجهى علامات غرائز شريرة انا منها برىء ، وما زالوا يفترضونها فىّ ، حتى نبتت وتأصلت . كنت خجولا ، فاتهمونى بالمكر ، فاصبحت كتوما . وكنت احس بالخير والشر احساسا عميقا ، ولكن احدا لم يعطف علىّ ، بل كانوا جميعاً يؤذوننى ، فاصبحت حقودا احب الانتقام . وكنت حزين النفس ، وكان الاطفال الآخرون فرحين هدّارين ، وكنت اشعر اننى فوقهم ، فقيل لى اننى دونهم ، فاصبحت حسودا ؛ وكنت مهيأ لان احب جميع الناس ، فلم يفهمنى احد ، فتعلمت الكره . لم يكن شبابى الخالى من الفرح الا صراعا مع الناس ومع نفسى . خوفا من الهزء ، دفنت انبل عواطفى فى اعماق قلبى ، فماتت هنالك . وكنت احب ان اقول الحقيقة ، فلم يصدقنى احد ، فاخذت اكذب . وقد تعلمت ان اسبر اغوار الناس ، وان ادرك الدوافع التى تحركهم فاصبحت بارعا فى فن الحياة ، ولاحظت ان

غيرى ممن لا يملكون هذا الفن كانوا سعداء ، ينعمون ، من غير جهد ، بهذه الخيرات التى كنت اجهد للحصول عليها بلا كلال ؛ فولد اليأس فى قلبى ، لا ذلك اليأس الذى تذهب به رصاصة من مسدس ، بل هذا اليأس البارد ، العاجز الذى يختفى وراء سلوك لطيف ، وابتسامة طيبة . اصبحت روحى مشلولة . ذهب نصف نفسى : جف ، تبخر ، مات . قطعته ورميته بعيدا عنى . بينما كان النصف الآخر يتحرك ويتمنى ان يخدم جميع الناس . ولكن احدا لم يلاحظ ذلك ، لان احدا لم يعرف ان النصف الضائع كان موجودا . ولكنك ايقظت الآن فى نفسى ذكراه . فقرأت لك ما كتب على قبره . كثير من الناس يرون ما يكتب على القبور مضحكا ، اما انا فلا ، لا سيما حين افكر فيمن يرقد تحت . على اننى لا اسألك ان تشاركينى الرأى . . . واذا رأيت فورتى مضحكة ، فاضحكى ما شاء لك الضحك . . . وثقى ان الضحك لن يجرحنى ابدا .

فى هذه اللحظة التقيت بعينيها ، فاذا

بالدموع تترقرق فيهما . . . كانت ذراعها المستندة الى ذراعى ترتعش ، وكان خداها مضرجين بالحمرة . انها تشفق علىّ ، وترثى لحالى . ان الشفقة ، هذه العاطفة التى سرعان ما تستسلم لها المرأة ، قد انشبت اظفارها فى اعماق قلبها البرىء الذى لا خبرة له . فظلت صامتة طوال النزهة ، ولم تعابث احدا . هذه علامة خطيرة !

وصلنا الى الغور ، وافلتت كل سيدة ذراع فارسها . . . ولكنها ظلت ممسكة بذراعى . لم تبهجها فكاهات المتظرفين من اهل المنطقة ، ولا اخافها المنحدر الشاهق الذى كانت عليه كما اخاف غيرها من الاوانس اللواتى اخذن يطلقن صرخات صغيرة ويغمضن اعينهن .

وحين عدنا ، لم استأنف حديثنا الحزين الاول ؛ ولكنها لم تكن تجيب على اسئلتى المبتذلة وعلى امازيحى الا اجابات موجزة ، وهى شاردة اللب ذاهلة .

سألتها اخيرا :

— هل احببت ؟

فحدقت الىّ ، وهزت رأسها بالانكار ، ثم عادت مطرقة تحلم . كان واضحا انها تود لو تقول شيئا ، ولكنها لا تعرف من اين تبدأ . كان صدرها يخفق . . . ما العمل ؟ ان كما من الحرير الشفاف لا يمكن ان يكون حصنا منيعا : لقد سرت شرارة كهربائية من ذراعى الى ذراعها . يكاد ينشأ الغرام دائما هكذا ، ومن الخطل ان نتصور ان النساء يحببننا لصفاتنا الجسمية او النفسية ، فلئن كانت هذه الصفات تهيئ الجو ، وتعد قلوبهن لاستقبال النار المقدسة ، فان الملامسة الاولى هى التى تقرر كل شىء .

قالت بعد انتهاء النزهة ، وهى تحمل نفسها على الابتسام :

— ألم أكن لطيفة جدا فى هذا اليوم ؟

— وافترقنا .

انها غير راضية عن نفسها . . . انها تتهم نفسها بالبرودة . . . هذا نصر اول ، هذا اهم نصر ! . . ستحاول ان تعوض علىّ فى الغد . اعرف ذلك على ظهر القلب ، وهذا ما يضجر !

٤ حزيران .

رأيت اليوم فيرا . صدّعت رأسى . بغيرتها ! اظن ان الاميرة اتخذتها نجية ، فافضت اليها باسرار قلبها . يجب ان اعترف انها احسنت الاختيار !

قالت فيرا :

ـــ اعرف الى اين تريد ان تصل . لماذا لا تقول انك تحبها ؟

ـــ ولكننى لا احبها !

ـــ فلماذا اذن تحاصرها ، وتشوشها ، وتقلق خيالها ؟ اننى لاعرفك . اسمع ، اذا كنت تريد ان اطمئن الى ما تقول ، فتعال بعد اسبوع الى كيسلوفودسك . سنذهب انا وزوجى الى هناك بعد غد ، وسنستقر هناك . اما الاميرة فستبقى بعض الوقت ايضا . استأجر بيتا قريبا من بيتنا . سنسكن نحن فى البيت الكبير الذى يقع على مقربة من النبع . سنحتل نحن الطابق العلوى ، ولقد استأجرت الاميرة ليجوفسكايا الطابق الارضى ، غير ان البيت الذى يقع الى جانب هذا البيت ، ويملكه صاحب هذا

البيت نفسه ، لا يزال خاليا . . . هل تأتى ؟

فوعدتها بالمجىء ، حتى لقد ارسلت وصيفى لاستئجار ذلك المنزل .

أتانى جروشنيتسكى فى الساعة السادسة ، وانبأنى بان بدلته ستكون جاهزة فى الغد ، موعد الحفلة الراقصة ، واضاف يقول :

ــ سأستطيع أخيرا ان اراقصها طوال السهرة . . . وسأفضى لها بكل ما فى صدرى .

ــ متى الحفلة الراقصة ؟

ــ غدا ! ألم يبلغك نبأها ؟ هى حفلة كبيرة تقيمها السلطات المحلية . . .

ــ تعال نتجول قليلا فى الشارع .

ــ يستحيل ان اخرج بهذا المعطف الحقير .

ــ كيف ؟ اصبحت لا تحبه ؟ . .

وخرجت وحدى ، ولقيت الاميرة مارى ، ودعوتها الى رقصة المازوركا ، فبدا ان ذلك ادهشها وسرّها . قالت وهى تبتسم ابتسامة فاتنة :

ــ كنت احسب انك لا ترقص الا لضرورة ، كالمرة الماضية .

كان يبدو عليها انها لا تنتبه الى غيبة

جروشنيتسكى . قلت لها : تنتظرك غدا مفاجأة سارة .

— ما هى ؟

— هذا سر . . . ستكتشفينه فى الحفلة .

قضيت باقى اليوم فى بيت الاميرتين ، ولم اجد هناك الا فيرا ، وعجوزا ظريفا جدا . كنت مشرق المزاج ، وارتجلت عددا من الاقاصيص العجيبة . كانت الاميرة الصغيرة جالسة امامى ، فكانت تصغى الى استطراداتى بانتباه بلغ من العمق ، والتركز ، بل ومن الرقة ، اننى ارتبكت . اين حيويتها ، وغنجها ، ونزواتها ، وكبرياؤها ، وبسمتها الساخرة ، ونظرتها الغائبة ؟

ولاحظت فيرا كل شىء ، فاذا وجهها الذى غيره المرض يلم به حزن عميق . كانت جالسة فى الظلام ، فى قاع مقعد كبير ، بالقرب من النافذة . . . لقد اشفقت عليها ورثيت لها . . .

فاخذت عندئذ اقص تلك الحكاية الدرامية ، حكاية لقائنا الاول ، وحبنا ، مع تغيير جميع الاسماء .

فبلغت من جمال تصوير عاطفتى وقلقى

واندفاعى ، ومن حسن الثناء على افعالها وطباعها ، انها اضطرت الى ان تغفر لى معابثتى للاميرة .

فتركت مقعدها ، وانتعشت فجأة ، وجاءت تجلس الى جانبنا . . . ودقت الساعة الثانية من الليل ، حين تذكرنا ان الاطباء هنا ينصحون بالنوم فى الحادية عشرة .

٥ حزيران .

دخل علىّ جروشنيتسكى قبل حفلة الرقص بنصف ساعة ، مشرق الوجه ، مرتديا بدلته الجديدة ، بدلة ضابط من ضباط المشاة ؛ وقد ربط بالزر الثالث من قميصه سلسلة من البرونز علق بها نظارة . كانت شارتا الكتفين مرتفعتين كجناحى إله حب صغيرين . وكان حذاؤه يزقزق . وكان يمسك بيده اليسرى قفازا بنياً وقبعة . وكان يمر بيده اليمنى ، فى كل لحظة ، على الغدائر الصغيرة من ذؤابته المجعدة . كان وجهه يعبر عن الرضى والتوجس فى آن واحد . ان منظره المحتفل ، وسيره المتغطرس ،

خليقان بان يحملانى على ضحك شديد ، لولا ان ذلك يتعارض مع ما بيّت من خطط .

ورمى قفازه وقبعته على المنضدة ، واخذ يشد ذيل بدلته ، ويصلح من زينته امام المرآة . لقد عقد ربطة سوداء على ياقته العالية التى تستند اليها ذقنه ، وكانت الربطة ترتفع عن زيق القميص مسافة اصبعين ، ولكن يظهر ان هذا بدا له غير كاف ، فرفعها حتى صارت عند اذنيه . وانفق فى ذلك جهدا كبيرا ، ذلك ان زيق البدلة كان ضيقا جدا ، وكان يزعجه كثيرا ، فاحمر من ذلك وجهه .

قال لى فى شىء من عدم المبالاة ، ودون ان ينظر الىّ :

— يظهر انك كنت خلال جميع هذه الايام تغازل اميرتى بلا انقطاع !

فقلت أستعير ذلك التعبير الذى كان يؤثره ماكر من الطف الماكرين فى عصر آخر اشاد به بوشكين :

— هذا الشاى لم يخلق لفمى الردىء .

— قل لى ، بدلتى هذه ، هل هى

جميلة عليّ ؟ آه من ذلك اليهودى اللعين ! . .
انها لتزعجنى تحت الذراعين . . . هل عندك عطر ؟
— ايضا ؟ . . لقد شممتُ رائحة عطر
الورد الذى تطيبت به ، من مسافة فرست كامل .
— لا بأس ، هات ايضا . . .
وصبّ نصف زجاجة العطر على ربطته ،
ومنديله ، واكمامه . سألنى :
— هل ترقص الليلة ؟
— لا اظن .
— اخاف ان ابدأ المازوركا مع الاميرة ،
وانا لا اكاد اعرف اى خطوة من خطواتها . . .
— ولكن هل دعوتها لرقصة المازوركا ؟
— لم ادعها بعد . . .
— انتبه ! من الممكن ان تسبق الى ذلك . . .
فضرب جبينه قائلا :
— هل تعتقد ؟ اذن الى اللقاء ! سانتظرها
عند المدخل .
وهنا اخذ قبعته وذهب بخطى واسعة .
وبعد نصف الساعة ، خرجت انا ايضا .
ان الشوارع مظلمة مقفرة . والناس يُهرعون حول

المجتمع الراقى ، او حول المطعم . سمّه ما شئت . كانت النوافذ مضيئة ، وحمل اليّ نسيم المساء اصوات موسيقى عسكرية . كنت اسير على مهل ، لا اسرع . وكنت حزين النفس . تساءلت : تُرى هل يمكن ان تكون رسالتى كلها فى هذه الحياة الدنيا هى ان احطم آمال البشر ؟ اننى منذ عشت وفعلت ، يستخدمنى القدر دائما لحل درامات الناس ، كأن احدا لا يستطيع بدونى ان يموت او ان ييأس ! كنت الشخصية التى لا بد منها فى الفصل الخامس . وقد مثلت ، رغم انفى ، ذلك الدور المؤلم ، دور جلاد او خائن . ماذا كانت غاية القدر ؟ أتراه اراد ان يجعل مني مؤلف تراجيديات برجوازية ، وروايات عائلية ، او كاتب اقاصيص لمجلة «مكتبة للقراءة» مثلا ؟ . . اين لى ان اعرف ذلك ؟ . . ما اكثر اولئك الذين يحسبون ، حين يبدأون حياتهم ، انهم سيختمونها كالاسكندر الكبير او كاللورد بايرون ، ثم يظلون حياتهم كلها مستشارى شرف ؟

حين دخلت الى القاعة ، اختفيت بين

جمهور الرجال ، واخذت اراقب . كان جروشنيتسكى واقفا الى جانب الاميرة الشابة يحدثها بحرارة ، وكانت تصغى اليه ذاهلة ، وهى تنظر من حولها ، عاضة على مروحتها بشفتيها . ان وجهها يعبر عن البرم ونفاد الصبر . ان عينيها تبحثان عن احد . فاقتربت على هون من وراء ، لاستمع الى حديثهما ، قال جروشنيتسكى ،

ـــ انك تعذبيننى ايتها الاميرة ، لقد تغيرت كثيرا اثناء غيابى .

فقالت له الاميرة وهى تلفه بنظرة سريعة لم يدرك ما فيها من سخر خفى :

ـــ وانت ايضا تغيرت .

ـــ انا ، تغيرت ؟ . لن اتغير فى حياتى كلها ! انت تعرفين ان هذا مستحيل ! من يراك مرة واحدة يحتفظ خياله بصورتك الالهية مدى الحياة . . .

ـــ كفى . . .

ـــ لماذا اصبحت لا تريدين ان تسمعى ما كنت تصغين اليه بالامس راضية ؟ . .

ـــ لاننى لا احب التكرار ، ـــ قالت ذلك

وهى تضحك . . .

ـــآه . . . لقد اخطأت الظن خطأ مؤلما مرا ! . . كنت مجنونا اذ ظننت ان هذه الشارات ستهب لى حق الامل على الاقل . . . لا ، لا ، كان ينبغى ان ارتدى الى الابد معطفى الحقير الذى لعل الفضل يرجع اليه فيما اظهرت من اهتمام بى . . .

ـــ حقا كان معطفك انسب لك . . .

فى هذه اللحظة تقدمتُ منها وحييتها ، فاحمر وجهها قليلا ، وقالت :

ـــ أليس صحيحا يا سيد بتشورين ان معطفه الرمادى كان اجمل ؟

ـــ لست من هذا الرأى ، ان بدلته تظهره افتى مما كان يبدو .

لم يستطع جروشنيتسكى ان يتحمل الضربة ، فهو يطمع كسائر الشباب ان يكون طاعنا فى السن منذ الآن . انه يتخيل ان الهوى قد خلف فى وجهه آثارا عميقة تغنى عن الآثار التى يخلفها تعاقب السنين . فنظر الىّ نظرة حانقة ، وضرب الارض بقدمه ، وابتعد عنا .

قلت للاميرة :

— أما كنت منذ مدة قريبة ، على رغم انه كان مضحكا دائما ، تجدينه طريفا شائقا . . . بمعطفه الرمادى ؟ . .

فغضت طرفها ، ولم تجب بشىء .

ظل جروشنيتسكى طوال السهرة يلاحقها ويلازمها ، ويرقص معها او يرقص امامها . وكان يلتهمها بعينيه التهاما ، ويتنهد ، ويزعجها بتوسله وعتابه . فلما انتهت رقصة الكادريل الثالثة ، كانت مارى قد اشمأزت منه .

قال لى وهو يقترب منى ، ويمسك بذراعى :

— ما كنت اصدق ان تفعل ذلك !

— ماذا ؟

فأجاب بصوت فخم :

— سترقص المازوركا مع مارى ؟ لقد اعترفت لى . . . .

— طبعا ! وهل يجب ان تجعل من الامر سرا ؟

— كان ينبغى ان اتوقع ذلك من هذه البنت الصغيرة . . . من هذه العابثة . . . ولكننى

سأنتقم !

— يجب ان تحقد على معطفك او على شاراتك ، ولا عليها هى ! هل يكون الذنب ذنبها اذا انت لا تعجبها الآن ؟ . .

— لماذا أملتنى اذن ؟

— ولماذا املت انت ؟ انا افهم ان يرغب الانسان فى شىء ، وان يسعى الى الحصول عليه ، اما ان يأمل ؟

فقال وهو يبتسم ابتسامة خبيثة :

— لقد ربحت الرهان ، ولكنك لم تربحه تماما .

وبدأت المازوركا . فلم يختر جروشنيتسكى ، طوال الوقت ، الا الاميرة ، وكان يجىء اليها فرسان آخرون يدعونها كل لحظة . . . واضح ان كل هذا تآمر علىّ . لا بأس . انها تريد ان تتحدث معى ، فحالوا بينها وبينى ، وستزداد من ذلك رغبتها فى التحدث الىّ .

شددت على يدها مرتين ، وفى المرة الثانية سلّت يدها دون ان تنبس بكلمة . قالت بعد انتهاء المازوركا :

— لن انام اليوم نوما هادئا !

— هل هذا بسبب جروشنيتسكى ؟

— لا ، لا !

كان فى وجهها من علائم الحزن والكآبة ما جعلنى اقطع على نفسى عهدا ان اقبل يدها فى ذلك المساء نفسه .

وانفض الجمع ، فلما ساعدتها على الصعود الى عربتها ، اسرعت فحملت يدها الصغيرة الى شفتى . وكان الظلام مخيما ، فلم ير احد شيئا .

عدت الى القاعة راضيا عن نفسى كل الرضى .

كان هناك عدد من الشباب يتعشون حول مائدة كبيرة . وكان جروشنيتسكى بينهم . فلما دخلت سكتوا جميعا عن الكلام : كان واضحا انهم يتحدثون عنى . ان كثيرا من الناس يحنقون علىّ ، منذ حفلة الرقص الاولى ، ولا سيما الرئيس الخيال . لا شك ان عصابة تتألف ضدى ، ولا شك ان جروشنيتسكى هو رأسها . ها هو ذا يرفع عقيرته ، ببسالة وغطرسة . . .

حسن . اننى احب اعدائى ، لا حبا مسيحيا طبعا . . . انهم يسلّوننى ، وينشطون دمى . . . ان اظل دائما على يقظة ، ان افاجئ كل نظرة من نظراتهم ، ان احزر كل كلمة من كلماتهم ، ان انفذ الى صميم نواياهم ، ان احبط مشاريعهم ، ان اتظاهر باننى غرّ مخدوع ، ثم اهدم بضربة واحدة كل ما بنوا بالجهد الطويل الشاق والمكر والحيلة : تلكم هى عندى الحياة .

لم ينقطع جروشنيتسكى والرئيس الخيال ، طوال السهرة ، عن التهامس وتبادل نظرات المكر .

٦ حزيران .

سافرت فيرا هذا الصباح الى كيسلوفودسك مع زوجها . لقد التقيت بعربتها فى طريقى الى بيت الاميرة ليجوفسكايا ، فهزت لى رأسها ، وكان فى نظرتها شىء من العتاب .

ولكن ما ذنبى ؟ لماذا لا تريد ان تتيح لى خلوة ؟ الحب كالنار ، ينطفئ اذا لم نغذه

بالوقود . لعل الغيرة ان تنجح ، حيث اخفقت توسلاتي .

بقيت مع الاميرة الام ساعة كاملة ، ولم ار ماري : انها مريضة . لم تخرج هذا المساء الى الشارع الكبير . ان العصابة التي تألفت قد تسلحت بنظارات ، واصطنعت هيئة التهديد . سرني ان الاميرة مريضة . كان يمكن ان يزعجوها . . . رأيت جروشنيتسكي اشعث الشعر ، وقد لاحت على وجهه علائم اليأس . واعتقد انه متألم ، ولا سيما من ناحية عزته الجريحة . ولكنه من اولئك الناس الذين يضحك المرء حتى من يأسهم .

حين عدت الى بيتي ، شعرت ان شيئا ينقصني . . . **انني لم ارها ! انها مريضة !** أتراني احبها ؟ . . دع عنك هذا الهراء !

٧ حزيران .

في الساعة الحادية عشرة من الصباح ، وهي الساعة التي اعتادت السيدة ليجوفسكايا ان تذهب

فيها الى حمامات بيرمولوف للتعرق ، مررت امام بيتها ، فرأيت الاميرة مارى جالسة الى النافذة . تحلم ، فلما رأتنى اسرعت تنهض .

ودخلت ، ولم يكن فى حجرة المدخل احد ، فاستعملت الحرية التى تبيحها العادات هنا ، فنفذت الى الصالون دون استئذان . . .

كان وجه الاميرة الجميل شاحبا كابيا . وكانت واقفة بالقرب من البيانو ، قد وضعت يدها على مسند مقعدها . . . كانت يدها ترتعش قليلا . فاقتربت منها بهدوء ، وقلت لها :

— أأنت حانقة علىّ ؟

فرفعت الىّ نظرة ذابلة عميقة ، وهزت رأسها . . . كانت شفتاها تريدان ان تقولا شيئا ، ولكنهما لا تستطيعان . وامتلأت عيناها بالدموع ، وتهاوت على مقعدها وهى تخفى وجهها بيديها .

قلت لها وانا اتناول يدها :

— ما بك ؟

فقالت :

— لا شك انك تحتقرنى ! . . دعنى ، دعنى ! . .

فلما ابتعدت بضع خطوات . . . استوت على مقعدها ، ورأيت الشرر يتطاير من عينيها . . .

وقفت ، وانا اضع يدى على قبضة الباب ، وقلت لها :

ـــ سامحينى ايتها الاميرة ! . . لقد تصرفت تصرف مجنون . . . ولن يقع هذا بعد الآن ابدا . . . سأحترس . . . فيم اطلعك على ما قام فى نفسى حتى الآن ؟ انك لن تعرفيه ، ومن الخير لك ان لا تعرفيه . وداعا !

وحين خرجت ، خيل الىّ اننى سمعتها تبكى .

ظللت حتى المساء هائما على وجهى فى جوار ماشوك ؛ حتى اذا عدت الى البيت ارتميت على سريرى وقد اخذ منى الاعياء كل مأخذ .

وجاءنى فرنر يسألنى :

ـــ هل صحيح انك ستتزوج الاميرة ليجوفسكايا ؟

ـــ نعم ؟

ـــ المدينة كلها تلغط فى الامر . ومرضاي جميعا يتحدثون فى الخبر الهام ، والمرضى اناس يعرفون دائما كل شىء !

قلت فى نفسى : «لا شك ان جروشنيتسكى

هو الذى دبر هذه المكيدة» . قلت للدكتور :
— كى ابرهن لك ، يا دكتور ، على كذب هذه الشائعات ، افضى اليك بهذا السر المكتوم ، وهو اننى مسافر غدا الى كيسلوفودسك .
— والاميرة ؟
— ستبقى هنا اسبوعا آخر ايضا .
— اذن لن تتزوجها ؟
— يا دكتور ، يا عزيزى الدكتور ، انظر الىّ ، هل ترى فىّ اى شىء مما يُرى فى خطيب ؟
فاجاب :
— لا اقول هذا . . .
ثم اضاف وهو يبتسم ابتسامة خبيثة :
— ولكنك تعلم ان هناك حالات يضطر فيها رجل شريف الى الزواج ، وهناك امهات لا تفعل شيئا من اجل تحاشى هذه الحالات . . . اليك نصيحة صديق : كن على حذر من الامر ! . . ان الهواء ، هنا ، فى المياه ، خطر جدا . . . كم من شباب ممتازين مضوا من هنا رأسا الى الكنيسة ، مع انهم كانوا يستحقون حظا اجمل ! . . وانا نفسى ارادوا ان يزوجونى ، هل تصدق ؟

هى ام من القضاء ، بنتها مصابة باليرقان . لسوء حظى قلت لها ان الوان ابنتها تعود اليها بعد الزواج ، فاذا هى تعرض علىّ ، ودموع الشكر تفيض من عينيها ، ان اتزوج ابنتها وان احظى بثروتها . . . كانت ثروتها خمسين نفسا فيما اظن . ولكننى اجبتها باننى عاجز عن ان اكون زوجا .

وتركنى فرنر ، مقتنعا كل الاقتناع بانه نبهنى وجعلنى على حذر من امرى .

لقد حفظت من كلامه كله ما يلى : ان اشاعات خبيثة عنى وعن الاميرة ، تدور فى المدينة . سيدفع جروشنيتسكى ثمن ذلك !

١٠ حزيران .

انا فى كيسلوفودسك منذ ثلاثة ايام . اننى ارى فيرا على البئر ، وفى النزهة ، كل يوم . متى استيقظت فى الصباح اذهب الى النافذة ، واسدد نظارتى الى شرفتها ، وتكون هى مرتدية ثيابها منذ مدة طويلة تنتظر الاشارة المتفق عليها ،

فنلتقى فى الحديقة التى تهبط من بيتينا الى البئر ، كأنما مصادفة على غير ميعاد . ان هواء الجبل المنعش قد اعاد الى لونها نضارته ، ورد اليها شيئا من القوة . صدق من قال ان نارزان تصنع هراقلة . ان سكان المنطقة يؤكدون ان هواء كيسلوفودسك يفتح القلوب للحب ، وان الروايات التى تبدأ على سفح ماشوك تنحل عقدها هنا . ان جو العزلة يفوح من كل شىء فى هذا المكان ، كل شىء هنا سرّ : الظلال الكثيفة فى دروب اشجار الزيزفون المنحنية على السيل الذى يرغى ويزبد واثبا من صخرة الى صخرة ، ويشق طريقه بين الجبال المخضوضرة ؛ الفجاج المليئة بالضباب والصمت ، تتشعب فى كل اتجاه ؛ طراوة الهواء العبق ، المحمل بروائح الاعشاب العالية الجنوبية ، وعبير اشجار الاكاسيا البيضاء ؛ خرير المياه يهدهد الآذان بغير انقطاع . . . خرير السواقى الباردة التى تتلاقى على طرف الوادى لتجرى معا الى مصبها فى نهر بودكوموك . . . ان الثغرة تتسع من هذه الجهة ، وتستحيل الى واد تملؤه الخضرة ويتلوى

فيه طريق اغبر . كلما نظرت الى هذا الطريق تراءى لى ان عربة تصل ، يطل من نافذتها وجه جميل فاتن . لقد مرت عربات كثيرة . ولكن العربة التى انتظرها لم تصل . . . ان الضيعة التى وراء القلعة ، تعج بالناس . ومن خلال صفين من اشجار الحور ارى عند المساء انوار المطعم الذى بنى على الهضبة الواقعة على بعد بضع خطوات من منزلى . واظل اسمع حتى ساعة متأخرة من الليل جلبة الاصوات ، ورنين الكؤوس .

ما من مكان يشرب فيه الناس من خمر كاخيتيا ومن الماء المعدنى مثلما يشربون فى هذا المكان :

فبعض الناس يخلطون هذين العملين
ولست انا من عداد هؤلاء .

ان جروشنيتسكى وعصابته يحدثون كثيرا من الصخب فى المطعم . ولا يكاد يلقى علىّ التحية .

لقد وصل امس ، وتشاجر حتى الآن مع ثلاثة شيوخ ارادوا ان يدخلوا الحمام قبله : لا شك ان تعاسته قد احالته امرأ يحب القتال !

١١ حزيران .

اخيرا وصلتا . كنت جالسا الى النافذة حين سمعت صوت عربتهما . لقد ارتعش عندئذ قلبى . . . ما معنى هذا ؟ أأكون عاشقا ؟ . . ليس هذا بمستبعد على طبعى العجيب .

تغديت فى منزلهما . وقد نظرت الىّ الام نظرة رقيقة ، ولكنها لا تترك ابنتها . . . الحال سيئة ! غير ان فيرا ، فى مقابل ذلك ، تغار من الاميرة : جاءت اذن السعادة التى طالما بحثت عنها ! اى شىء تمتنع المرأة عن فعله من اجل ان تغيظ غريمتها ؟ اذكر ان امرأة قد احبتنى يوما لاننى كنت احب غيرها . لا شىء اعجب من منطقهن : يستحيل ان تقنعهن باى شىء ، يجب ان تتأدى بهن الى ان يقنعن انفسهن بانفسهن . ان فرع الحجج الذى

يمكن ان يهدم ما استقر فى اذهانهن فريد فى نوعه . يجب عليك اذا اردت السيطرة على منطقهن ان تتخلى عن ابسط قواعد المنطق . مثال : هذا استدلال طبيعى :

هذا الرجل يحبنى ، ولكننى متزوجة ، اذن يجب ان لا احبه .

وهذا استدلال امرأة :

يجب ان لا احبه ، لاننى متزوجة ، ولكنه يحبنى ، اذن . . .

وهنا نصمت . . . لان العقل ليس هو الذى يتكلم ، بل اللسان ، والعينان ، ثم القلب ، اذا كان لهن قلب .

لو وقعت هذه الكلمات تحت عينى امرأة ، لاستاءت من ذلك اشد الاستياء ، وقالت — هذا افتراء ! . .

منذ نَظم الشعراء شعرا ، ومنذ قرأ النساء هذا الشعر (ويجب ان نشكر لهن ذلك اعمق الشكر) سُميت النساء ملائكة ، وبلغت هذه التسمية من التكرار انهن من بساطة قلوبهن صدقنها ، ناسيات ان هؤلاء الشعراء انفسهم

يمكن ان يضعوا نيرون فى مصاف انصاف الآلهة ، فى سبيل مال يحصلون عليه . . .

لماذا اقول فى النساء هذا الكلام الهاجر ، انا الذى لا احب فى الدنيا غيرهن ، انا الذى استطيع دائما ان اضحى من اجلهن براحتى ، بطموحى ، بحياتى ؟ ولكننى اذا انتزعت عن وجوه النساء هذا الحجاب السحرى الذى لا تستطيع ان تنظر الى ما وراءه الا عين متمرسة ، فاننى لا افعل ذلك مدفوعا بحنق شديد وكبرياء جريحة . كل ما اقوله عنهن ليس الا نتائج

ملاحظات العقل البارد
والقلب تملؤه المرارة * .

ينبغى للنساء ان يتمنين ان يعرفهن جميع الرجال كما اعرفهن انا ، لاننى منذ اصبحت لا اخافهن ومنذ فضحت نواحى الضعف الصغيرة فيهن ، ازداد حبى لهن مائة مرة .

لقد شبه فرنر النساء ، ذات مرة ، بالغابة

* بيتان من رواية بوشكين الشعرية «يفغينى اونيغين» .

المسحورة التى يتحدث عنها تاسو فى «تحرير القدس» ، فيقول : «متى اقتربت انتابتك الوان الذعر كلها : الواجب ، الغرور ، الادب ، رأى الناس ، سخرهم ، احتقارهم . . . ولكن يجب عليك ان تتقدم دون ان تنظر . . . فاذا بهذه الاشباح تختفى شيئا بعد شىء ، ثم اذا انت امام فسحة هادئة مضيئة يزهر فيها الآس المخضوضر . ولكن ويل لك اذا خفق قلبك منذ الخطوات الاولى ، ونظرت الى الوراء !»

١٢ حزيران .

كانت سهرة اليوم حافلة بالاحداث . على مسافة ثلاثة فرستات من كيسلوفودسك ، فى الفج الذى يجرى فيه بودكوموك ، هناك صخرة تسمى **الحلقة** ، هى اشبه بباب صنعته يد الطبيعة . انها تنتصب قائمة على هضبة عالية ، واليها ترسل الشمس عند المغيب نظرتها الملتهبة الاخيرة . ذهبنا الى هناك رهطا من الفرسان نريد ان نتأمل غياب الشمس من هذه الكوة

الصخرية . . . الحقيقة ان احدا لم تخطر له الشمس ببال . . . كنت ارافق الاميرة الصغيرة على حصانى . وعند العودة كان يجب علينا ان نقطع بودكوموك مخاضا . ان انهار الجبال خطرة ، مهما تكن صغيرة ، لا سيما وان قاعها منظار سحرى حقيقى ، يتغير بضغط المياه كل يوم ، فاذا المكان الذى كانت فيه بالامس صخرة اصبح اليوم ثغرة . امسكت بأعنة حصان الاميرة ، وادخلته فى الماء الذى لم يصل الى اعلى ركبته ، واخذنا نقطع النهر على مهل ، فى عكس اتجاه التيار ، موارية . وانتم تعلمون ان المرء حين يقطع نهرا سريعا يجب ان لا ينظر فى الماء ، والا اصيب بدوار . وقد نسيت ان انبه الاميرة مارى الى ذلك .

فما ان وصلنا الى منتصف النهر ، حيث يتدفق الماء اسرع ما يكون ، حتى رأيت الاميرة تترنح على سرجها ، وتقول بصوت ضعيف : «اشعر اننى فى حالة سيئة !» فانحنيت عليها بسرعة ، وطوقت جسمها اللدن بذراعى ، وتمتمت اقول لها :

— انظرى الى فوق . . . الامر بسيط ! ولا تخافى ، فاننى معك .

وشعرتْ بتحسن ، فارادت ان تنسل من بين ذراعى ، ولكننى شددت قدها الرشيق اللدن شدا اقوى ، حتى كان يلامس خدى خدها . . . وكان خدها يتوقد كأنه اللهب .

— ماذا تعمل ؟ . . يا الهى ! . .

ولكننى لم الق بالا الى قلقها واضطرابها . . . ولامست شفتاى وجنتها الناعمة . فارتعشت ولكنها لم تقل شيئا . كنا وراء الجميع ، فلم يرنا احد . فلما وصلنا الى الضفة الثانية من النهر ، كانوا جميعا يخبون . وحبست الاميرة حصانها عن العدو ، وظللت انا الى جانبها . كان واضحا ان صمتى يقلقها ، ولكننى كنت قد حلفت الا انبس بكلمة ، من قبيل حب الاطلاع . كنت اريد ان اعرف كيف تخرج من هذا المأزق . فقالت لى اخيرا بصوت تمازجه الدموع :

— اما انك تحتقرنى ، واما انك تحبنى كثيرا ! لعلك لا تريد الا ان تعبث بى وتسخر منى ، تدخل القلق والاضطراب الى نفسى ،

ثم تدعنى وشأنى . . . سيكون هذا من الحقارة والخسة والجبن بحيث ان تصوره وحده . . . لا ، لا ، أليس كذلك ؟ (استدركت هذا الاستدراك بلهجة عذبة من الثقة) ، اذ ليس فيّ شيء يمكن ان يحرمنى من الاحترام الذى استحقه ؟ اما جرأتك ، فيجب علىّ ، نعم يجب علىّ ، ان اغفرها لك ، لاننى سمحت بها . . . ولكن اجبنى ، تكلم ، اريد ان اسمع صوتك . . .

كان فى كلماتها الاخيرة هذه فراغ الصبر الانثوى ، ولم املك الا ان ابتسم له بالرغم منى . ومن حسن الحظ ان الظلام كان قد بدأ يخيم . . . ولم اجب بشيء .

فاردفت تقول :

— ما تزال صامتا ؟ لعلك تريد ان اكون انا البادئة بالاعتراف باننى احبك ؟ . .

فظللت ملتزما الصمت . . .

فاستأنفت تقول وهى تلتفت الىّ فجأة :

— قل ، أهذا ما تريد ؟

وكان فى قوة نظرتها وصوتها شيء يخيف .

فاجبت وانا اهز كتفى :

— لا داعى الى ذلك !

فضربت حصانها بالسوط ضربة قوية ، واندفعت فى الطريق الضيق الخطر لا تبالى . وبلغ عدوها من السرعة اننى لم استطع ان الحق بها الا فى كثير من العناء ، وحين وصلت اليها كانت قد ادركت الركب . وظلت ، حتى وصلنا الى البيت ، لا تزيد على ان تضحك وتتكلم . كان فى حركاتها شىء من الحمى . ولم تلتفت الىّ بنظرة واحدة . لاحظ الجميع هذا المرح غير المألوف . وسرّت الاميرة الام بذلك بينها وبين نفسها . ولكن ابنتها كانت تعانى نوبة عصبية ، لا اكثر ولا اقل . قلت فى نفسى لن تنام هذه الليلة ، وستبكى كثيرا . واحدثت هذه الفكرة فى نفسى لذة عظيمة . ثمة لحظات افهم ذلك الشبح الذى يخرج من القبر يمتص دماء الاحياء . . . ومع ذلك فانا ابدو فتى طيبا شجاعا ، وافعل كل شىء من اجل ذلك .

ونزلت السيدات عن خيولهن ، ودخلن الى بيت الاميرة . كنت فى قلق واضطراب ، فمضيت

اعدو على حصانى فى الجبل ، تبديدا لهذه الافكار التى تتلاحق سريعة فى رأسى . وجاء المساء رطبا بليلا بالندى ينشر طراوة مسكرة . وطلع القمر وراء الذرى المظلمة . كانت كل خطوة من خطوات حصانى تدوى فى الفجاج الصامتة دويا اصم . واوردت دابتى شلالا من الماء . وما زلت اعب الهواء النقى من هذه الليلة الجنوبية ، حتى قفلت راجعا اعود الى بيتى . كنت اجتاز القرية . ان الانوار اخذت تنطفئ فى النوافذ . وخفراء سور القلعة يتخاطبون مع العسس من جنود القوزاق بصوت بطىء . . .

ولاحظت ضوءا غير مألوف فى بيت بنى على ضفة واد من الوديان . وسمعت اصواتا مبهمة وصرخات . لا شك انهم عسكريون يقصفون ، فوثبت عن حصانى ، واندسست تحت النافذة ، وكان احد مصراعيها لم يحكم اغلاقه ، فاستطعت ان ارى وان اسمع . كانوا يتحدثون عنى .

كان الرئيس الخيال ، وقد استخفته الخمرة وثارت حماسته ، يضرب المنضدة بيده ، يطلب الصمت والاصغاء ، ثم يقول :

— ايها السادة ، هذا امر لا يمكن قبوله . ان بتشورين يستحق ان نلقنه درسا . ان هؤلاء الاغرار الذين يأتون من بطرسبرج يظلون شامخين الى ان يتلقوا ضربة على الانف حسنة . يظن انه وحده عاش فى المجتمع الراقى ، لانه يلبس دائما قفازين نظيفين ، وينتعل حذاءين لامعين .

— وانظروا الى هذه الابتسامة المتكبرة ! . . الا اننى على يقين من انه جبان ، نعم ، نعم ، جبان . . .

قال جروشنيتسكى :

— اعتقد بذلك ايضا . لقد تعود ان يتخلص من المآزق بالمزاح . فى ذات يوم ، بلغت من القسوة عليه فى الكلام ان احدا غيره لو كان فى مكانه لقتلنى حتما . ولكنه استقبل كلامى بضحك ! طبعا ، لم اطلبه للمبارزة . . . تركته وشأنه . . . ثم اننى لم اشأ ان ابدأ . . .

وهنا ارتفع صوت يقول :

— جروشنيتسكى حانق عليه لانه خطف منه الاميرة .

— هذا كلام سخيف ! صحيح اننى توددت الى الاميرة قليلا ، ولكننى سرعان ما كففت ، لاننى لم اكن انوى ان اتزوجها ، وليس من مبادئى ان اغرر بفتاة .

قال الرئيس الخيال :

— اؤكد لكم انه اجبن انسان على وجه الارض . . . اقصد بتشورين لا جروشنيتسكى . . . جروشنيتسكى رجل شهم شجاع . ثم انه صديقى . . . ايها السادة ، هل يحب احد منكم ان يدافع عن بتشورين ؟ لا احد ؟ هذا حسن . هل تريدون ان تمتحنوا شجاعته ؟ سيسليكم ذلك . . .

— نعم ؛ ولكن كيف ؟

— اسمعوا . ان جروشنيتسكى هو الحاقد عليه بوجه خاص ، فعليه اذن يقع تمثيل الدور الاول ! يماحكه ويناقره عند اول مناسبة تافهة ، ويطلبه للمبارزة . . . انتظروا ، يطلبه للمبارزة ، نعم ! ويتم كل شىء ، التحدى ، التهيئة ، الشروط ، على احسن ما يرام . . . بصورة فخمة ، بصورة مؤثرة . سيكون هذا من شأنى انا . واكون انا مرافقك ، يا صديقى !

نعم ! كل شيء الى هنا حسن . واليكم الآن المضحك فى الامر . لن نضع فى المسدسين رصاصا . وانا كفيل لكم بان بتشورين سيتراجع ! اضع كلا منهما على بعد ست خطوات من الآخر . . . ما قولكم ايها السادة ؟

فهتفوا من كل صوب يقولون :

— عظيم ! فكرة عظيمة !

— وانت يا جروشنيتسكى ، ما رأيك ؟

انتظرت جواب جروشنيتسكى وانا ارتعد . ان غضبا باردا قد استولى علىّ ، وانا اتصور اننى ، لولا هذه المصادفة العابرة ، لاتخذنى جميع هؤلاء الحمق اضحوكة . ولو ان جروشنيتسكى رفض ، لوثبت اعانقه . ولكنه بعد بضع لحظات من الصمت ، نهض واقفا ، ومد يده الى الرئيس يقول «اتفقنا» .

يصعب وصف الحماسة التى ظهرت عندئذ على وجوه جميع هؤلاء الناس .

وعدت الى بيتى فريسة شعورين متعارضين . اما الاول فهو شعور الحزن . «لماذا يكرهنى هؤلاء الناس جميعا ؟ هل اسأت الى احد

منهم ؟ لا . . . هل يمكن ان يكون منظرى وحده يوحى بالكره والعداوة ؟» واما الشعور الثانى فهو وحشية شريرة تجتاح نفسى شيئا فشيئا . قلت وانا اذهب واجىء فى الغرفة : «حذار يا سيد جروشنيتسكى ! . . لا مزاح من هذا النوع معى . . . ستدفع غاليا ثمن مجاملتك لرفاقك هؤلاء الاغبياء . . . لن اسمح بان اكون العوبتكم ! . . »

ولم استطع ان اغمض جفنى الليل كله . حتى اذا نهضت من فراشى فى الصباح كان وجهى اصفر كليمونة .

ولقيت الاميرة عند البئر فى الضحى .

قالت وهى تحدق الىّ :

— أأنت مريض ؟

— لم انم طوال الليل .

— ولا انا نمت . كنت اتهمك . . . ربما ظلما ؟ ولكن اشرح . . . اننى استطيع ان اغفر لك كل شىء . . .

— كل شىء ، حقا ؟

— نعم ، على شرط ان تقول الحقيقة . . .

اسرع . . . لقد فكرت طويلا . وحاولت ان اعلل سلوكك ، وان ابرره . . . لعلك تخشى بعض العوائق من جهة اهلى ؟ ولكن ليس هذا شيئا . . . (وهنا اضطرب صوتها) سأتوسل اليهم . . . لعل هذا هو وضعك . . . ولكن ثق اننى استطيع ان اضحى بكل شيء فى سبيل من احب . . . أوه ! اجبنى بسرعة ، ارحمنى . . . ألا تحتقرنى ؟ قل !

وكانت قد امسكت بيدى .

كانت امها سائرة امامنا مع زوج فيرا ، فلم تر شيئا . ولكن المرضى الذين يتنزهون كان يمكنهم ان يرونا . . . وهم اطول الناس لسانا فى النميمة ، فسرعان ما سللت يدى من وثاقها العنيف الجامح . وقلت لها :

— سأقول لك الحقيقة كلها ، لا احاول ان ابرر نفسى ، ولا ان اعلل سلوكى . انا لا احبك .

فاصفرت شفتاها قليلا ، وقالت بصوت لا يكاد يسمع :

— دعنى .

فهززت كتفيّ ، ثم ادرت لها ظهرى ، وابتعدت .

١٤ حزيران .

انني لاحتقر نفسى فى بعض الاحيان . . . تُرى أليس هذا هو السبب فى انني احتقر الآخرين ؟ . . لقد اصبحت عاجزا عن الاندفاعات النبيلة ، اذ اخشى ان اصبح فى نظر نفسى مضحكا . لو كان غيرى فى مكانى ، لقدم للاميرة Son coeur et sa fortune * ، ولكن كلمة **الزواج** تفعل فى نفسى فعل السحر ، فقد احب امرأة من النساء حبا جامحا عنيفا ، حتى اذا اشعرتنى قليلا بان عليّ ان اتزوجها ، زال حبى ، ومضى ! ان قلبى يصبح عندئذ كصخرة ، فلا يحركه بعد ذلك شيء . انني قادر على جميع التضحيات ، الا هذه . . . يمكن ان اجازف بحياتى عشرين مرة ، بل قد اجازف بشرفى ايضا . . . ولكنني لن ابيع

---

* قلبه وثروته (بالفرنسية فى الاصل) .

حريتي . تُرى ما الذى يجعلها غالية عندى الى هذه الدرجة ؟ . . ماذا اجد فيها ؟ ما الذى اعد له نفسى ؟ ماذا انتظر من المستقبل ؟ . . يمينا ، لا شيء . ولكنه خوف فُطرت عليه ، وتوجس لا استطيع تعليله . . . ثمة اناس يخافون من العناكب ، من الصراصير ، من الفئران ، دون ان يعرفوا لخوفهم هذا سببا . هل اعترف لكم بشيء ؟ . . حين كنت صغيرا تنبأت امرأة عجوز لامى **بان الموت سيأتينى من زوجة شريرة** . ولقد اضطربت يومئذ اضطرابا عميقا ، واصبحت انفر من الزواج نفرة لا سبيل الى مغالبتها . . . ومع ذلك ان شيئا يهتف بى ان النبوءة ستتحقق . سأحاول على الاقل ان ارجئها ما استطعت الارجاء .

١٥ حزيران .

وصل امس الى هنا المشعوذ **ابفلباوم** . وقد ألصق على باب المطعم اعلان طويل يزف الى الجمهور الكريم ان الملقب بأبفلباوم ، الحاوى المدهش ، البهلوان الرائع ، العالم فى الكيمياء

والضوء ، يسره ان يقيم حفلة كبرى فى الساعة الثامنة من مساء هذا اليوم نفسه ، فى صالون الطبقة الراقية (اى فى المطعم) . ثمن التذكرة : روبلان ونصف روبل .

ان جميع الناس يريدون ان يذهبوا الى المطعم لمشاهدة الحاوى المدهش . وقد اشترت الاميرة ليجوفسكايا تذكرة ، رغم ان ابنتها مريضة ، وستذهب وحدها .

بعد الغداء ، مررت تحت نوافذ فيرا . كانت وحدها على شرفتها ، فاذا برسالة منها تسقط بين قدمىّ :

«هذا المساء فى الساعة العاشرة ، تعال الىّ ، من السلم الكبير . ذهب زوجى الى بياتيجورسك ، ولن يعود الا فى صباح الغد . لا الخدام ، ولا الخادمات ، لن يكونوا فى البيت . اشتريت لهم جميعا تذاكر ، وكذلك لخدام الاميرة . انتظرك . تعال حتما» .

قلت لنفسى : «ها ها . . . قد وصلتُ اخيرا الى ما كنت اريد» .

ذهبت الى المطعم لمشاهدة المشعوذ ، فى

الساعة المضروبة . ولم يلتئم جمع الجمهور الا فى الساعة التاسعة . ثم بدأت الحفلة . رأيت خدام وخادمات فيرا والاميرة فى الصفوف الاخيرة . كانوا جميعا هناك . ورأيت جروشنيتسكى فى الصف الاول ، يحمل نظارته ، واليه كان يتوجه المشعوذ كلما كان فى حاجة الى منديل ، او ساعة ، او خاتم ، او ما شاكل ذلك .

ان جروشنيتسكى لا يحيينى منذ مدة . وقد نظر الىّ اليوم مرتين شزرا ، فى شىء من الوقاحة . سأذكره بذلك كله فى حينه .

وقبل الساعة العاشرة بقليل نهضت وخرجت . كان الظلام فى الخارج دامسا . وكانت سحب ثقيلة باردة ، تجثم على ذرى الجبال المجاورة . ومن حين الى حين تهب نسمة خفيفة بطيئة ، تهز رؤوس اشجار الحور حول المطعم . فيسمع حفيف اوراقها خفيفا . كان الجمهور يسارع الى النوافذ . وهبطت الهضبة . حتى اذا تجاوزت الباب الكبير الذى تدخل منه العربات حثثت الخطى . فتراءى لى فجأة ان شخصا يسير ورائى . فتوقفت انظر . كان يستحيل علىّ ان

ارى فى هذه الظلمة الكثيفة شيئا . وعلى سبيل الاحتراس ، درت حول البيت ، كمن يتنزه . فلما مررت تحت نوافذ الاميرة مارى سمعت مرة اخرى ، وقع خطوات ورائى : ومرّ بسرعة خاطفة ، رجل يرتدى معطفا عسكريا . فتطيرت من ذلك . غير اننى اقتربت من درج الباب بخفة ، وصعدت السلم فى الظلام بسرعة . وفُتح الباب ، وامتدت يد صغيرة تمسك بيدى . . .

قالت فيرا وهى تشد نفسها الىّ :

— هل رآك احد ؟

— لا !

— هل انت مقتنع الآن باننى احبك ؟ آه . لقد ترددت كثيرا ، وتألمت كثيرا . . . ولكنك تصنع بى ما تشاء .

كان قلبها يخفق بقوة ، وكانت يداها باردتين كالثلج . وبدأ عتاب الغيرة ، وبدأ اللوم والشكوى . واخذت تستحثنى على ان اعترف لها بكل شىء ، قائلة انها ستتحمل خيانتى لها دون تذمر ، لانها لا ترغب الا فى شىء واحد ، هو ان ترانى سعيدا . لم اصدقها تماما ،

ولكننى هدأت روعها بالعهود والوعود الى آخر ما هناك .

— اذن لن تتزوج مارى ؟ اذن انت لا تحبها ؟ . . وهى تظن . . . هل تعرف انها مجنونة غراما بك ، مسكينة مارى ! . .

. . . .

. . . .

وفى الساعة الثانية من الصباح ، فتحت النافذة ، وانزلقت على عامود مستعينا بشالين رُبط احدهما بالآخر ، حتى وصلت الى الشرفة تحت . لا يزال فى غرفة مارى ضوء . وشعرت بشىء يدفعنى نحو نافذتها . لم تكن الستارة مسدولة تماما ، فاستطعت ان القى على غرفتها نظرة مستطلعة . كانت مارى جالسة على سريرها ، وقد شبكت يديها على ركبتيها . وكان شعرها الكثيف مضموماً تحت قلنسوة صغيرة لليل يزينها حرير مخرّم ، وكان يغطى كتفيها الابيضين شال احمر ، وكانت قدماها الصغيرتان مختبئتين فى بابوج عجمى صارخ الالوان . كانت ساكنة خافضة رأسها ، وامامها كتاب مفتوح فوق منضدة

صغيرة ، ولكن عينيها الجامدتين المليئتين بحزن قاهر كانتا كأنهما تطوفان على هذه الصفحة للمرة المائة . . . انها شاردة اللب .

وفى هذه اللحظة سمعت شيئا يتحرك وراء دغل . فقفزت من الشرفة التى كنت عليها الى الارض فوق العشب ، فاذا يد لا اراها تقع على كتفى ، ويقول صاحبها بصوت خشن :

— ها . . . لقد قبضت عليك متلبسا بالجرم ! تذهب الى الاميرات فى الليل ! . .

وصاح صوت آخر خرج من الظلام :

— اقبض عليه جيدا !

انهما جروشنيتسكى والرئيس الخيّال .

فهويت على رأس هذا الاخير بضربة اسقطته على الارض ، ووليت هاربا بين الاشجار الكثيفة . كنت اعرف جميع ممرات الحديقة التى تغطى المنحدر امام بيوتنا . وسمعتهما يصرخان :

— سارق ، سارق ! اقبضوا على السارق ! . .

وسمعت صوت طلقة من بندقية ، وسقطت بين قدمىّ تقريبا باشورة مدخنة .

وبعد دقيقة كنت فى بيتى . خلعت ثيابى ،

واستلقيت على سريرى . وما كاد خادمى يقفل بالمفتاح ، حتى جاء جروشنيتسكى والرئيس يطرقان الباب .

وسمعت الرئيس يصيح :

— بتشورين ! انت نائم ؟ انت هنا ؟

فقلت محتدا :

— نعم ، انا نائم !

— انهض ، انهض ! هناك لصوص . . . شراكسة . . .

— اننى مصاب بزكام واخاف ان يدركنى برد .

وذهبا . لقد اخطأت اذ رددت عليهما . كان ينبغى ان ادعهما يبحثان عنى ساعة اخرى فى الحديقة . واطلقت اشارة الخطر اثناء ذلك . فوصل احد القوزاق من القلعة ، وكان هرج ومرج عمّ جميع الناس . اخذوا يبحثون عن الشراكسة بين جميع الادغال ، فلم يجدوا احدا ، طبعا . . . ولكن ظل كثيرون يعتقدون ان عشرين لصا من اللصوص على الاقل كان يمكن القبض عليهم فورا ، لو إن الحامية اظهرت مزيدا من السرعة والبراعة .

١٦ حزيران .

لم يكن للناس من حديث فى هذا الصباح ، عند البئر ، الا هجوم الشراكسة فى الليل . افرغت فى جوفى من مياه نارزان العدد المعين من الكئوس ، واخذت اتجول تحت اشجار الزيزفون فى الممر ، فلما كنت اذهب واجىء كثيرا ، لقيت زوج فيرا الذى عاد من بياتيجورسك منذ قليل ، فامسك بذراعى ، وذهبنا الى المطعم نتناول طعام الغداء . كان قلقا على زوجته اشد القلق . قال :

— لقد خافت فى الليلة البارحة كثيرا . . . هل كان من الضرورى ان لا يقع هذا الا اثناء غيابى ؟

جلسنا الى المائدة نتغدى ، على مقربة من الباب الذى يطل على غرفة فى الركن . كان فيها ما يقرب من عشرة شباب بينهم جروشنيتسكى . وهأنذا اسمع ، للمرة الثانية ، على سبيل المصادفة ، حديثا سيعين مصيره . كان لا يرانى ، فلا يمكن ان اقدر اذن انه قال ما قال عن خطة مقصودة . ولكن ذنبه

من اجل ذلك لا يصغر فى رأيى بل يكبر .

سأل احدهم :

— هل كانوا شراكسة حقا ؟ ثم هل رآهم احد ؟

فأجاب جروشنيتسكى :

— سأقص عليكم الحكاية كلها ، ولكن اياكم ان تشوا بى . هذا ما وقع : جاءنى امس رجل لن اسميه لكم يقول انه رأى شخصا يتسلل فى نحو الساعة العاشرة من المساء الى بيت الاميرتين ليجوفسكايا . لاحظوا ان الاميرة الام كانت هنا ، وان ابنتها بقيت وحدها فى المنزل . فذهبنا معا ، ورابطنا تحت نافذتها لنراقب ذلك الانسان السعيد .

اعترف اننى خفت ، رغم ان مؤاكلى كان منهمكا بتناول طعامه . فلقد كان يمكن ان يسمع شيئا يسوءه لو ان جروشنيتسكى حزر الحقيقة . لكنه ، وقد اعمته الغيرة ، لم تخطر له الحقيقة ببال . واستمر جروشنيتسكى يقول :

— وقد ذهبنا ببندقية مشحونة بخرطوشة بدون رصاص ، على سبيل التخويف . وظللنا ننتظر فى الحديقة حتى الساعة الثانية من الصباح ،

واخيرا ظهر رجل ، لا ندرى من اين جاء . لم يهبط من النافذة على كل حال . لان النافذة كانت موصدة . ولا بد انه مرّ من الباب الزجاجى وراء العامود . المهم اننا رأيناه يهبط من الشرفة . . . يا لهذه الاميرة ! آه من آنسات موسكو ! بمن يثق الانسان ، والى من يطمئن ؟ واردنا آن نقبض عليه ، ولكنه فر منا ، وولى هاربا كالارنب بين الادغال . وعندئذ اطلقت النار .

هنا قامت حول جروشنيتسكى جلبة من عدم التصديق ، فاردف يقول :

— ألا تصدقون ؟ اقسم لكم بشرفى اننى لم اقل غير الحقيقة ، واذا شئتم برهانا على ذلك سميت لكم الشخص .

فصاحوا به من كل جانب :

— سمه ، سمه ، من هو ؟

فقال جروشنيتسكى :

— هو بتشورين .

وفى هذه اللحظة ، رفع بصره ، فرآنى على العتبة ، امامه تماما . فاصطبغ وجهه

بلون القرمز . اقتربت منه ، وقلت له ، على مهل ، بصوت واضح :

— يؤسفنى كثيرا اننى لم ادخل الا بعد ان حلفت بشرفك تدعم احقر افتراء ، واحط اكذوبة . فلو اننى دخلت قبل ذلك لمنعك وجودى من اقتراف هذه الرذيلة الاخيرة زيادة على الرذائل التى سبقتها .

فنهض فجأة ، واراد ان يعلو علىّ فى القول ، فتابعت كلامى دون ان اغير من لهجتى شيئا :

— اسحب ما قلت فورا ، فانت تعلم انه محض اختلاق . ولا اعتقد ان عدم اهتمام سيدة بمزاياك اللامعة يستحق انتقاما حقيرا الى هذا الحد من الحقارة . فكر فى الامر ، فاذا اصررت على مزاعمك ، فقدت الحق فى ان تسمى رجلا شريفا ، وعرضت حياتك للخطر .

كان جروشنيتسكى واقفا امامى ، خافض البصر ، مضطربا اشد الاضطراب . ولكن الصراع بين ضميره وكبريائه لم يدم طويلا ، كما ان الرئيس الخيّال الذى كان جالسا الى جانبه ، لكزه بكوعه . فانتفض وقال بسرعة ، دون

ان يرفع بصره :

— ايها السيد العزيز ، حين اقول شيئا ، فاننى اعنيه ، واننى مستعد لتكراره . . . لست اخاف تهديداتك . وانا مستعد لكل شيء .

فاجبته ببرود :

— هذا ، قد سبق ان اظهرته .

ثم امسكت بذراع الرئيس الخيّال ، وخرجت من الغرفة .

قال الرئيس :

— ماذا تريد ؟

قلت :

— انت صديق جروشنيتسكى ، ولا شك انك ستكون مرافقه .

فانحنى الرئيس فى احتفال ، واجاب :

— نعم ، هذا صحيح ؛ بل ان من واجبى ان اكون مرافقه ، لان الاهانة التى وجهتها اليه تصيبنى انا ايضا .

واضاف وهو ينصب قامته المقوسة قليلا :

— لقد كنت معه فى الليلة البارحة .

— ها ! هذا انت اذن من هويت على

رأسه بضربة طائشة .

فاصفر من ذلك وجهه ، ثم ازرق ، وارتسمت عليه آثار غضب مكبوح . واضفت اقول ، وانا احييه فى لطف ولباقة ، متظاهرا باننى لم الاحظ غضبه :

— يشرفنى ان ابعث اليك اليوم بمرافقى .

وخرجت من المطعم ، فوجدت زوج فيرا . اعتقد انه كان ينتظرنى .

فشد على يدى بعاطفة تشبه ان تكون اعجابا ، وقال والدموع فى عينيه :

— مرحى لك ايها الفتى الباسل ! لقد سمعت كل شىء . . . هذا الجرو ! يا له من عاق . . . كيف يُستقبلون بعد هذا فى بيت محترم ! الحمد لله على اننى ليس لى بنت ! ولكن تلك التى تجازف بحياتك من اجلها ستكافئك .

ثم اضاف يقول :

— كن واثقا كل الثقة من كتمانى للامر ، ما لزم الكتمان . لقد كنت شابا ، انا ايضا ، وخدمت فى الجيش ، واعرف ان الانسان يجب

ان لا يتدخل فى هذه الانواع من الامور . الى اللقاء .

مسكين ! يفرح لانه ليس له بنت . . .

ومضيت رأسا الى فرنر ، ووجدته فى بيته ، فقصصت عليه كل شىء : علاقاتى بفيرا ، بالاميرة الصغيرة ، والحديث الذى سمعته والذى علمت منه ما ينتويه هؤلاء السادة من العبث بى والسخر منى ، اذ يريدون ان نطلق خرطوشة فارغة . ولكن الامر خرج الآن من نطاق المزاح . ولا شك انهم ما كانوا يتوقعون هذا الحل .

فوافق الدكتور على ان يكون مرافقى ، وذكرت له بعض المعلومات المتصلة بشروط المبارزة ، وقلت له ان يلح على ان يتم الامر بلا جلبة ، لاننى اذا كنت مستعدا لمجابهة الموت ما شاءوا ذلك ، فلست ابدا مستعدا لافساد مستقبلى فى هذه الحياة الى الابد .

ثم عدت الى منزلى . وجاء الىّ الدكتور بعد ساعة من ذلك ، يقص علىّ ما اسفرت عنه مهمته . قال :

— انها مؤامرة مدبرة حقا . لقد وجدت

عند جروشنيتسكى ، الرئيس الخيّال وسيدا آخر يفوتنى اسمه . وتوقفت لحظة فى حجرة المدخل اخلع نعلى ، فسمعت صراخا وشجارا فى الداخل . كان جروشنيتسكى يقول : «مستحيل ، لقد اهاننى على ملأ من الناس» . فاجابه الرئيس : «وما الذى يضيرك فى هذا ؟ سأتحمل انا العبء كله . لقد كنت مرافقا فى خمس مبارزات ، واعرف كيف ادبر الامر . لقد فكرت فى كل شىء . من فضلك لا تمنعنى . سيخاف : وسيفيده ذلك . . . ولماذا تعرض نفسك للخطر مع انك تستطيع تحاشيه ؟ . .» وهنا دخلت ، فصمتوا ، وطالت مباحثاتنا . واليك ما انتهينا اليه من قرار . هناك ، على مسافة خمسة فرستات ، فج منعزل سيذهبون اليه غدا فى الساعة الرابعة من الصباح ، ونذهب نحن بعدهم بنصف ساعة . وقد اصر جروشنيتسكى على ان تطلقا على مسافة ست خطوات . وسيموت احدكما ، فيُسند ذلك الى الشراكسة . ولكننى اظن ان المرافقين قد عدّلوا خطتهم الاولى قليلا ، فهم يريدون ان يشحنوا فقط مسدس

جروشنيتسكى بالرصاص . جريمة عن سابق عمد وتصميم . . . ولكن فى ايام الحرب ، ولا سيما بآسيا ، كل الحيل مباحة . ومع ذلك فان جروشنيتسكى يبدو لى اقل خسة من اصدقائه . ما رأيك ؟ هل علينا ان نبين لهم اننا اكتشفنا كل شىء ؟

— ابدا يا دكتور ! اطمئن بالا ، فلن يغدروا بى .

— ماذا تنوى ان تفعل ؟

— هذا سرى !

— كن على حذر . . . لاحظ انكما على بعد ست خطوات !

— دكتور ، انتظرك غدا فى الساعة الرابعة ، ستكون الخيل مهيأة . . . الى اللقاء !

قبعت فى غرفتى مساء فجاءنى الخادم يدعونى الى الاميرة فطلبت منه ان يقول لها اننى مريض .

. . . .

دقت الساعة الثانية من الصباح . . . ولم يغمض لى جفن . . . يجب ان انام مع ذلك ، حتى لا تهتز يدى . ولكن على بعد ست خطوات ،

يصعب ان تخيب الطلقة . آه ! يا سيد جروشنيتسكى ! لن تنفعك حيلتك . . . انقلبت الآية ، وسوف يستلم كل منا دور الآخر . علىّ انا الآن ان الاحظ فى وجهك الممتقع علامات خوفك الخفى . لماذا عينت انت نفسك هذه المسافة المشئومة ، مسافة ست خطوات ؟ تتخيل اننى سأقدم لك رأسى لقمة سائغة ؟ ولكننا سنضرب القرعة وعندئذ . . . عندئذ . . . ماذا لو حالفه الحظ ؟ ماذا لو خاننى نجمى ؟ . . هذا ممكن جدا . لقد خدم الحظ نزواتى الى الآن . ولكن الثبات نادر فى السماء ندرته فى الارض .

حسن ، اموت ان كان يجب ان اموت ! ولن تكون خسارة العالم فىّ عظيمة . وانا ، ألست ضجرا اعمق الضجر ؟ اننى كرجل يتثاءب فى حفلة راقصة ، ثم لا يمضى الى النوم ، لا شىء الا لان عربته ليست هناك . ولكن العربة تقدمت . . . عموا مساء ! . .

استعرضت ماضىّ كله ، وتساءلت : لماذا عشت ؟ ولاية غاية خلقت ؟ . . ذلك ان

ثمة غاية ، ولا شك انها غاية كبيرة ، لانني اشعر بقوى هائلة فى نفسى . . . ولكننى لم افهم مصيرى الذى خلقت له ، بل كان يجرنى سراب اهواء عقيمة عاقة ، خرجتُ من بوتقتها صلبا باردا كالفولاذ ، ولكننى فقدت الى الابد حرارة الحماسة النبيلة ، وهى اجمل ما فى الحياة . وبعد ذلك ، كم مرة كنت كفأس فى يد القدر ! فانقضضت كالحسام على رؤوس الضحايا ، دون كره فى كثير من الاحيان ، ودون شفقة فى جميع الاحيان . . . وحتى لم يسعد احدا ، لانني لم اضحّ بشىء فى سبيل من احببتهن . احببت لنفسى ، للذتى الخاصة . كنت لا ازيد على ارواء مطالب قلبى الغريبة ، واغتذى بعواطف ضحاياى وبحبهن الرقيق ، وبافراحهن وآلامهن ، اغتذى من ذلك كله فى شراهة ، دون ان اتوصل الى الشبع قطّ ، مثلى كمثل ذلك الشقى الذى هده الجوع ، ثم نام ، فاذا هو يرى فيما يرى النائم مآكل شهية فاخرة ، وخمورا معتقة طيبة ، فيأخذ يلتهم من هذه الهدايا السحرية التى اوجدها خياله ما شاء له

الالتهام ، فيشعر بالراحة والرضى ، ولكنه ما يكاد يفيق حتى تغيب الرؤيا ، ويحل محلها الجوع مرة اخرى ، اقوى مما كان ، ويحل اليأس !

قد اموت غدا ! . . لن يبقى عندئذ على وجه الارض شخص فهمنى . . . بعضهم يظننى اسوأ مما كنت ، وبعضهم الآخر يحسبنى خيرا مما كنت . . . سيقول بعضهم : كان نعم الفتى ، وسيقول بعضهم الآخر : كان رجلا وغدا حقيرا . انهم جميعا على خطأ . وبعد ، فهل تستحق الحياة ان يعيشها الانسان ؟ ولكننا نعيش على كل حال ، من قبيل حب الاطلاع ، ننتظر جديدا . . . بؤس وضلال !

* * *

اننى فى قلعة ن . . . منذ شهر ونصف شهر . لقد ذهب مكسيمتش الى الصيد . . . وانا اجلس الآن وحدى الى النافذة . هذى سحب شهباء تغطى الجبال . والشمس تبدو من خلال الضباب بقعة صفراء ، كان الطقس بارداً والريح تصفر ، وتهز المصاريع ! . اننى اشعر بضجر ! . . سأتم كتابة يومياتى التى حالت

بينى وبين اتمامها احداث غريبة كثيرة .

لقد قرأت الصفحة الاخيرة . انها تضحكنى على كل حال . كنت اظن اننى سأموت . ولكن ذلك كان مستحيلا ، ذلك اننى لم اكن قد تجرعت كأس المرارة حتى آخر قطرة . والآن اشعر اننى سأعيش مدة طويلة ايضا .

كم يبدو لى الماضى واضحا قويا فى ذاكرتى ! ان الزمن لم يمح منه خطا ولا لونا !

فى الليلة التى سبقت المبارزة ، ما ازال اذكر ذلك ، لم استطع ان انام دقيقة واحدة . . . وما استطعت ان اكتب خلال بضع لحظات الا بشق النفس . كنت فريسة غم خفى تملك نفسى . وبعد ان درعت غرفتى جيئة وذهابا مدة ساعة كاملة ، جلست ، وفتحت رواية لوالتر سكوت كانت تثوى على منضدتى منذ مدة طويلة : انها رواية «بيورتانيو ايقوسيا» . بذلت فى اول الامر شيئا من الجهد للقراءة ، ولكننى ما لبثت ان انجرفت مع هذه القصة الخيالية الرائعة ، فنسيت كل شىء . . .

هل يمكن ان لا يكافأ الشاعر الايقوسى فى

الحياة الاخرى بلحظات من هذه السعادة الخالدة التى يهيئها لنا كتابه ؟ . .

وأخيرا طلع النهار . كان اضطرابى قد هدأ قليلا . ونظرت الى نفسى فى المرآة . كان وجهى الذى يحتفظ بآثار ارق مؤلم شاحبا شحوبا شديدا . ولكن عينى ، رغم انهما محاطتان بهالة مزرقّة ، كانتا تلتمعان ببريق من الزهو والغيظ . كنت راضيا عن نفسى .

امرت ان تسرج الخيل ، وارتديت ثيابى ، واسرعت الى الحمام ، وغطست فى نارزان البارد الفائر ، فشعرت بارتداد قواى الجسمية والمعنوية الىّ . وخرجت من الماء ، غضا مرحا كأننى ذاهب الى حفلة راقصة . هل تدعون بعد ذلك ان النفس لا تتعلق بالجسم ! . .

فلما عدت الى بيتى وجدت الدكتور ينتظرنى . كان يرتدى سروالا اشهب ، ويكسو رأسه بقلبق شركسى . فلما رأيت جسمه الصغير تحت هذا القلبق الكبير من الفراء ، انفجرت ضاحكا . ليس فى شكله شيء من ملامح القتال والمقاتلين ، مع ان وجهه بدا لى فى هذه اللحظة اطول

مما كنت اراه عادة .

— لماذا اراك حزينا يا دكتور ؟ الم تكن تودّع مئات من المسافرين الى العالم الآخر ، دون ان تبالى ؟ هب اننى مصاب بالحمى الصفراء ، وان من الممكن ان اموت او ان ترتد اليّ عافيتى ، وكلا الامرين طبيعى ، فحاول ان تعدنى شخصا مصابا بمرض من الامراض ، وان تتصور ، انك لا تعرف هذا المرض ، فعندئذ سيثور فيك حب الاستطلاع الى ابعد الحدود ! انك تستطيع الآن ان تجرى عليّ ملاحظات فيزيولوجية فى غاية الخطورة . أليس انتظار موت عنيف مرضا فى حقيقة الامر ؟

فاجأته هذه الفكرة ، وعاد اليه صفاء مزاجه ، وركب كل منا حصانه ، وتمسك فرنر بالاعنة بكلتا يديه ، وسرنا نعدو . وما هى الا طرفة عين حتى اجتزنا القلعة ، وقطعنا القرية ، ودخلنا الفج الذى يتلوى فيه الطريق ، تغطيه الاعشاب الكبيرة ، وتعترضه فى كل لحظة ساقية صاخبة يجب اجتيازها مخاضا ، لسوء حظ الدكتور الذى كان يحلو لحصانه ان يتوقف

فى وسط الساقية تماما .

لا اذكر اننى شهدت صباحا اكثر زرقة وطراوة من ذلك الصباح ! كانت الشمس تطلع من وراء الذرى المخضوضرة ، . وكانت حرارة اشعتها الاولى الممتزجة برطوبة الليل المنصرم ، تنفذ الى جميع حواسى فى خدر عذب . ان ضوء النهار الذى يولد لما ينفذ الى الفج بعد ، ولكنه يذهب رؤوس الصخور التى كانت تمتد فوق رؤوسنا ، يمنة ويسرة . وكانت الشجيرات ذات الاوراق الكثيرة ، التى تنمو فى الشقوق العميقة من الصخور ، تمطرنا برذاذ من الماء فضى ، متى هبت نسمة خفيفة . اذكر اننى احببت الطبيعة فى تلك اللحظة اكثر مما احببتها فى اى وقت مضى من حياتى . كنت اراقب كل قطرة من قطرات الندى تخفق على اوراق العنب وتعكس ملايين الاشعة المتلونة بالوان قوس قزح ! وكان بصرى يذهب الى الآماد البعيدة التى تمتلئ بالبخار ، فى شراهة ما بعدها شراهة ! هنالك يبدو الطريق كأنه يضيق ثم يضيق . . . والصخور التى تزداد زرقتها ورهبتها

تشكل ما يشبه ان يكون جدارا لا يمكن اجتيازه .
كنا نسير صامتين .

وسألنى الدكتور فجأة :

— هل معك وصيتك ؟

— لا .

— واذا قتلت ؟ . .

— اطمئن بالا . . . الذين سيرثوننى ، سيعرفون بانفسهم .

— ماذا أما من صديق تريد ان تقول له وداعا ؟ . .

فهززت رأسى .

— أما من امرأة تريد ان تترك لها ذكرى ؟ . .

— هل تريد يا دكتور ان افتح لك نفسى ؟ . . لقد تجاوزت السن التى اذا مات فيها الانسان ، مات وهو يلفظ اسم حبيبته الغالية ، ويهدى الى صديقه خصلة من شعره معطرة او غير معطرة . حين افكر فى احتمال موت قريب ، لا افكر الا فى نفسى وحدها . أما بعض الناس فلا يفعلون حتى ذلك . مالى وللاصدقاء الذين سرعان ما ينسوننى ، وقد يلفقون فى حقى ما لا

يعلمه الا الله من اقاويل ، وما لى وللنساء اللواتى حين سيقبلن رجلا آخر ، سيسخرن منى حتى لا يغار صاحبهن من ميت . ومن عواصف الحياة ، رجعت ببعض الافكار فقط ، ولم ارجع بعاطفة واحدة . وانا اعيش بالعقل لا بالقلب منذ مدة طويلة . اننى ازن أهوائى وافعالى واحللها بنوع من حب الاستطلاع الحيادى البارد . ان فى نفسى رجلين : واحدا يعيش باوسع معانى هذه الكلمة وآخر يفكر ويحكم على الاول . بعد ساعة ، قد يقول لك احدهما وداعا ، ويقول للدنيا وداعا ؛ والثانى . . . الثانى ؟ . . انظر يا دكتور ، ألا ترى على اليمين فوق الصخرة ، ثلاثة اشباح سوداء ؟ انهم خصومنا ، فيما اظن ؟ . .

وحثثنا الخطى .

كان على سفح الصخرة ثلاثة احصنة ربطت بأشجار ، فربطنا حصانينا نحن ايضا ، واجتزنا ممرا ضيقاً ، فوصلنا الى المكان الذى كان ينتظر فيه جروشنيتسكى ، والرئيس الخيال وشخص يدعى ايفان اجناتييفيتش ، كنت اجهل يومئذ لقبه .

قال لى الرئيس وهو يبتسم ابتسامة ساخرة :

— لقد تأخرت .

فأخرجت ساعتى ، واريته اياها .

فاعتذر قائلا ان ساعته متقدمة .

وساد صمت شاق ، خلال بضع دقائق ، ولكن الدكتور قطع الصمت متجها بالكلام الى جروشنيتسكى :

— ايها السيدان ، لقد اظهرتما كلاكما استعدادكما للمبارزة ، فخضعتما بذلك لقواعد الشرف . ويلوح لى انكما تستطيعان الآن ان تتفاهما وان تحلا هذه المشكلة على صفاء ومحبة .

فقلت :

— انا مستعد لذلك كل الاستعداد .

فغمز الرئيس جروشنيتسكى الذى ظن اننى خائف ، فشمخ بانفه ، رغم انه كان الى ذلك الحين ممتقع اللون ، ورفع بصره نحوى . هذه اول مرة ينظر فيها الىّ منذ وصلنا . ولكن كان فى نظرته شىء من القلق يدل على صراع فى نفسه . قال :

— ابسط شروطك ، وثق ان كل ما استطيع ان افعله من اجلك ، سأ . . .

— هذه شروطى : ان تسحب اليوم على رؤوس الاشهاد افتراءاتك ، وان تعتذر لى . . .

— ايها السيد ، انه ليدهشنى ان تجرؤ على طلب شىء كهذا .

— وما عسى ان اطلب غيره ؟

— هياً ، انتهى الامر ، سنتبارز .

فهززت كتفى ، وقلت :

— اعتقد . . . ولكن لاحظ ان احدنا سيقتل لا محالة .

— اتمنى ان تكون انت المقتول .

— وانا واثق من العكس .

فاضطرب واحمر ثم انفجر يضحك بتصنع .

وامسك الرئيس بذارعه ، وجرّه بعيدا عنا ، وتحادثا طويلا بصوت خافت . لقد كنت حين وصولى هادئا ، ولكن هذا كله اخذ يخرجنى عن طورى .

واقترب منى الدكتور ، وقال لى بصوت واضح الاضطراب :

— يظهر انك نسيت مؤامرتهم ؟ انا لا اعرف كيف يشحن المسدس ، ولكن من اجل هذا الظرف . . . يا لك من رجل عجيب ! قل لهم انك تعرف مؤامرتهم . . . وعندئذ لا يجرؤون . . . أتريد اذن ان يسقطوك كعصفور ؟ . .

— اطمئن يا دكتور ، ارجوك ، ودعنى اتصرف . . . سأدبر الامر بحيث لا يفوقوننا فى شىء . . . دعهم يتهامسون .

ثم قلت بصوت عال :

— ايها السادة لقد غدا الامر مضجرا حقا . اذا كان علينا ان نقتتل ، فلنقتتل . . . لقد اتسع وقتكم للتفاهم امس . . .

فقال الرئيس :

— نحن مستعدون . الى مكانيكما ايها السيدان . دكتور هل لك ان تقيس الخطوات الست ؟ . .

فكرر ايفان اجناتييفيتش يقول بصوت حاد :

— الى مكانيكما ايها السيدان .

قلت :

— اسمحوا لى ! ان لى شرطا آخر . ما

دمنا سنقتتل قتال موت ، فيجب ان نعمل كل ما نستطيع عمله من اجل ان يبقى الامر سرا ، ومن اجل ان يطمئن بال مرافقينا . ما رأيكم فى هذا ؟

— موافقون .

— اليكم ما تخيلته . هل ترون هناك ، فوق ، على اليمين عند رأس هذه الصخرة المنحدرة ، تلك السطيحة الضيقة ؟ ان المسافة بين الذروة والقاعدة تبلغ ما يساوى ١٢٠ ذراعا ، او يزيد . والصخور فى الاسفل ذات رؤوس حادة . اقترح ان يقف كل منا على حافة تلك السطيحة ، وبذلك تصبح اصغر اصابة قاتلة . ولا شك ان هذا يتفق مع رغباتكم ، لانكم انتم عينتم مسافة الخطوات الست . فالذى يجرح منا يسقط فى الهاوية ، فيموت حتما . ويتولى الدكتور اخراج الرصاصة ، ويسهل عندئذ تعليل الموت بانه زلة قدم . ونترك للحظ ان يعين البادئ باطلاق النار . ولا بد لى ان اقول لكم فى الختام اننى لن اقتتل على غير هذه الصورة .

فقال الرئيس :

— موافقون .

قال ذلك ، وهو ينظر نظرة ذات دلالة الى جروشنيتسكى الذى هز رأسه بالموافقة . كان وجه جروشنيتسكى يتغير تعبيره من لحظة الى اخرى . لقد وضعته فى موقف صعب . كان يمكنه ، لولا اقتراحى ذاك ، ان يصوب رصاصة الى ساقى وان لا يجرحنى الا جرحا يسيرا ، فيسرّه عندئذ ان يكون قد انتقم منى ، دون ان يحمل ضميره وزرا ثقيلا . اما الآن ، فلم يبق الا ان يطلق رصاصته فى الهواء ، او ان يصبح قاتلا ، اللهم الا ان يعدل عن مشروعه الحقير ، ويقاتلنى قتال الند للند ، معرضا نفسه لما يعرضنى له من خطر . لا يمكن ان اتمنى ان اكون فى مثل موقفه فى تلك اللحظة ! لقد جرّ الرئيس بعيدا عنا ، واخذ يكلمه فى حرارة . لقد رأيت اضطراب شفتيه الشاحبتين . ولكن الرئيس اشاح بوجهه عنه ، وهو يبتسم ابتسامة الاحتقار ، وقال له بصوت يكاد يكون عاليا :

— انت ابله ! . . لا تفهم شيئا ! هيا بنا

ايها السادة .

كان هناك ممر ضيق فى المنحدر بين الاشواك ، وكان هنالك شظايا صخور ، تكوّن سلما طبيعيا ذا درجات مهتزة ، فكنا ، ونحن نصعد ، نتمسك بالاشجار . كان جروشنيتسكى يسير امامنا جميعا ، يتبعه مرافقاه ، وكنت انا والدكتور نسير فى المؤخرة .

قال لى الدكتور وهو يشد على يدى بقوة :

— انك لتدهشنى . دعنى اجس نبضك . اوه ، اوه ، انت محموم ! . . ولكن وجهك لا يظهر عليه اى أثر من ذلك . . . عيناك وحدهما تلمعان اكثر مما تلمعان عادة !

وفجأة تدحرجت بين اقدامنا حجارة صغيرة ، واحدث تدحرجها ضجة . ما هذا ؟ لقد زلت بجروشنيتسكى قدمه ، وانكسر الغصن الذى تمسك به ، فكاد يهوى على ظهره الى اسفل ، لولا ان شاهديه امسكا به .

صحت به :

— تأن . . . لا تقع قبل الآوان . هذا نذير سوء . تذكر يوليوس قيصر !

ووصلنا اخيرا الى قمة الصخرة الناتئة . كان السطح مغطى برمل ناعم ، كأنه اعد للمبارزة . ومن حولنا ذرى الجبال تتلاحق كقطيع لا حصر له ، وتكاد تغرق فى ضباب الصباح المذهب : وفى الجنوب شمخت كتلة البروز البيضاء فى نهاية الذرى المتجلدة التى تطوف بينها سحب على صورة السبائخ مهرولة من الشرق . تقدمت حتى حافة السطح ، ونظرت الى تحت . كاد ينتابنى من ذلك دوار . لا شك ان القاع مظلم بارد كالقبر . ان اسنان الصخور التى اقتلعتها العواصف وهوى بها الزمن تنتظر فريستها .

كان السطح الذى يجب ان نقتتل عليه مثلثا متساوى الاضلاع تقريبا . فقسنا ست خطوات ، ابتداء من الزاوية الناتئة ، واتفقنا على ان الذى سيتعرض لرصاص خصمه قبل الآخر ، هو الذى سيقف عند تلك الزاوية مديرا ظهره الى الهاوية . فاذا لم يقتل ، تبادل الخصمان مكانيهما .

وقد قررت ان اترك لجروشنيتسكى كل التفضيلات . كنت اريد ان امتحنه ، لعل

شرارة من الاريحية تستيقظ فى نفسه ، فيتم كل شىء على ما احب . ولكن كبرياءه وضعف ارادته انتصرا . . . فأردت ان اكون على حق فى ان لا اترفق به اذا رحمنى الحظ . من ذا الذى لا يعقد مثل هذه الاتفاقات مع ضميره ؟

هتف الرئيس :

— القرعة ، يا دكتور .

فاخرج الدكتور من جيبه قطعة من عملة فضية واظهرها .

فسارع جروشنيتسكى يصيح كمن ايقظته ، فجأة ، ضربة مباغتة من صديق :

— طرة .

فقلت انا :

— نقش .

قذف قطعة النقود فدارت ثم سقطت على الارض ترن فاسرع الجميع ينظرون اليها .

قلت لجروشنيتسكى :

— حظك طيب . انت اول من يطلق ! ولكن اعلم انك ان لم تقتلنى ، فسأقتلك انا ،

اقسم لك .

فاحمر وجهه . انه يخجل ان يقتل رجلا اعزل . وحدقت اليه . خيلّ اليّ فى لحظة من اللحظات انه سيرتمى على قدمى يطلب العفو والمغفرة . ولكن كيف يعترف بخطة بلغت هذا المبلغ كله من الجبن والحقارة ؟ بقى له مخرج واحد ، هو ان يطلق رصاصته فى الهواء . كنت واثقا من انه سيفعل ذلك . شىء واحد كان يمكن ان يمنعه ، هو تصوره اننى قد اطلب لقاء آخر .

همس بى الدكتور وهو يشدنى من كمى :

— آن الاوان . ان لم تقل لهم فى هذه اللحظة انك تعرف نيتهم فلن تقول ذلك لهم ابدا . . . سيضيع كل شىء ! انظر ، انه يشحن المسدسين . اذا لم تقل انت ، فسأتولى انا . . .

فاجبته اقول ، وانا اصده بيدى :

— اياك . والا افسدت كل شىء . لقد وعدتنى بان تدعنى اتصرف . ما الذى يهمك ؟ لعلنى اريد ان اموت . . .

فنظر اليّ دهشا ، وقال :

— هذا شيء آخر ! . . ولكن لا تشكني اذن في السماء ! . .

وفي اثناء ذلك كان الرئيس قد شحن المسدسين ، فمد احدهما الى جروشنيتسكي وهو يبتسم ، بعد ان همس في اذنه بشــيء ، واعطاني الآخر .

وقفت على زاوية السطيحة ، مستندا قويا على ساقي اليسرى فوق الصخرة ، ومائلا قليلا الى الامام ، حتى لا اسقط في الهاوية اذا جرحت جرحا يسيرا .

ووقف جروشنيتسكي امامي ، حتى اذا أُعطيت الاشارة ، رفع مسدسه . كانت ركبتاه ترتجفان . وصوّب مسدسه الى جبهتي تماما . . .

عندئذ التهب في نفسي حنق لا يغالب .

وفجأة ، ارخى مسدسه ، والتفت يقول لمرافقه بصوت مختنق ، وقد امتقع وجهه واصفر اصفرارا شديدا :

— لا استطيع .

فصاح به الرئيس :

— جبان !

وانطلقت الرصاصة ، فاصابتنى بخدش عند الركبة ، فتقدمت بضع خطوات الى امام بالرغم منى ، كى ابتعد عن الحافة باقصى سرعة .

قال الرئيس :

— يا عزيزى جروشنيتسكى ، لقد طاشت رصاصتك . . . خسارة . . . وعليك انت الآن ان تتعرض للرصاص . ولكن ، عانقنى قبل ذلك ، فلن نلتقى بعد الآن .

وتعانقا . فما اكثر ما بذل الرئيس من جهد حتى لا ينفجر ضاحكا . واضاف يقول ، وهو ينظر الى جروشنيتسكى متخابثا :

— ولكن لا تخف ، فكل شىء من هذا العالم باطل : الطبيعة حمقاء ، والقدر غبى ، والحياة لا تساوى شروى نقير ! . .

حتى اذا فرغ من قول هذه العبارة التراجيدية ، بكل ما يقتضيه الموقف من جد ورصانة ، عاد الى مكانه . وجاء ايفان اجناتيفييتش يعانق جروشنيتسكى بدوره ، والدموع تترقرق فى عينيه . ان جروشنيتسكى واقف وحده الآن امامى . لم

استطع يوما ان افسرّ تلك العواطف التى كانت تغلى فى صدرى ، فى تلك اللحظة . انها الحنق الذى يوّلده جرح الكرامة ، انها الاحتقار والغضب الناشئان عن التفكير فى ان هذا الرجل الذى ينظر الىّ الآن فى ثقة واطمئنان وجرأة هادئة ، قد اراد منذ دقيقتين ان يقتلنى كما يُقتل الكلاب ، دون ان يعرض نفسه لاى خطر ، ولو قد كان جرحى عند الركبة ابلغ من ذلك لتدحرجت الى اعماق الهوة لا محالة .

وظللت اتفرس فى وجهه طويلا ، علنى اجد فيه اثرا من آثار الندامة ، ولو يسيرا ، ولكن بدا لى انه يحاول ان يكبت ابتسامة ، فقلت له :

— انصحك ان تصلىّ قبل ان تموت .

— لا تهتم بروحى اكثر مما اهتممت بروحك . اننى لا اطلب اليك الا شيئا واحدا ، هو ان تطلق رصاصك بسرعة .

— انت ترفض اذن ان تسحب افتراءاتك ، وان تقدم الىّ اعتذارك ؟ فكر فى الامر جيدا ! ألا يعذبك ضميرك ابدا ؟

فصاح الرئيس يقول :

— يا سيد بتشورين ، ليس شأنك هنا ان تسمع اعترافات . . . عفوك اذا ابديت هذه الملاحظة . . . يجب ان تنتهى باقصى سرعة ، فلقد يمر احد فى الفج فيرانا .

— طيب . يا دكتور ، تعال الى هنا . . .

فاقترب فرنر منى . مسكين ! ان صفرة وجهه اشد من صفرة وجه جروشنيتسكى منذ عشر دقائق .

ونطقت بالكلمات التالية ، باحرف واضحة ، وصوت عال متميز ، كما يُنطق بالحكم بالاعدام :

— يا دكتور ، لقد نسى هؤلاء السادة — من فرط السرعة طبعا — ان يضعوا فى مسدسى رصاصة . فارجوك ان تشحن المسدس كما ينبغى !

فصاح الرئيس :

— مستحيل ، مستحيل ! لقد شحنت المسدسين كليهما بيدى . فاذا انزلقت رصاصة مسدسك ، فليس هذا ذنبى . وليس من حقك ان تشحن المسدس مرة اخرى ، ليس من حقك ذلك . . . هذا مخالف للقواعد كل

المخالفة . ولن اسمح به . . .

فقلت للرئيس :

— حسنا . اذا كان الامر كذلك ، فسأقتتل معك على تلك الشروط نفسها .

فاضطرب .

وكان جروشنيتسكى ينتظر ، خافض الرأس : وكان مكفهر الوجه حزينا .

وقال اخيرا للرئيس الذى كان يريد انتزاع المسدس من يد الدكتور :

— دعهما ، فانت تعرف انهما على حق !

وحاول الرئيس عبثا ان يشير الى جروشنيتسكى ، ولكن جروشنيتسكى كان لا يريد ان يرى شيئا .

وفى اثناء ذلك شحن الدكتور المسدس ، واعطانيه ، فلما رأى الرئيس ذلك ، بصق وهو يضرب الارض بقدمه ، وقال يخاطب جروشنيتسكى :

— انت غبى ، يا صديقى ، انت غبى مضاعف ! . . كان يجب ان تطيعنى ، ما دمت قد اعتمدت علىّ . . . تستحق . . . افطس الآن كذبابة ! . .

ثم ادار ظهره ، وابتعد وهو يدمدم :

— هذا مخالف للقواعد ، مهما تقولوا . . .

قلت :

— جروشنيتسكى ، ما يزال فى الوقت متسع ، اسحب كلامك ، اغفر لك كل شىء . لم تستطع ان تضحك علىّ ، وقد رُدّت كرامتى الىّ . تذكر اننا كنا صديقين . . .

فالتهب وجهه ، والتمعت عيناه ، وقال :

— اطلق الرصاص ! اننى احتقر نفسى ، واكرهك . وان لم تقتلنى الآن ، فسأغتالك ذات ليلة . لا مكان على الارض لكلينا معا . . .

فاطلقت . . . .

وحين تبدد الدخان ، لم يكن جروشنيتسكى على السطيحة . وليس ثمة الا عمود من الغبار ما يزال يدور عند حافة الهوة .

ضرخ الجميع . وقلت لفرنر :

* Fenita la comedia!-

فلم يجب ، بل اشاح بوجهه فى ذعر . فهززت كتفى ، وودعت مرافقَى جروشنيتسكى .

* انتهت الكوميديا !

وحين هبطت الممر الضيق ، لمحت جثة خصمى الدامية ، بين صخرتين ، فاغمضت عينى ، بالرغم منى . . .

وفككت حصانى ، وعدت بخطوات بطيئة . كنت اشعر كأن صخرة ثقيلة تجثم على صدرى . وبدت لى الشمس كابية ، ولم تدفئنى اشعتها .

وقبل ان اصل الى القرية ، انعطف يمنة ، الى الفج . كنت لا استطيع ان ارى احدا ، كنت احب ان اظل وحيدا . وارخيت الاعنة ، ومال رأسى على صدرى ، وظل الحصان يسير مدة طويلة ، حتى وصلت اخيرا الى مكان لا اعرفه . فأدرت حصانى الى وراء ، وقفلت راجعا . وحين وصلت الى كيسلوفودسك ، كانت الشمس قد مالت الى الغروب . . . وكنت منهك القوى خائرا .

ابلغنى خادمى ان فرنر قد جاء ، ثم مد الىّ رسالتين ، احداهما من الدكتور ، والثانية . . . من فيرا .

ففضضت الاولى ، وقرأت فيها مايلى :
«كل شىء على ما يرام . جاءوا بالجثة

المشوهة . . . واستخرجت الرصاصة من الصدر . والناس جميعا موقنون ان الموت كان بقضاء وقدر . ولكن القائد ، الذى لا شك انه عرف شيئا عن مشاجرتكما ، هز رأسه ، غير انه لم يقل شيئا . ليس ثمة اى دليل ضدك ، وتستطيع ان تنام هادئ البال ، اذا استطعت . . . الى اللقاء !»

ومكثت طويلا اتردد فى فض الرسالة الثانية . . . ماذا يمكن ان تكتب الىّ ؟ اننى لاتوجس شرا . . .

هذه هى الرسالة التى نقشت كل كلمة من كلماتها فى ذاكرتى الى الابد :

«اكتب اليك وانا على يقين من اننا لن نلتقى بعد الآن ابدا . حين افترقنا منذ بضع سنين ، كنت اتصور ذلك ايضا . ولكن السماء ارادت ان تجربنى مرة اخرى ، ولم استطع ان اصمد للتجربة ، بل خضع قلبى الضعيف مرة اخرى للنداء المعروف . . . لعلك لن تحتقرنى ، على الاقل ؟ ستكون هذه الرسالة وداعا واعترافا فى آن واحد : يجب ان ابوح لك بكل ما

تراكم فى قلبى منذ عرفتك . لا اريد اتهامك . فقد سلكت معى كما كان يمكن ان يسلك اى رجل آخر . احببتنى كما يحب المرء رزقا يملكه وينتفع به ، احببتنى نبعا من الانفعالات واللذات والاحزان التى تتعاقب وتكون الحياة ، بدونها ، مضجرة رتيبة . لقد فهمت ذلك منذ البداية . . . ولكنك كنت شقيا ، وضحيت انا بنفسى ، آملة ان تقدر تضحيتى يوما ، وان تفهم عاطفتى العميقة التى لا اشترط لها شيئا . ثم مضى على ذلك وقت طويل ، نفذت خلاله الى جميع اسرار نفسك ، فعرفت ان املى كان عبثا . . . آه ما اشد ما تألمت ! ولكن حبى كان قد مازج نفسى واتحد بها . . . فاظلم ، ولكنه لم ينطفئ .

اننا نفترق الآن فراقا لا لقاء بعده . ولكنك تستطيع ان تكون على يقين من اننى لن احب فى حياتى احدا غيرك : لقد استنفدت نفسى فى حبك كل كنوزها ودموعها وآمالها . وان امرأة عرفتك لا تستطيع ان تنظر الى غيرك من الرجال الا فى شىء من الاحتقار ، لا لانك

خير منهم جميعا ، لا ، لا ، بل لان فيك شيئا ليس فى غيرك ، شيئا خفيا متكبرا . ان فى صوتك ، مهما تقل ، لقوة لا سبيل الى مقاومتها . ما من احد يستطيع بمثل هذا الثبات والدوام ان يفرض حبه ، وان يجعل الشر نفسه جذابا الى هذه الدرجة ، وان تعد نظرته بكل هذه السعادة ! ما من احد يستطيع ان يستفيد من مزاياه خيرا مما تفعل انت ، وما من احد يبلغ من الشقاء حقا ما تبلغ ، اذ ما من احد يحاول ، ان يقنع نفسه بخلاف ذلك .

وبعد ، يجب ان ابسط لك سبب هذا السفر السريع . سيبدو لك هذا السبب غير ذى بال ، لانه لا يتعلق باحد سواى .

دخل علىّ زوجى هذا الصباح ، وقصّ علىّ المشاجرة التى وقعت بينك وبين جروشنيتسكى . وكان لا بد ان يتغير وجهى ، لانه حدق الىّ طويلا . وكاد يغمى علىّ ، اذ تصورت انك ستقتتل اليوم مع جروشنيتسكى ، واننى السبب فى هذا كله . خيّل الىّ اننى سأجن . . .

ولكننى مطمئنة الآن ، وقد ثاب الىّ رشدى ، انك ستبقى حيا ، فمن المستحيل ان تموت دون ان اموت انا ، مستحيل ! ظل زوجى مدة طويلة يذرع الغرفة ذهابا وايابا ، لا اعرف على وجه الدقة ماذا قال لى ، ولا اذكر بم أجبته . . . لا بد اننى اعترفت له اننى احبك . . . لا اذكر الآن الا انه رشقنى فى نهاية الحديث بكلمة فظيعة ثم خرج . وسمعته يأمر بكدن الخيل . . . انا على النافذة منذ ثلاث ساعات ارقب عودتك . انك حىّ ، ولا يمكن ان تموت ! . . بعد قليل تكون العربة مهيأة للرحيل . وداعا ، وداعا ! . . لقد ضعت انا ، ولكن لا ضير . . . ليتنى استطيع على الاقل ان اتصور انك ستظل تذكرنى . . . لا اقول تحبنى ، لا ، بل تذكرنى ، فحسب . وداعا . ها هم قادمون . . . يجب ان اخفى رسالتى . . .

انت لا تحب مارى ، أليس كذلك ؟ ولن تتزوجها ؟ أليس كذلك ؟ اسمع ، قم بهذه التضحية من اجلى ، انا التى فقدت من اجلك كل شىء فى هذه الحياة . . .»

طاش صوابى ، واصبحت كالمجنون . فاندفعت كالسهم الى الخارج ، ووثبت على حصانى الذى جىء به الى صحن البيت منذ لحظة ، وقذفت به فى طريق بياتيجورسك على اقصى سرعة من العدو . كنت استحث دابتى المتعبة بلا رحمة ، فكانت تنخف وتزبد ، وهى تنهب بى الارض نهبا على الطريق الحجرية .

كانت الشمس قد اختبأت وراء سحابة سوداء على قمة الجبال . وكان الفج مظلما رطبا . وكان بودكوموك يتواثب على الصخور فى هدير بهيم رتيب . وكنت اعدو سريعا ، وانا اختنق من نفاد الصبر . كنت كما تصورت اننى لن اجدها فى بياتيجورسك ، يدق قلبى كأنه مطرقة ! آه ، اريد ان اراها لحظة ، لحظة واحدة ، ان اودعها ، ان اشد على يدها ! . . كنت اصلى ، والعن ، وابكى واضحك . . . لا ، لا شىء يمكن ان يعبر عما كنت اكابده من غم وخوف ويأس ! . . تصورت اننى ضيعتها الى الابد ، فغدت فيرا اعز عندى من اى شىء فى العالم ! . . غدت اعز من الحياة ،

من الشرف ، من السعادة ! الله يعلم ما هى النوايا الجهنمية ، وما هى الافكار الجنونية التى كانت تدور عندئذ فى رأسى ! . . وفيما انا اضرب حصانى بلا رحمة ولا شفقة ، اذا بى الاحظ انه يتنفس بصعوبة . وكان قد كبا مرتين ، مع ان الارض التى كبا عليها كانت مستوية ! . . بقى ان اقطع خمسة فرستات حتى اصل الى أستوكى ، وهى قرية قوزاقية يمكننى فيها ان ابدل حصانى .

كان يمكن ان يتم كل شىء على ما احب ، لو استطاع حصانى ان يعدو مدة عشر دقائق اخرى . ولكنه ما لبث ان سقط فجأة على الارض ، بينما كان يصعد من واد صغير عند مخرج الجبال فى منعطف حاد ؛ فأفلت منه بسرعة ، واردت ان اساعده على النهوض بشد الاعنة ، فلم يقو على النهوض . وخرجت من بين اسنانه المشدودة زفرة ضعيفة ، وبعد بضع لحظات كان يلفظ انفاسه الاخيرة . كنت وحيدا ، وسط السهوب ، قد فقدت آخر آمالى . واردت ان امشى فترنحت ساقاى تحتى ، فهويت على

العشب الرطب ، وقد هدّتنى انفعالات النهار وحطمنى الارق ، واخذت اجهش بالبكاء كطفل .

وبقيت على هذه الحال ، ساكنا باكيا ، مدة طويلة ، حتى اننى لم احاول ان اسيطر على دموعى وان احبس نحيبى ؛ وخيل الىّ ان صدرى سينفجر . . . لقد تبددت صلابتى ورباطة جأشى كالدخان . . . كانت نفسى خائرة لا قوة لها ، وكان عقلى منطفئا ، فلو رآنى احد فى تلك اللحظة لاشاح بوجهه عنى فى كثير من الاحتقار .

ولكن ندى الليل وريح الجبال ما لبثا ان رطبا رأسى المحترق ، فعادت افكارى الى مجراها الطبيعى ، ففهمت ان من العبث والطيش ورقة العقل ان اركض وراء سعادة ذاهبة . ما عساى اشتهى ايضا ؟ ان اراها مرة ثانية ؟ ما جدوى ذلك ؟ ألم ينته بيننا كل شىء ؟ ان قبلة صغيرة فى الوداع لن تغنى ذكرياتى ، ولن تجعل فراقنا اقل مرارة .

كان يلذ لى مع ذلك ان ارى اننى استطيع البكاء . ولكن لعل هياج اعصابى ، وأرقى

طوال الليلة البارحة ، وهاتين الدقيقتين اللتين وقفت خلالهما امام مسدس مصوب الى رأسى ، وفراغ معدتى ، لعل هذا كله هو السبب .

هيّا ! . . ان كل شيء يحدث لا بد أن يؤدى الى الأفضل . كان هذا الالم الجديد ، تلهية سعيدة ، على لغة العسكريين ، ان البكاء يفيد . ثم ، أكان يمكن ان يعرف النوم الى جفنى سبيلا ، لولا هذه الجولة على صهوة الحصان ، ولولا اننى قطعت فى العودة مسافة خمسة عشر فرستا سيرا على الاقدام .

وصلت الى كيسلوفودسك فى الساعة الخامسة من الصباح ، فارتميت على سريرى ونمت كما نام نابوليون بعد معركة واترلو .

حين استيقظت كان الظلام قد هبط ، فجلست بالقرب من النافذة المفتوحة ، وحللت ازرار الارخالوك الذى ارتديه . فرطب هواء الجبل صدرى الذى لم يهدئه النوم العميق بعد فرط الاعياء . ورأيت فى الافق البعيد ، وراء النهر ، من خلال ذرى اشجار الزيزفون الكثيفة التى تظلله ، رأيت التماع انوار القرية والقلعة . كان كل شيء

فى فنائنا ساكنا هادئا . وكان الظلام فى بيت الاميرة مطبقا .

ودخل علىّ الدكتور . انه متجهم الوجه ، وعلى غير عادته ، لم يمد الىّ يده .

— اين كنت يا دكتور ؟

— فى بيت الاميرة ليجوفسكايا . ان ابنتها مريضة : نوبة عصبية . . . ولكننى لم آت اليك لابلغك هذا النبأ . اليك الموضوع : لقد اخذت السلطات تشتبه فى الامر ، ورغم انه يستحيل توافر الادلة عليك ، فأنا انصحك بان تكون على حذر . قالت لى الاميرة اليوم انها تعلم انكما تبارزتما من اجل ابنتها . ان ذلك العجوز — ما اسمه ؟ — قصّ عليها كل شىء . لقد شهد مجادلتك مع جروشنيتسكى بالمطعم . جئت انذرك بالامر . وداعا ! قد لا نلتقى بعد الآن ابدا . من ذا الذى يعلم الى اين يرسلونك ؟

ووقف على عتبة الباب . . . كان يود ان يشدّ على يدى . . . ولو اننى اظهرت اى رغبة فى ذلك ، لوثب علىّ يعانقنى . . . ولكننى

ظللت بارداً ككتلة من المرمر . . . فانصرف .
كذلك هم البشر ! انهم جميعا من طينة واحدة : يعرفون مقدما كل الجوانب السيئة فى عمل من الاعمال . يساعدونك ، وينصحونك ، وقد يشجعونك ، اذا رأوا انه يستحيل ان يفعلوا غير ذلك . ولكنهم بعدئذ يغسلون ايديهم من الامر ، وينصرفون ، مستائين ، عن الشخص الذى تجرأ ان يتحمل كل تبعته . نعم انهم جميعا من طينة واحدة ، لا يشذ عن ذلك حتى احسنهم ، اذكاهم ! . .
وفى صباح الغد تلقيت من رؤسائى امرا بان اذهب الى قلعة ن . . . فذهبت اودع الاميرة الام . سألتنى هل هناك امر هام جدا اريد ان افضى اليها به ، ودهشتْ اشد الدهشة حين اكتفيت بالاجابة باننى اتمنى لها السعادة ، الى آخر ما هنالك . قالت :
ــ اما انا فيجب ان اتحدث اليك فى كثير من الجدّ .
فجلست صامتا .
كان واضحا انها لا تعرف من اين تبدأ . . .

وقد احمر وجهها ، واخذت تنقر المنضدة باصابعها السمينة ، واخيرا حزمت امرها ، وقالت بصوت متردد :

— اسمع يا سيد بتشورين . انا اعتقد انك رجل شريف .

فانحنيت . وتابعت هى تقول :

— بل اننى لعلى يقين من ذلك ، رغم ان سلوكك يمكن ان يثير شكوكا . ولكن قد يكون لهذا السلوك دوافع اجهلها ، ويجب ان تفضى الىّ الآن بهذه الدوافع . لقد ذببت عن ابنتى الافتراء ، واقتتلت من اجلها ، وعرّضت اذن حياتك للخطر فى سبيلها . . . لا تجبنى . . . اعرف انك لا تستطيع الاعتراف ، لان جروشنيتسكى قُتل (وهنا رسمت اشارة الصليب) . . . غفر الله له ، ولك ايضا . هذا لا يخصنى . ولست اجرؤ على ان الومك ، لان ابنتى كانت هى السبب ، ولو ببراءة . . . لقد قصت علىّ كل شئ ، نعم كل شىء ، او هذا ما أرجوه على الاقل . اعرف انك صارحتها بحبك ، وانها صارحتك بحبها (وهنا زفرت الاميرة زفرة عميقة) . ولكنها مريضة ،

وانا على يقين من ان الامر ليس مرضا فحسب . ان حزنا خفيا يقتلها . واعتقد انك انت السبب ، رغم انها لم تعترف لى بذلك . اسمع . ربما تعتقد اننى ابحث عن الرتب والثروة . انت مخطئ . اننى لا اريد لابنتى غير السعادة . ليس مركزك ، الآن ، بالمركز الذى يحسد عليه الانسان كثيرا . ولكن كل شيء يمكن ان يدبر . انت صاحب ثروة ، وابنتى تحبك ، ولقد نشئت تنشئة تجعلها اهلا لاسعاد زوجها . وانا غنية ، وليس لى غيرها . . . تكلم افض الىّ بما يجعلك تحجم . ما كان ينبغى ان اقول لك كل هذا . ولكننى اعتمد على قلبك ، على شرفك . تذكر انه ليس لى غير ابنتى ، ليس لى غيرها . . .

وأخذت تبكى . قلت لها :

— ايتها الاميرة ، لا استطيع ان اجيبك ، واسمحى لى بان اتحدث الى ابنتك على انفراد . . .

فصاحت وهى تنهض مضطربة اشد الاضطراب :

— مستحيل !

فاجبتها وانا انهض ايضا :

— كما تريدين .

ففكرت لحظة ، ثم اشارت اليّ بيدها ان انتظر قليلا ، وخرجت .

انقضى على خروجها خمس دقائق . كان قلبي يخفق خفقانا شديدا ، ولكن فكري كان هادئا ، وكان رأسي باردا . عبثا حاولت ان اعثر في اعماق نفسي على ومضة من حب لماري الناعمة .

وفتح الباب فجأة ، فاذا هي تدخل . رباه ! لشد ما تغيرت منذ التقينا آخر مرة . . . والفترة وجيزة جدا .

فلما وصلت الى وسط الغرفة ، ترنحت ، فسارعت اسندها بذراعي ، وقدتها الى المقعد .

كنت واقفا امامها . وساد الصمت برهة طويلة . كانت عيناها تفيضان بحزن لا يوصف وكأنهما تحاولان ان تبحثا في عيني عن بارقة من امل . وكانت شفتاها الشاحبتان تحاولان عبثا ان تبتسما . وكانت يداها الدقيقتان المتشابكتان على ركبتيها قد بلغتا من النحول والهزال حتى ان قلبي انقبض حين رأيتهما اشد الانقباض . قلت لها :

— ايتها الاميرة ، هل تعرفين انني كنت اعبث بك ؟ عليك اذن ان تحتقريني .

فتصاعدت الى خدّيها حمرة من مرض . واستمررت اقول :

— ولا يمكنك ان تحبيني . . .

فاشاحت بوجهها ، وتوكأت على المنضدة ، ووضعت يدها على عينيها اللتين تراءى لي ان فيهما دموعا ، وقالت بصوت يكاد يكون منطفئا :

— يا رب !

لا يكاد يستطيع الانسان ان يقاوم هذا المنظر ، اوشكت ان ارتمي على قدميها ، ولكنني تجلدت ، واستأنفت اقول ، بصوت اردت ان يكون ثابتا ، مع ابتسامة حملت نفسي عليها حملا :

— وهكذا ترين انت نفسك انني لا استطيع ان اتزوجك . واذا انت رغبت في ذلك الآن ، فلن تلبثي ان تندمي عليه اشد الندامة . ان الحديث الذي دار بيني وبين امك ، يضطرني الى ان اخاطبك هكذا بصراحة وقسوة . آمل ان تكون امك على خطأ ، وسيسهل عليك ان

تبددى وهمها . اننى امثل فى نظرك دورا حقيرا ، دورا سافلا ، وانى لاعترف بذلك . وهذا كل ما استطيع ان افعله من اجلك . سأسلّم بكل ما قد ترينه فىّ من رأى . هاأنت ذى ترين كم كان سلوكى معك بشعا كريها . . . وهبك احببتنى ، فلا بد ان تحتقرينى الآن .

فالتفتت الىّ ، صفراء كقطعة من المرمر ، وكانت عيناها وحدهما تلتمعان ، وقالت :

— اكرهك . . .

فشكرت لها قولها ، واستأذنتها بالانصراف ، بعد ان حييتها فى كثير من الاحترام .

وبعد ساعة من الزمن كانت عربة البريد تمضى بى بعيدا عن كيسلوفودسك . وعلى مسافة بضعة فرستات من إسنتوكى ، رأيت جثة حصانى المقدام . كان سرجه قد انتزع من صهوته ، اخذه قوزاقى من غير ريب ؛ وعلى ظهره ، فى مكان السرج ، حطّ غرابان . فاشحت بوجهى ، وانا ازفر زفرة حرّى . . .

والآن ، فى هذه القلعة التى اشعر فيها بالضجر والسآمة ، واستعرض صور الماضى واتساءل

فى كثير من الاحيان لماذا رفضت ان ادخل فى الطريق التى فتحها لى القدر والتى كان يمكن ان اعرف فيها افراحا عذبة ، وان اجد فيها طمأنينة الروح ؟ . . لا ، لا ، اننى لم اخلق لتلك الحياة ! انى كملاح ولد وترعرع على ظهر مركب من مراكب القرصان . . . الف العواصف والمعارك . فاذا القى الى الشاطئ ، شعر بالضجر والسآمة ، لا تغريه الواحات الظليلة ولا الشمس الساطعة . انه يظل طوال النهار يضرب هنا وهناك على رمل الشاطئ . يصيخ بسمعه الى خرير الامواج الرتيب ، ويغرق بصره فى الآفاق البعيدة ذات الضباب الكثيف : تُرى ألن يلمح اخيرا ، على الخط الشاحب الذى يفصل الهوة اللازوردية عن السحب الشهباء ، الشراع الذى طالما اشتهاه ، شبيها بجناح النورس البحرى فى اول الامر ، متخلصا من الزبد شيئا فشيئا بعد ذلك ، مقتربا من المرفأ المقفر ثابت السير ؟ . .

٣

الجبرى

اتفق لى مرة ان قضيت اسبوعين فى قرية قوزاقية فى الجناح الايسر . كانت ترابط هناك كتيبة من المشاة ، وكان الضباط يجتمعون يوما عند هذا ويوما عند ذلك ، ويقضون السهرة فى لعب الورق .

وضقنا ذات يوم ذرعا بالبوستونى ، فرمينا بالورق تحت المنضدة ، وبقينا نتحدث مدة طويلة جدا فى بيت الضابط المقدم س . . . كان الحديث ، على خلاف العادة من امتع الاحاديث . كانوا يقولون ان العقيدة الاسلامية التى ترى ان قدر الانسان قد كتب عليه فى اللوح المحفوظ ، تجد بيننا نحن المسيحيين كثيرا من الانصار . واخذ كل واحد يقص حالات عجيبة ، فى تأييد هذه العقيدة او فى انكارها . قال المقدم العجوز :

— كل هذا ، ايها السادة ، لا يبرهن

على اى شىء . . . اذ ما من واحد منكم شهد الحالات الغريبة التى يسوقها فى تأييد رأيه . . . أليس كذلك ؟

فقال معظمهم :

— نعم لم نشهدها ، ولكن الذين قصوها علينا ثقات يطمأن الى صدقهم .

فقال احدهم :

— هذا كلام فارغ . اين هم اولئك الثقات الذين رأوا اللوح المحفوظ الذى كتب عليه اجلنا ؟ . . واذا صح ان الانسان مسيّر لا مخيّر ، فلماذا أوتينا ارادة وعقلا ؟ ولماذا نُسأل عن افعالنا ؟

عندئذ نهض ضابط كان جالسا فى ركن من الغرفة ، وتقدم ببطء نحو المنضدة ، والقى حوله نظرة هادئة فخمة فى آن واحد . انه صربى ، كما يدل على ذلك اسمه .

كان مظهر الملازم الاول فولتش منسجما مع طبعه . ان قامته الفارعة ، ووجهه الاسمر ، وشعره الاسود ، ثم ان عينيه النافذتين والسوداوين ايضا ، وانفه الكبير على استقامة ، كأنوف سائر

ابناء قومه ، وابتسامته الحزينة الباردة التى تطوف على شفتيه دائما ، ان ذلك كله كان يسهم فى ان يسبغ عليه طابع انسان غريب فريد ، عاجز عن نقل افكاره واهوائه الى هؤلاء الذين جعلهم القدر رفاقه .

كان شهما ، يتكلم قليلا ، ولكنه اذا تكلم فبلهجة قاطعة جازمة . وكان لا يفضى الى احد باسرار اسرته ، ولا باسرار نفسه . وكان لا يكاد يشرب خمرا ، وكان لا يتودد الى الفتيات القوزاقيات (اللواتى يصعب على المرء ان يتصور ما لهن من فتنة ما لم يرهن) ولا يغازلهن . ومع ذلك فكان يقال ان زوجة الكولونيل لم تكن غير مبالية بعينيه اللتين تفيضان بالتعبير ، ولكنه كان يستاء اذا أومأ احد الى ذلك ، بل كان يستاء من هذا شديدا .

والهوى الوحيد الذى كان لا يخفيه ، هو ميله الى اللعب . كان ينسى امام المائدة الخضراء كل شىء . وكان فى معظم الاحوال يخسر ولا يربح . ولكن خسارته المستمرة كانت لا تزيده الا عنادا . ويُروى انه ذات ليلة ، ابان حملة

من الحملات ، كان هو الخازن ، وكان يواتيه الحظ مواتاة عجيبة ، وهو متكئ على مخدته ، فاذا بصوت رصاص يلعلع على حين غرة ، فاطلقت اشارة الخطر . وهب جميع اللاعبين ، يتناولون اسلحتهم . ولكن فولتش صاح بواحد من اشدهم حماسة يقول : «كل المبلغ» . فاجابه هذا وهو يخرج مسرعا ، «سبعة» . فاخذ فولتش يكمل اللعب ، بينما الناس فى هذا الاضطراب الشامل .

حتى اذا ظهر اخيرا فى الجبهة ، كانت قد احتدمت المعركة ، ولكن فولتش لم يحفل لا برصاص التشتشينيين ولا باسيافهم ، بل كان يبحث عن منافسه المحظوظ ، حتى اذا لمحه بين الرماة الذين اخذوا يجلون العدو عن غابة من الغابات ، صاح به يقول :

— السبعة ربحت !

ثم اقترب منه ، واخرج المال ، ومدّه الى الرابح السعيد ، وعبثا احتج هذا بان المكان ليس مكان سداد الديون . فلما فرغ من القيام بهذا الواجب الذى لا يسرّ كثيرا اندفع الى امام ،

فاقتدى به الجنود ، وظل الى نهاية المعركة يحارب التشتشينيين فى رباطة جأش عظيمة .

حين اقترب الملازم الاول فولتش من المنضدة ، صمت جميع الناس ، وتوقعوا ان يسمعوا شيئا عجيبا . قال (وكان صوته هادئا ، واخفض نبرة مما عُهد فيه) :

— ايها السادة ، هذه مناقشات عقيمة ، هل ادلكم على حجج تقنع ؟ اذن جربوا على انفسكم ، لتعرفوا هل يصرف الانسان حياته على ما يشاء ، ام انه اذا جاء اجله لا يستقدم ساعة ولا يستأخر ؟ من يريد ان يجرب ؟

فتعالى الصياح من كل صوب يقول :

— لست أنا ، لست أنا ، على كل حال ! ما هذه الفكرة الغريبة ؟ !

فقلت على سبيل المزاح :

— اقترح ان نتراهن !

— على ماذا ؟

— على انه لا قدر هناك !

قلت ذلك ، والقيت على المنضدة بمائتى روبل وهى كل ما املك .

فاجاب فولتش بصوت اصم يقول :

— قبت . سيدى المقدم ، انت الحكم . هذه مائة وخمسون روبلا اسمح لى ان اضم اليها الخمسين روبلا التى تدين بها لى .

فقال المقدم :

— هذا حسن . ولكننى لم افهم ما هو الموضوع ، ولا كيف ستحسمون المشكلة .

وهنا ذهب فولتش الى مخدع المقدم ، دون ان يقول كلمة واحدة . فتبعناه ، وتقدم من الجدار الذى علق عليه السلاح ، فانتزع منه احد المسدسات على غير اختيار . لم نفهم ماذا يريد ان يعمل ، ولكنه ازاح الزناد ، وسكب فى المسدس بارودا . صاح به كثير منا ، وامسكوا بذراعيه ، يقولون :

— ماذا تريد ان تعمل ؟ هذا جنون ! . .

فاجاب يقول ببطء ، وهو يسحب ذراعيه :

— ايها السادة ، من منكم يدفع عنى عشرين روبلا ؟

فصمتوا جميعا وتراجعوا .

فعاد الى الغرفة الاولى ، وجلس الى المنضدة .

كانوا جميعا يتبعونه . فدعانا الى الجلوس ، فاطعناه جميعا صامتين : لقد سيطر علينا فى هذه اللحظة سيطرة خفية . كنت احدق فى عينيه . ولكنه قابل نظرتى المتفرسة بهدوء وسكون ، وابتسمت شفتاه الشاحبتان . على اننى ، رغم رباطة جأشه ، لاح لى فى وجهه الاصفر كالشمع ، طيف الموت . لقد لاحظت ان الانسان كثيرا ما يرى طابع الموت فى وجه شخص سيموت بعد بضع ساعات ، وقد أكد لى ذلك اكثر من واحد من العسكريين الشيوخ ... ان الوجه يكتسى عندئذ خاتم قدر لا مفر منه ، وقلما تخطئ العيون البصيرة فى تقدير هذا .

قلت له :

— ستموت اليوم !

فالتفت الىّ بسرعة ، ولكنه اجابنى بهدوء وبطء :

— ربما اموت ، وربما لا اموت ...

ثم سأل المقدم :

— هل هذا المسدس مشحون ؟

ولكن المقدم من فرط اضطرابه ، لم يتذكر ...

وصاح احدهم :

— كفى يا فولتش ، كفى . لا بد انه مشحون ما دام علق فوق السرير . يا لهذه الطريقة العجيبة فى المزاح !

واضاف آخر :

— انه مزاح غبى !

وصاح ثالث :

— اراهن على خمسين روبلا مقابل خمسة ، ان هذا المسدس ليس مشحونا !

وتكاثرت الرهانات . واضجرنى هذا الاحتفال كله ، فقلت لفولتش :

— اسمع ، اما ان تحطم رأسك ، واما ان تضع المسدس جانبا ، فنمضى ننام .

فصاحت اصوات كثيرة تقول :

— نعم ، هو ذلك سنمضى الى النوم .

— ايها السادة ، ارجوكم ان لا تتحركوا ! — قال فولتش هذا ، ووضع فوهة المسدس على صدغه .

فجمدوا جميعا . واضاف يقول :

— سيد بتشورين : خذ ورقة من اوراق

اللعب ، وارمها فى الهواء .

فتناولت من على المنضدة — ما ازال اذكر هذا كأنه يقع الآن — ورقة آس كوبة ، وقذفت بها فى الهواء . تقطعت انفاس الجميع ، كانت نظراتهم التى تعبر عن الخوف والاستطلاع فى آن واحد ، تنتقل سريعة بين المسدس والورقة . وكانت الورقة تهبط وهى ترتعش . حتى اذا لامست المنضدة شد فولتش زناد المسدس . . . لم تخرج الطلقة ! . .

فصاحوا يقولون :

— الحمد لله ! على ان المسدس لم يكن مشحونا . . .

فقال فولتش :

— لننظر .

حرك الزناد ، ثم صوب الى قبعة كانت متدلية فوق النافذة ، فاذا بصوت الطلقة يدوّى ، واذا بالدخان يملأ الغرفة ، حتى اذا تبدد الدخان نظرنا الى القبعة فاذا بالرصاصة قد ثقبتها فى وسطها تماما ، ثم خرجت منها فنفذت فى الحائط نفاذا عميقا .

وانقضت ثلاث دقائق ، دون ان ينبس احد بكلمة . وتناول فولتش روبلاتى المائتين فدسها فى محفظته بهدوء .

واحتدمت المناقشة بعد ذلك : لماذا لم تخرج الطلقة فى المرة الاولى ؟ قال بعضهم : ان الحويض كان مسدودا ، وقال آخرون بصوت خافت : بل لقد كان البارود فى اول الامر رطبا ، ثم وضع فولتش بارودا جديدا . فاكدت ان هذا الافتراض الاخير باطل ، لاننى لم احوّل بصرى عن المسدس لحظة واحدة . وقلت لفولتش :

— انت محظوظ فى اللعب !

قال وهو يبتسم ابتسامة الرضى :

— لاول مرة فى حياتى . . . هذا خير من لعب جميع انواع البكارا وغيرها . . .

قلت :

— ولكنه اخطر منها قليلا .

قال :

— هل بدأت تؤمن بالقدر ؟

— نعم ، ولكننى اتساءل لماذا لاح لى

انك ميت اليوم لا محالة .

وفى هذه اللحظة رأيت هذا الرجل الذى كان منذ قليل يضع فوهة المسدس على صدغه هادئا ، يحمر فجأة ويضطرب .

قال وهو ينهض :

— كفى ! لقد انتهى الرهان . وملاحظاتكم تبدو لى الآن فى غير محلها . . .

وتناول قبعته وخرج . لقد بدا لى ذلك غريبا ، ولا عجب ! . .

وسرعان ما افترقنا ؛ فذهب كل منا الى بيته ، ويؤول نزوات فولتش على طريقته ؛ ولعلهم اتهمونى جميعا بالانانية ، لاننى راهنت شخصا همّ ان يقتل نفسه . . . كأنه لا يستطيع ان يجد ، بدونى ، فرصة مناسبة .

كنت عائدا الى بيتى امر بطرقات القرية الخالية من الناس ، وكان القمر بدرا متوقدا قد اخذ يطلع فى الافق بنور كأنه نور حريق ؛ وكانت النجوم تتألق هادئة فى القبة الزرقاء الضاربة الى سواد . لم استطع ان احبس نفسى عن الابتسام حين تذكرت ان قدماء الحكماء كانوا

يتصورون ان الكواكب تهتم بخصومات البشر التافهة على قطعة من الارض او على حقوق موهومة . ان هذه المصابيح التى كانوا يظنون انها انما تشتعل لتنير ما يدور بينهم من خصومات ، وما يحققونه من الوان النصر ما تزال مع ذلك تضىء ببريق لم يتغير ، مع ان آمالهم ، واهواءهم قد انطفأت معهم ، كنار اوقدها عند طرف الغابة مسافر من المسافرين عابر لا يبالى ! ولكن ما كان اقوى تلك العزيمة التى يمدهم بها ذلك الاعتقاد بان السماء كلها ومن فيها من سكان لا يحصى عددهم تنظر اليهم فى اهتمام اخرس ولكنه لا يحول ولا يزول . فى حين اننا نحن ، نحن اعقابهم الذين نستحق الشفقة والرثاء ، الذين نضرب فى الارض بلا عقيدة ولا كبرياء ، بلا لذة ولا خوف ، الا الذعر الذى يقبض صدورنا ولا نستطيع له دفعا ، حين نتصور اننا صائرون الى الموت لا محالة ، اما نحن هؤلاء فقد اصبحنا عاجزين عن ان نقدم اية تضحية كبيرة ، لا فى سبيل خير الانسانية ، ولا فى سبيل سعادتنا ذاتها ، لاننا نعرف ان

السعادة مستحيلة ، وما ننفك ننتقل من شك الى شك لا نلوى على شىء ، كما كان اسلافنا ينتقلون من وهم الى وهم ؛ اننا لا نملك ما كانوا يملكون من رجاء ، ولا ما كانوا يحسونه من فرح لا يمكن تعريفه ، ولكنه فرح قوى تشعر به النفس حين تناضل ضد البشر او ضد القدر . . .

وراودتنى افكار اخرى من هذا القبيل . ولكننى لم اتلبث عليها ، لاننى لا احب ان اثقل على نفسى بفكرة مجردة ؛ وما عسى ان ينتج هذا كله ؟ كنت فى حداثتى فتى حالما ، احب ان اداعب الصور الجهمة او الضاحكة التى يرسمها خيالى القلق الشره ، كنت اداعب هذه الصور واحدة بعد اخرى ، ولكن ماذا بقى لى من هذا كله ؟ لا شىء الا تعب يشبه التعب الذى يعقب معركة مع شبح والا ذكرى مشوشة تفيض بالحسرات . لقد افنيت فى ذلك الصراع العقيم ، حرارة الروح وثبات الارادة ، وكلاهما ضرورى جدا لحياة الفعل والنشاط . وحين دخلت هذه الحياة التى سبق ان عشتها بالفكر ، شعرت بالضجر ، وشعرت بما يشعر به من اشمئزاز

شخص يقرأ تقليدا سيئا لكتاب يعرفه منذ مدة طويلة .

لقد تركت فى نفسى حادثة هذه الليلة أثرا قويا ، وأهاجت اعصابى . لست أدرى هل أومن اليوم بالقدر . ولكننى آمنت به فى ذلك المساء ايمانا قويا ، اذ كان البرهان عليه برهانا دامغا . كنت وأنا اسخر من اسلافنا ومن تنجيمهم المضحك ، اسير على غير ارادة منى فى أثرهم . ولكننى توقفت فى هذه الطريق الخطرة فى اللحظة المناسبة ، اذ لما كان من مبدئى ان لا اجحد شيئا من الاشياء جحودا مطلقا ولا ان اؤمن بشىء من الاشياء ايمانا اعمى ، فقد تركت الميتافيزيقا جانبا ، ونظرت بين قدمى . وجاء هذا الاحتراس فى حينه تماما ، اذ اننى اوشكت ان اقع على الارض مصطدما بشىء ضخم رخو ، ولكن لا حياة فيه . فانحنيت انظر ما هذا ، وكان القمر يضىء الطريق ، فاذا انا ارى خنزيرا أليفا قد شطر شطرين بضربة من سيف . . . وما كدت اعرف هذا حتى سمعت وقع خطوات ، ورأيت قوزاقيين يخرجان من زقاق آخر ، فيقبل

احدهما نحوى ويسألنى هل رأيت قوزاقيا سكران يلاحق خنزيرا ، فقلت اننى لم اصادف قوزاقيا ، ولكننى اشرت الى الضحية الشقية التى ذهبت بها شجاعته .

قال الآخر :

— هذا اللص ! انه متى شرب خمرا ، ضرب بسيفه كل ما يصادف . هيا بنا سريعا يا ييرميئتش ، يجب ان نقبض عليه ، يجب ان نقيده ، والا . . .

وابتعدا ، فتابعت سيرى بمزيد من الحذر . ووصلت اخيرا الى منزلى دون ان يقع لى حادث آخر .

كنت اسكن فى بيت عجوز برتبة وكيل ضابط ، وكنت احب العجوز لرقة حاشيته ، ولجمال ابنته الحسناء ناستيا ، بوجه خاص .

وجدتها ، على عادتها ، تنتظرنى على باب الحديقة ، متدثرة بردائها المبطن بالفرو . وكان القمر يضىء شفتيها الصغيرتين الشهيتين اللتين ازرقتا قليلا من البرد . فلما رأتنى ابتسمت ، ولكننى لم احفل بها كثيرا فى تلك اللحظة .

فقلت لها ، وانا أمر بالقرب منها :

— ليلتك سعيدة يا ناستيا .

وارادت ان تجيب ، ولكنها لم تزد على ان تنهدت .

واغلقت باب غرفتى ورائى ، واشعلت شمعة ، ثم ارتميت على سريرى . . . وانتظرت النوم فى هذه المرة اكثر مما كنت انتظره فى كل مرة . وحين غفوت كان المشرق قد اخذ يبيض ، ولكن لا شك انه كتب علىّ ألاّ انام فى تلك الليلة ، ففى الساعة الرابعة من الصباح طرقت نافذتى ضربات قوية من قبضتين ، فنهضت فورا أتساءل ماذا هنالك ؟

— انهض ، البس ثيابك . !

فدسست ثيابى بسرعة وخرجت .

فبادرنى ثلاثة من الضباط يسألوننى بصوت واحد ، وقد امتقعت وجوههم حتى لكأنهم موتى :

— هل تدرى ماذا وقع ؟

— ماذا ؟

— قُتل فولتش .

فلم اكد اصدق ما اسمع . وأردفوا يقولون :

— نعم ، قُتل ! تعال اسرع .
— ولكن الى اين نذهب ؟
— ستعرف ذلك اثناء الطريق .
ومضينا . فقصوا عليّ كل شيء ، ولم ينسوا ان يشيروا الى ذلك القدر الذى انقذه من موت محقق ، قبل موته بنصف ساعة . كان فولتش يسير وحده فى الشوارع المظلمة . فالتقى بالقوزاقى السكران الذى شطر الخنزير شطرين ، والذى كان يمكن ان يمر دون ان ينتبه الى فولتش ، لو لا ان فولتش توقف فجأة وسأله :
— «عمن تبحث يا صاحبى ؟» فاجابه القوزاقى ، وهو يضربه بسيفه ويشطره شطرين من الكتف الى ناحية القلب ، قائلا : «**عنك** !»
وفى غضون ذلك وصل القوزاقيان اللذان صادفانى وكانا يلاحقان القاتل ، فحملا الجريح ، ولكنه كان يلفظ انفاسه الاخيرة ، ولم يستطع ان يقول الا هذه الكلمات : «كان على حق !» لقد فهمت وحدى هذا المعنى الغامض الذى تشتمل عليه هذه الكلمات : كانت تعنينى انا . فلقد تنبأت للمسكين بمصيره ، من غير ان

اريد ذلك . لم تخدعنى غريزتى . ان ما قرأته فى وجهه كان حقا نذير موت قريب .

كان القاتل قد اعتصم ببيت خال عند طرف القرية . والى هناك ذهبنا . رأينا نساء كثيرات يسرعن الخطى الى تلك الجهة ، وهن يتأوهن ويصدرن انات . من حين الى آخر ، يندفع فى الشارع قوزاقى متخلف عنا يضع خنجره فى حزامه بسرعة ، ويتقدمنا راكضا . لقد بلغ الاضطراب اقصاه .

ووصلنا أخيرا . كان حول البيت جمهور كبير ، وكانت الابواب والنوافذ موصدة من الداخل . وكان الضباط والقوزاق يتناقشون ويتجادلون بعنف ، وكانت النساء يصدرن انات ، ويتأوهن ، وينتحبن . ورأيت بينهن وجها خطف بصرى خاصة ، هو وجه امرأة عجوز تعبر عن اشد اليأس واعمقه . كانت جالسة على خشبة كبيرة ، وقد وضعت كوعيها على ركبتيها ، واسندت رأسها الى يديها . انها ام القاتل . وكانت شفتاها تتحركان من حين الى حين . . . ترى أهى ترفع الدعوات ام تستنزل اللعنات ؟

كان لا بد من ان نقرر الشروع فى عمل للقبض على القاتل . ولكن لم يجسر احد ان يندفع اول المندفعين :

فاقتربت من النافذة ، ونظرت من شق مصراعها . كان الرجل متمددا على الارض ، شديد الشحوب . وكان يمسك بيده اليمنى مسدسا . وكان سيفه الدامى يرقد على مقربة منه . كان يدير عينيه على نحو مرعب . وكان فى بعض اللحظات يرتعش ، ويمسك رأسه بيديه ، كأنه يتذكر ما وقع تذكرا غامضا . ولم اقرأ فى هذه النظرة القلقة معنى من معانى العزم القوى ، فقلت للمقدم : انه من الخطأ ان لا يلقى اوامر الى القوزاق باقتحام الباب والاسراع الى الداخل ، فلأن يفعل ذلك الآن خير من ان يفعله حين يعود الى الرجل كامل وعيه .

وفى هذه اللحظة ، تقدم من الباب ايصاول* عجوز ، ونادى الرجل باسمه ، فاجابه الآخر ، فاستمر يقول :

---

* هو فى الجيش الروسى القديم ضابط قوزاقى يعادل برتبته الرئيس فى المشاة .

— يا ييفيميتش ، يا صديقى ، لقد اخطأت ، ولا مهرب الآن ، سلم نفسك !

فاجابه القوزاقى :

— لن استسلم !

— اخش ربك ! لست تشتشينيا ، لست كافرا . . . انت مسيحى . لقد أثمت . ماذا تريد ؟ ان الانسان لا يستطيع ان يتحاشى ما كتب عليه !

فكرر القوزاقى يقول بلهجة متوعدة :

— لن استسلم !

وسمعت قرقعة زناد المسدس يفتح .

فقال الايصاول ، متجها الى المرأة العجوز :

— انت يا امه . كلميه قليلا ، فلعله يطيعك . . . ان لم يسلم فسيغضب الله . فكرى قليلا . ان هؤلاء السادة ينتظرون هنا منذ ساعتين .

فحدقت اليه طويلا ، وهزّت رأسها .

فاقترب الايصاول من المقدم ، وقال له :

— يا فاسيلى بتروفيتش ، لن يسلم نفسه ، اننى اعرفه . هيّا بنا . ولكن اذا اقتحمنا

الباب ، فسيسقط قتلى . أليس من الافضل ان نقتله بطلقة بندقية ؟ ان فى النافذة شقا واسعا .

عندئذ خطرت ببالى فكـــرة غريـــبـــة : اردت كفولتش ان اجرب قدرى . فقلت للمقدم :

— انتظروا ، سآتيكم به حيا .

ثم أمرت الايصاول ان يشغله بالحديث ، وامرت ثلاثة من القوزاق ان يستعدوا لان يقتحموا الباب وان يهبوا الى مساعدتى عند الاشارة المتفق عليها ، ودرت حول البيت ، حتى وصلت الى النافذة المعينة . ان قلبى ليخفق خفقانا شديدا .

كان الايصاول يصيح به :

— انتظر قليلا ايها الكافر ! أتعبث بنا ؟ ام تظن اننا لا نستطيع ان نتغلب عليك ؟

وأخذ يضرب الباب بكل ما أوتى من قوة . وضعت عينى على شق النافذة ، واخذت ارقب حركات القاتل الذى كان لا يتوقع ان يهاجم من هذه الجهة . ثم خلعت المصراع على حين غرة ووثبت من النافذة ، ورأسى الى الامام . فانفجرت طلقة تحت اذنى ، فاقتلعت الرصاصة

الشارة التى على كتفى . ولكن الدخان الذى ملأ الغرفة ، حال بين خصمى وبين العثور على سيفه الذى كان يرقد على مقربة منه . فامسكت بيديه ، ودخل القوزاق ، وبعد دقائق ثلاث ، كان مكبلا يُقاد تحت حراسة مشددة . وتفرق الجمهور ، وهنأنى الضباط ؛ حقا لقد كنت استحق التهنئة .

كيف لا اصبح بعد هذا جبريا أومن بالقدر ؟ ولكنّ هل يمكن ان يكون المرء على يقين من انه مؤمن باى شىء من الاشياء ؟ . . . كم مرة آمنا بأمور هى خطأ من اخطاء الحواس ، او ضلال من ضلالات العقل ؟ ! . . . احب ان اشك فى كل شىء . وهذا لا يمنع المرء من ان يكون ذا طبع حازم ، بالعكس . اننى حين اجهل ما ينتظرنى ، اقدم على الفعل دوما بجسارة اكبر . اذ لا يمكن ان يقع لى ما هو شر من الموت ، والموت لا بد منه فى يوم من الايام .

حين عدت الى القلعة قصصت على مكسيم مكسيمتش كل ما وقع لى ، وكل ما شهدته ، وكنت اريد ان اعرف رأيه فى المقدّر ، فلم

يفهم هذه الكلمة ، فشرحت له معناها ما وسعنى الشرح ، فقال لى وهو يهز رأسه فى كثير من الجد والوقار :

— هيه . . . هذا أمر معقد جدا ! . . على ان هذه الاسلحة التى يستعملها الاسيويون كثيرا ما لا تخرج طلقاتها ، اذا لم تشحم تشحيما كافيا ، او اذا لم يشد المرء الزناد بقوة كافية . واعترف اننى لا احب البندقيات الشركسية ، فهذه الاسلحة لم تخلق لنا . ان قنداقها صغير جدا ، حتى ان احدنا يكون معرضا دائما لان يحرق انفه حين استعمالها . . . اما سيوفهم ، فحدث عنها ولا حرج !

ثم اضاف بعد بضع لحظات من التفكير :

— نعم ، اننى ارثى لذلك المسكين . . . ولكن لماذا التحدث مع سكران فى ظلام الليل البهيم ؟ لا بد من الاعتقاد ان هذا كله قد كتب له ! . .

ذلكم كل ما استطعت ان اسمعه من الرئيس : انه لا يحب المناقشات الميتافيزيقية .

النهاية

١٨٣٨ — ١٨٣٩

رواية ليرمونتوف «بطل من هذا الزمان»

بقلم إراكلى اندرونيكوف

فى مايو (ايار) ١٨٤٠ ظهرت فى المكتبات واكشاك الكتب بمدينة بطرسبورغ رواية «بطل من هذا الزمان» لمؤلفها الشاعر ميخائيل ليرمونتوف البالغ من العمر آنذاك خمسة وعشرين عاما والذى جلبت له اشعاره الرائعة شهرة واسعة .

حظى الكتاب الجديد برواج سريع للغاية . فقد كان الجميع راغبين فى التعرف على الشخص الذى نعته الكاتب ببطل زمانه . ان الابطال يحتذى بهم ويعتبرون قدوة للآخرين . . . ولذا اثار عنوان الرواية اهتماما هائلا .

والكتاب عبارة عن رواية فريدة من حيث

الشكل : فهو يتكون من خمس قصص . نشرت ثلاث منها قبل ذلك فى المجلة التقدمية «اوتيتشستفينيه زابيسكى» . ولكن القراء الذين طالعوها على حدة لم يخمنوا انها ، اذا اخذت معا ، تشكل وحدة متكاملة . فالبطل الرئيسى فى القصص الثلاث هو شخصية واحدة ، انه الضابط بتشورين الذى ارسل قسرا الى الجيش القفقاسى .

وقد وزعت فصول الرواية : «بيلا» و«مكسيم مكسيمتش» و«تامان» و«الاميرة مارى» و«الجبرى» ليس حسب التسلسل الزمنى . فالاحداث التى يعرضها ليرمونتوف فى القسم الثانى تسبق احداث القسم الاول . واذا رتبنا القصص حسب اطوار حياة البطل نحصل على اللوحة التالية : ١) يتوقف بتشورين فى تامان («تامان») وهو فى طريقه الى مكان خدمته فى القفقاس . ٢) بعد المساهمة فى حملة حربية يتوجه بتشورين للاصطياف حيث يعيش فى بياتيجورسك وكيسلوفودسك فيقتل جروشنيتسكى فى مبارزة («الاميرة مارى») . ٣) بسبب هذه المبارزة ينقل بتشورين الى قلعة فى

الجناح الايسر «لخط القفقاس» تحت اشراف الضابط العجوز مكسيم مكسيمتش («بيلا») . ٤) يغادر بتشورين القلعة لمدة اسبوعين الى قرية قوزاقية حيث يتراهن مع فولتش («الجبرى») . ٥) بعد خمس سنوات يتقابل بتشورين مع مكسيم مكسيمتش فى فلاديقفقاس فى طريقه الى بلاد فارس («مكسيم مكسيمتش») . ٦) فى طريق العودة من بلاد فارس يقضى بتشورين نحبه (مقدمة «يوميات بتشورين») .

لقد تخلى ليرمونتوف عن توزيع القصص على هذا النحو ، فصور بتشورين فى البداية كما يراه شخص من فئة اجتماعية مغايرة له تماما ، ونعنى الضابط العجوز المتواضع مكسيم مكسيمتش . وفى القصة التالية يراقب مؤلف المذكرات نفسه سلوك بتشورين . ثم يعرف القارئ بنبأ وفاة بتشورين ، وفى الاخير يطلع على يوميات بتشورين . وعلى هذا النحو تتكشف طباع البطل المتناقضة المتعددة الجوانب .

ان بتشورين شخص ذكى حاد الملاحظة ويتحلى بمستوى ثقافى رفيع . وهو فتى وسيم

ثرى . ولكنه يعيش حياته بلا هدف ولا امنيات . انه لم يذق طعم السعادة لا فى الحب ولا فى الصداقة . وقد قضى افضل سنوات العمر فى الجمود والكسل . وتتلاشى بلا جدوى تلك القوى الثرة التى يتحسسها فى دخيلته . وتظل احلامه بالمآثر العظمى احلاما لا غير . انه وحيد تعيس لا يحمل للناس الذين يرتبط بهم مصيره غير الهلاك والآلام .

فاى مرض جعل بتشورين يشيخ منذ الفتوة ؟ لمَ لم يحقق المآثر العظمى التى كان يطمح اليها ؟ لمَ تفنى عبثا تلك القوى الجبارة الكامنة فيه ؟ لمَ يذوى فى الخمول ويشيخ دون نضال ؟

سبب ذلك يكمن فى انه لم ير الهدف ولم يتحسس النضال فى امبراطورية نيقولاى الاول ، فى اقسى سنوات الرجعية . فان يوم نضوجه قد اعلنت حلوله — على حد تعبير الكاتب الثورى الروسى الرائع الكسندر هيرتسين — اصوات الناقوس الذى اذاع فى روسيا نبأ اعدام المناضل الديسمبرى بيستل ورفاقه وعن تتويج الامبراطور نيقولاى الاول . ففى يوم من ديسمبر (كانون الاول) ١٨٢٥

قمعت فى ساحة السينات فى بطرسبرج الانتفاضة التى تزعمها النبلاء الثوريون الوطنيون الروس . فى ذلك اليوم تقوضت آمال جيل كامل من الشباب الاحرار . كان اتراب بتشورين لا يزالون شبانا يافعين جدا غير قادرين على المساهمة فى المؤامرة . اما خلال السنوات العشر التالية «فلم يصبحوا شيوخا — على حد تعبير هيرتسين — ولكنهم فقدوا ارادتهم وتخلفوا وسط مجتمع جبان مزر ذليل خال من الاهتمامات الحية» .

كان بتشورين فى زمن ما يتألم عندما يفكر بالعبودية الشائنة لملايين الناس . وعلى مر السنين دفن فى اعماق فؤاده افضل مشاعره واسماها وتعلم مواجهة الآلام بلا مبالاة . كان فى البداية يشتاط غضبا لعجزه الشخصى ، ولكنه فيما بعد عود نفسه بالتدريج على عدم الايمان بشىء وعدم الامل بشىء . وهكذا تحول ، على حد تعبيره هو ، الى كسيح اخلاقيا . وهذا الكسيح اخلاقيا هو الذى نعته ليرمونتوف ببطل زمانه .

ويتساءل القارئ : — «اى بطل هذا ؟ انه سخرية مرة !» .

اما ليرمونتوف فقد اجاب على ذلك في مقدمة روايته : «. . . ان «بطل من هذا الزمان» لهو صورة حقا ، ولكنه ليس صورة رجل واحد . انه صورة تضم رذائل جيلنا كله . . .»

لقد ادرك القارئ ان بتشورين ، بطل الجيل الذى ترعرع فى عهد القيصر نيقولاى الاول ، غير مذنب فى تصرفاته . فالشر كامن ليس فيه ولا فى طباعه وخصاله ، بل فى ظروف نظام القنانة ، فى الحكم القيصرى المطلق . لقد كشف ليرمونتوف عن «قصة روح» بتشورين باعتبارها ظاهرة العصر . فكتاب «بطل من هذا الزمان» هو رواية سيكولوجية واجتماعية فى آن واحد .

كان صدور رواية «بطل من هذا الزمان» قد وافق نقمة قيصرية جديدة على مؤلفها . فقد نفى الشاعر للمرة الثانية الى القفقاس ، حيث كانت دائرة رحى حرب دموية طويلة الامد . (وكان قد نفى للمرة الاولى عام ١٨٣٧ بسبب قصيدته «مقتل الشاعر» المكرسة لبوشكين) . لقد ثارت نقمة القيصر نيقولاى الاول والمقربين اليه على ليرمونتوف بسبب استقلاليته واحتقاره

للوجهاء الارستقراطيين وبسبب الجو السائد فى مؤلفاته المفعمة بحماس النضال والحرية والتى انهالت ببسالة غاضبة على عيوب مجتمعه .
وفى مستهل عام ١٨٤٠ تمكن اعداء ليرمونتوف من تدبير مبارزة شارك فيها الشاعر فحكمت عليه المحكمة بالنفى . ولم يكن مقدرا لليرمونتوف ان يعود من المنفى . فقد قتل فى مبارزة يوم ٢٧ يوليو (تموز) ١٨٤١ دون ان يناهز السابعة والعشرين من العمر .

وردا على محاولات الحط من سمعة ليرمونتوف وروايته كتب الناقد الديمقراطى العظيم فيساريون بيلينسكى عن بتشورين يقول : يمكن للاخلاقيين المتزمتين ان يجأروا بانه «شخص انانى شرير وحشى لااخلاقى ! . .» الحق معكم ايها السادة . ولكن ما الذى يدفعكم الى ذلك ؟ ولمَ تشتاطون غضبا ؟ انكم تلعنونه ليس بسبب عيوبه — فلديكم اكثر منها ، وعيوبكم اكثر سوادا وعارا — بل بسبب تلك الطلاقة الباسلة وتلك الصراحة الساخرة التى يتحدث بها عنها . . .» لقد تقبل النقاد الديمقراطيون الثوريون الروس رواية ليرمونتوف

باعتبارها مظهرا جليلا للفكر الحر ، كما اعتبروا صورة بتشورين تجسيدا لظاهرة اجتماعية منتشرة ، وتشخيصا لعيوب جيل كامل .

كان بتشورين الذى دشن حياته بعد انتفاضة الديسمبريين قد قضى نحبه قبل ان يظهر على مسرح التاريخ الجيل التالى من الثوريين الروس — الديمقراطيين الثوريين . ان بتشورين بطل لعصر وسيط . وهذا ما اكده بيلينسكى عندما اشار الى الحالة النفسية الانتقالية للبطل ، تلك الحالة «التى تحطم فيها كل قديم بالنسبة للانسان ، بينما الجديد لم يظهر بعد ، والتى يصبح الانسان فيها مجرد امكانية لشىء فعلى فى المستقبل ، ومجرد شبح صرف فى الحاضر» .

كان بتشورين يسعى الى الحرية الشخصية ويفهمها على انها بتر لكل ما يربطه بالمجتمع الراقى البغيض له ، وعلى انها انعزال عن الناس الذين هم اوطأ منه بما لا يقاس . لقد تقوقع وانكمش على نفسه وقضى نحبه فى وحدة وعزلة مأساوية . ولم تكن لديه وسائل لمكافحة الوسط المعادى له .

اما بالنسبة لليرمونتوف فكان الشعر هو هذه الوسيلة وهذا السلاح . وعندما عرى فى روايته عيوب النظام القائم آنذاك ساعد على تطوير الفكر الاجتماعى التقدمى ، وبذلك تكمن الاهمية التاريخية الرئيسية لرواية «بطل من هذا الزمان» .

فهرست

الفصل الاول ٨
١ . بيلا ٨
٢ . مكسيم مكسيمتش ٩٢
يوميات بتشورين ١١٥
مقدمة ١١٥
١ . تامان ١١٨
الفصل الثانى . تتمة يوميات بتشورين ١٤٦
٢ . الاميرة مارى ١٤٦
٣ . الجبرى ٣٢٤
كلمة ختامية ٣٤٧